سومرست موم

أنماط غريبة من الحب

21.7.2017

مجموعة قصص قصيرة من روائع الأدب العالمي

ترجمة

علي باشا

دار علاء الدين

سومرست موم

أنماط غريبة من الحب

مجموعة قصص قصيرة
من روائع الأدب العالمي

ترجمة
علي باشا

منشورات دار علاء الدين

أنماط غريبة من الحب

- أنماط غريبة من الحبّ.
- تأليف: سومرست موم.
- ترجمة: علي باشا.
- الطبعة الثانية 2010.
- عدد النسخ 1000 نسخة.
- تمت الطباعة في دار علاء الدين.

- جميع الحقوق محفوظة لدار علاء الدين.

هيئة التحرير في دار علاء الدين

الإدارة والإشراف العام: م. زويا ميخائيلينكو

المتابعة الفنية والإخراج: أُسامة راشد رحمة

التدقيق اللغوي: صالح جاد الله شقير

الغلاف: م. محمد طه

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية، دمشق، ص. ب: 30598 هاتف: 5617071

فاكس: 5613241، E-mail: ala-addin@mail.sy

ISBN: 978-9933-18-184-0

فضيلة

سيكار (هافانا) جيد وهو أحد أفضل الأشياء التي أعرفها، في الفترة التي كنت فيها شاباً وفقيراً جداً، لم أكن أدخّن سيكاراً إلا إذا قدّمه أحدهم لي، وقد عاهدت نفسي أني إذا أصبح لديّ بعض المال، أن أتذوّق ذلك كلّ يوم: سيكاراً بعد طعام الغداء، وآخر بعد العشاء. وهذا هو القرار الوحيد الذي اتّخذته في شبابي ونفّذته فيما بعد، والطموح الوحيد الذي تحقّق دون أن يسبب لي خيبة أمل. فأنا أحب السيكار العذب الخفيف، على أن تكون رائحته طيبة، وحجمه متوسطاً- لأنه إذا كان صغيراً، يدخنه المرء دون أن يشعر بذلك وإذا كان كبيراً جداً، فالمرء يملّ منه- على أن يكون ملفوفاً بطريقة تجعل المرء لا يبذل أي جهد في تدخينه، وفي ورقة لا تلين وترتخي في الفم محتفظة بطعمها حتّى النهاية. ولكن بعد آخر نفحة (سحبة) منه، عندما تلقي بعقبه المشوّه وتتبدّد سحابة الدخان الأخيرة، كيف يمكن ألاّ يشعر ذو الحسّ المرهف بشيء من الكآبة فيما إذا فكّر بما تطلّب ذلك من عمل وجهد وعناية متعددة الجوانب لكي تتاح لنا تلك المتعة التي لا تستغرق سوى نصف ساعة؟ فلابدّ أن هنالك رجالاً عملوا خلال وقت طويل تحت أشعة شمس المنطقة المدارية، وأنّ بواخر كثيرة قد مخرت عباب المحيطات السبعة من أجل ذلك.

وحيال دزينة من المحار – مصحوبة بنصف زجاجة من النبيذ الأبيض- تصبح هذه الأفكار موجعة، وتكاد تبدو لا تُطاق حيال ضلع

خروف صغير. لأنّ الأمر يتعلق بكائنات حيّة ومن المخيف أن نقول لأنفسنا إنه منذ أن وجدت الحياة على الأرض، خلال ملايين وملايين السنين، توالت أجيال من المخلوقات لكي تنتهي على صحن زجاجي أو على مشواة فضيّة. فهل التهام محارة هو إذن أمر خطير ؟ ربما كان ذهننا القاصر يرفض تقبّل ذلك، لأنّ العلم أخبرنا أن هذا الحيوان ذا الصدفتين قد انفرد عبر العصور في عزلة غير محبّبة. والمحار يُبدي ازدراءً مهيناً بعبقرية الإنسان الغالبة، وكفاءة تخدش زهوه وغروره. ولكنّي أؤكّد أنه يستحيل على المرء أن ينظر إلى ضلع خروف صغير دون أن يتأثّر كثيراً وتطفر الدموع من عينيه: إذ إن مسؤولية الإنسان هنا واضحة، وتاريخ جنسنا مرتبط بتاريخ هذه القطعة الغضّة الموضوعة على صحننا.

ويبدو قدر بني البشر أنفسهم غريباً أحياناً عندما نتفحّصه وننظر إليه: تأمّل الشخصيات الضعيفة في الحياة العامة للناس، والراقصة المجهولة السنّ التي أُقصيت إلى الدرجة الثانية بين الممثلين التافهين، وفكّر بالسلسلة الأزلية التي يشكلون حلقاتها. وعلى المدى الطويل، تحدث مصادفات كثيرة في تتابع طويل الأمد، تنتهي بأن تقودهم، من الطين الأساسي الذي خلقوا منه إلى وضعهم الحالي. وليتنا، على الأقل، نستطيع أن نتبيّن أي معنى عميق لتلك المصادفات والأحداث، لنعتقد أن (روح الحياة) أو الخالق، يعلق أقلّ أهمية على مصيرهم! ولكن عندما يحصل حادث مفاجئ، ينقطع الخيط. والقصة التي بدأت عند بداية الخليقة تجري ببطء وتكاد تتوقّف فجأةً، وتبدو أنها لم يعد لها معنى أو اتجاه، وكأنها حكاية يرويها أحد المجانين. أوليس من الغرابة بمكان أنّ ذلك الحدث الذي يتسم بخطورة مأساوية، يمكن أن يكون سببه تافهاً، لا يكاد يذكر.

حادث عادي وتافه، كان من الممكن ألاّ يحصل، ومع ذلك تكون

نتائجه خطيرة ولا يمكن تبيّن مداها ولا جوانبها. والقدر الأعمى يبدو أنه هو الذي يدير ويوجه كل شيء، وأعمالنا الأكثر بساطة والأشد التصاقاً بنا يمكن أن تؤثر بشكل عنيف على حياة أناس مجهولين، وتقلبها رأساً على عقب.

والقصة التالية،لم يكن لها أن تحدث أبداً، لو أني لم أعبر الشارع في ذلك اليوم. والأحداث تحصل متوالية في الحياة حسب منطق غريب، بحيث ينبغي أن نتحلّى بطريقة خاصة جداً في التفكير لكي نجد فيها جانباً مضحكاً.

في صباح يوم ربيعيّ كنت أتسكّع في شارع (Bond Street) لتمضية الوقت حتّى يحين موعد الغداء، وقررت القيام بجولة عند (Sothely) في صالة المبيعات. واغتنمت فرصة توقف السيارات بسبب الازدحام الشديد، فتسلّلت بينها، وعندما وضعت قدمي على الرصيف المقابل، وقعت عيني على شاب تعرّفت عليه في (بورينو)[1] كان قد خرج من أحد المخازن التي تبيع القبعات.

- أيه، يا (مورتون)! ومنذ متى أنت في العاصمة؟

- منذ ما يقرب من ثمانية أيام.

و(مورتون) هذا، كان موظّفاً إدارياً في إحدى المستعمرات. وقد أعطاني لحاكم الجزيرة التي يعمل فيها رسالة تعريف وتوصية، كان عليّ أن أسلمها له، وكنت قد كتبت له عن رغبتي بتمضية أسبوع في تلك المنطقة والإقامة في (بيت الضيافة) الرسمي. ولكن، وعند وصولي، كان ينتظرني على الرصيف ودعاني للإقامة في منزله. فأبديتُ بعض

---

[1] اكبر الجزر الواقعة في جنوب شرق آسيا.

التردّد: أسبوع على انفراد مع شخص أجهله؟! كما أني لم أكن أرغب بأن أكبّده نفقات إضافية، وأفضّل التمتع بحريتي. ولكنه لم يشأ أن يسمع شيئاً عن ذلك، قائلاً: منزلي فسيح، و(بيت الضيافة) الرسمي، غير جاهز، ولا يصلح للإقامة فيه. وهاقد مضت ستة أشهر لم أتبادل خلالها أربع كلمات مع رجل أبيض. وكثيراً ما أشعر أني في عزلة وأعيش منفرداً.

وأخيراً قبلت دعوته. وأوصلنا بزورقه إلى المنزل، وبعد أن قدّم لي المرطبات، استولى عليه خجل مفاجئ، والحديث الذي بدأ سهلاً وحيوياً، بردت حدّته ثم اضمحلّ وتوقف. فعملت كل ما في وسعي لكي أبعث لديه الراحة والسرور، طالباً منه أن يسمعنا أحدث اسطواناته. فهيأ الجهاز وأعاده إلى حالته الطبيعية إيقاع (الرجتيم) (rag-time)[٢]

كان المنزل يطلّ على النهر. وغرفة الجلوس -وهي عبارة عن شرفة فسيحة- أثاثها من النوع الذي تزوّد به منازل الموظفين الذين يتنقّلون كثيراً. فيصبح هذا الأثاث معرّضاً على الدوام للنقل من مكان إلى آخر، وكان يزيّن الجدران بعض القبعات المحلية، قرون حيوانات، سبطانات ورماح، وعلى منضدة صغيرة، تكدّست الروايات البوليسيّة والمجلات المصوّرة القديمة. كان هنالك أيضاً بيانو مستقيم الشكل، اصفرّت (ملامسه). وكل شيء يبدو مهملاً، ولكنّ المكان كان مريحاً.

ولسوء الحظ، فإني لم أحتفظ إلا بذكرى غير واضحة لملامح (مورتون) الذي كان لا يزال شاباً، في الثامنة والعشرين من عمره، كما علمت فيما بعد، وقد حافظت ابتسامته على مرح وسحر الفتوة والمراهقة. لقد أمضيت معه أسبوعاً ممتعاً: كنّا نتنزّه على ضفاف النهر، وقد تسلّقنا أحد الجبال.

---

[٢] موسيقى أمريكية، زنجية الأصل. (المترجم)

وذات يوم، أقيم حفل غداء حضرناه مع بعض أصحاب المزارع. وكل مساء كنّا نذهب إلى النادي. حيث نلتقي بأحد أصحاب المعامل ومستخدميه، الذين لا يكثرون من الكلام، بل يظلّون معظم الوقت صامتين. وقد بذل (مورتون) جهداً كبيراً لإقناعهم بلعب (البريدج) معي، لم يكن هنالك أيّ شعور بالمودّة. كنّا نعود لتناول طعام العشاء، وبعد الاستماع لبعض الاسطوانات، كان كل منّا يأوي إلى سريره ويخلد للراحة والنوم. أمّا عمل المكتب فلم يكن يشغل حيزاً كبيراً من وقت (مورتون). ولولا همّته القوية ومزاجه السليم، لبدا له الوقت طويلاً ومملاً، ولكنّه وهو في أول منصب يشغله، كان سعيداً لتمتّعه باستقلالية واضحة. وكل ما كان يخشاه، هو أن يحصل تغيير، أو أن يُنقل إلى مكان آخر، قبل أن يُنجز العمل في شق طريق كان قد بدأه قبل حين. وبمزيد من المطالبة والإلحاح سبق له أن حصل من الحكومة بصعوبة على المخصّصات المالية الضرورية. مع أنه هو الذي أنجز الأعمال الطبوغرافية ووضع مخطط الطريق. وقام بمفرده بحل المشاكل التقنية. وصباح كل يوم، كان يستقل سيارته الـ(فورد) القديمة التي توصله بمشقّة وكيفما كان إلى مكان العمل. ودون كلل أو ملل كان يتابع تقدّم الأشغال، مفكّراً بذلك ليلاً ونهاراً.

وبموجب حساباته كان ينبغي أن يُنجز هذا العمل خلال عام واحد، وكان ينتظر تلك اللحظة، ليأخذ إجازته. فلا الرّسام ولا النّحات (المثّال) يبدي من الشّغف والهوس في إبداع وإنجاز عمله، أكثر مما كان يبديه (مورتون). أحببت هذه الحماسة والبساطة لديه. كانت حمّى النجاح تجعله لا يبالي بالوحدة والعزلة، ولا بالترفيع، حتى ولا بفكرة العودة إلى الوطن. لقد نسيت كم يبلغ طول ذلك الطريق، وأفترض أنه خمسة عشرَ أو عشرون كيلو متراً، ونسيت أيضاً إلى أين يوصل. ولاشك أن (مورتون) كان قليل الاهتمام بذلك. كانت حماسة تشبه

الفنان، وفوزه كان بمثابة فوز وانتصار الإنسان على الطبيعة. ومع تقدمه في العمل كان يكتسب مزيداً من الخبرة: كان عليه أن يكافح ضد الغابة وضدّ الأمطار الغزيرة التي تخرّب في ليلة واحدة عمل أسابيع عديدة، وكان عليه أن يتغلّب على الصعوبات التي تنجم عن طبيعة الأرض. وعليه أن ينسّق الجهود. فالتمويل لم يكن كافياً، ولكنّ خياله الواسع كان يعوّض عن ذلك، ويضفي على هذا الكفاح طابعاً ملحمياً مثيراً، تتوالى حلقاته كالأحداث التي لا تُحصى في مسلسل طويل، لا نهاية له.

مسألة الوقت، هي وحدها التي كانت تقلقه. وكثيراً ما استبقته مهام وظيفته في المكتب: فهو القاضي وجابي الضرائب، والأب والأم - رغم أنه لم يتجاوز الثامنة والعشرين- لجميع من هم تحت إدارته. والجولات التفتيشيّة التي يقوم بها أحياناً كثيراً ما تقوده إلى أماكن بعيدة، وفي غيابه تكاد الأعمال تتوقف ولا يحصل أيّ تقدّم. وكم كان يودّ لو يستطيع أن يكرّس أربعاً وعشرين ساعة في اليوم لتقوية وإثارة طاقة ونشاط مستخدميه وعمّاله. وقد حصل حادث أفرحه كثيراً، وذلك قبل وصولي بفترة وجيزة: فقد عرض على متعهد صينيّ اتّفاقاً لتنفيذ مسافة معيّنة من الطريق، فأبدى الرجل الأصفر مطالب كثيرة ومذهلة. ورغم المساومات الملحّة لم يتمكّنا من التفاهم. واضطر (مورتون) والغيظ يملأ قلبه إلى التوقف عن العمل. كان يشعر أن موارده قد نضبت، عندما علم ذات صباح، وهو ذاهب إلى مكتبه أن مشاجرة قد حصلت في الليل، في حانة صينيّة. وأنّ أحد العمال أصيب بجرح خطير، وقد أُلقي القبض على المعتدي. ولم يكن ذلك المعتدي سوى ذلك المتعهد العنيد والمتشدّد. وأُحيل إلى المحكمة، ولم يكن هنالك أي شك في كونه قد ارتكب تلك الجريمة، فحكم عليه (مورتون) بالسجن ثمانية عشر شهراً مع الأشغال الشّاقة.

وصرّح (مورتون) بعد ذلك، والبهجة تتلألأ في عينيه: (إنّه الآن مضطر للقيام بذلك العمل دون مقابل). وقد شاهدنا السجين، ذات يوم، وهو بملابس السّجناء منصرفاً إلى العمل، بلا مبالاة، دون أن يبدو عليه أنّ مصيبته قد عكّرت مزاجه.

وقال لنا (مورتون) لقد وعدته بإصدار عفو عنه عندما يتم إنجاز الطريق، فسرّ كثيراً بذلك. وأنا، من جهتي، كنت محظوظاً بحصول تلك الحادثة، أليس كذلك؟!

وعندما عزمت على السفر، دعوت (مورتون) لزيارتي عندما يأتي إلى إنكلترا. فوعدني بأن يكتب لي فور وصوله. وفي ظروف كهذه تكون الدعوات صادقة وجدية، ولكن إذا كانت مجرّد كلمات للمجاملة، فهي مزعجة. والناس يبدون مختلفين عندما يكونون خارج مكان إقامتهم! فهنالك تراهم مرتاحين، ودودين وعلى سجيّتهم، يروون لك الحكايات ويحدّثونك عن أمور كثيرة وهامة ويحيطونك بالعناية التامة. ولكم تودّ أنت عندما يأتي دورك أن تبرهن على أن ضيافتك لا تقلّ شأناً عن ضيافتهم. ولكن الأمر ليس سهلاً. فبقدر ما يعجبونك وهم في محيطهم بقدر ما يصبحون مزعجين، يبعثون على الملل، عندما ينتقلون إلى محيطك، حيث يشعرون أنّهم مهجّرون. ويضطر أصدقاؤك لمجاملتهم والتودّد إليهم، ولكنهم يتنهدون بارتياح، عند انصراف الضيف الغريب، ويعود الحديث ليأخذ لهجته المعتادة. ولاشك في أنّ الكثير من التجارب المرّة والمذلّة قد أثّرت على أولئك الذين يقيمون في بلاد نائية، فهم نادراً ما يستغلّون تلك الدعوات التي توجّه لهم بكل حماسة، هناك بجانب إحدى الغابات، والتي يتقبّلونها بكل بهجة وسرور. وبالنسبة لمورتون، الشاب الأعزب، الأمر يبدو مختلفاً. والصعوبات تحصل، بصورة عامة، بسبب النساء، إذ إنّ صديقاتك، يعرفن أنّ الضّيفات ريفيات، من أول نظرة إلى ملابسهن المدعوكة،

ويعاملنهن بلا احترام وبلا مبالاة، فيخجلن ويتجمّد الدم في عروقهن.

ولكنّ الرجل يجد دائماً عملاً يلهو به كلعب الورق، رياضة كرة المضرب أو الرقص. و(مورتون) لم تكن تنقصه الجاذبية السّاحرة. فلن يمر يوم أو يومان إلاّ وقد استعاد توازنه وثقته بنفسه.

وقلت له، معاتباً: (إنّك لم تُعلمني حتّى الآن بوصولك!).

فأجابني: (ولماذا أثقل عليك بوجودي؟)

- (ما هذا الذي تقوله؟!)

وحقيقة القول، فإنه كان يبدو لي، على رصيف (Bond Street) غريب الشكل: فقد كنت أراه دائماً في بنطال من الخاكي، وقميص من القماش القطني، إلاّ عند العودة من النادي، حيث كان يرتدي عند تناول العشاء سترة بيجاما فوق ثوب من الزّي المحلي (Sarong) وهو لباس مريح في المساء.. أمّا هنا، فكان يبدو مرتبكاً بعض الشيء، في بزّته المصنوعة من الجوخ الأزرق. وبياض ياقة قميصه المستعارة، كانت تجعله يبدو، بالتناقض أكثر سمرة.

وسألته: (ماذا بشأن الطريق؟)

- لقد أُنجزا كدت أرجئ مرة أخرى إجازتي، لأنّ بعض الصعوبات قد واجهتنا عندما أوشكنا على الانتهاء. ولكنّي طلبت من جميع العاملين الإسراع في العمل، وعشية يوم رحيلي، استطعت القيام بالرحلة ذهاباً وإياباً عليه، بسيارة (الفورد) دون توقّف.

فأخذت أضحك وقد سرت إليّ فرحته المعدية.

- وفي لندن، ماذا فعلت؟

- أوصيت على بعض البذلات والملابس.

- وهل لهوت جيداً؟

- نعم، وبشكل عجيب، أنا أشعر بالطبع أني وحيد، أعيش بمفردي، ولكنّ الأمر سيّان بالنسبة لي، فأنا أذهب كل مساء إلى

المسرح. وآل (باليرس)، الذين التقيت بهم في (سرواك) على ما أظنّ، كانوا ينوون المجيء إلى هنا في الوقت نفسه الذي أتيت فيه أنا، وقد تواعدنا على القيام سوية بجولة على الملاهي، ولكن يبدو أنهم ذهبوا إلى أسكتلندة، لزيارة والدة السيدة (باليرس) المريضة.

هذا الكلام وهذه اللهجة البسيطة، جعلا قلبي ينقبض. إنها القصة نفسها على الدوام: فهؤلاء البؤساء يظلّون يحلمون بالحصول على إجازتهم طيلة ثلاث أو أربع سنوات. وعندما يصلون إلى الوطن، لا يستطيعون إخفاء فرحتهم: لندن، بمخازنها، بنواديها، بمسارحها، ومطاعمها: (لندن)! يا له من عيد سينعمون به! ولكنّ لندن تبتلعهم: ويشعرون أنهم ضائعون عبر الازدحام والضجيج في المدينة اللامبالية والتي لا تعيرهم أي اهتمام. فلا أصدقاء لهم، ولا أية صلة مع الناس الذين يلتقون بهم. لقد كانوا أقل عزلة حتى في تلك البلاد النائية. وعندما يصادفون في أحد المسارح شخصاً تعرّفوا عليه في بلاد المشرق، يعتبرون ذلك عزاء لهم -وإن كانوا هناك، يرون أنّه مملّ ومزعج- فهم يستطيعون تمضية الأمسية برفقته، ويسرع كل منهما بالتحدث إلى الآخر عن لهوه وعن شدّة تمتعه بذلك، ويتم هذا على حساب أصدقائهما الذين يضطرون إلى سماع تلك الأحاديث التافهة. ومع ذلك، فإنهم عند انتهاء إجازتهم لا يأسفون ولا يستاؤون، بل يعترفون بسرورهم للرحيل واستئناف العمل هناك. حقاً، لقد التقوا بأفراد أسرهم وأقاربهم، ويفرحون بالعودة إلى عالمهم وبالاجتماع مع معارفهم. ولكنهم يشعرون أنّ الأمور ليست كما كانت فيما مضى، لأنهم يرون أنفسهم غرباء بعض الشيء بين هؤلاء. وباختصار فإن العيش في إنكلترا يربكهم وتبدو لهم الحياة مملّة فيها، والعودة إلى الوطن جميلة وساحرة، ولكن شريطة ألاّ يبقوا فيه: إنهم يتذكرون البيت الريفي على ضفة النهر، الهدوء الذي ينعمون به هناك، الجولات في المنطقة! ومغامرات الهروب إلى (سندكان)، (كوشانغ) أو إلى (سنغافورة).

ومازلت أتذكر كم كان (مورتون) سعيداً باقتراب موعد سفره لقضاء إجازته، عندما أوشكت الأعمال في الطريق على الانتهاء، ولا أستطيع أن أتصوره، دون أن تساورني الشفقة عليه، وهو يتناول طعام العشاء في نادٍ، كئيب الجوّ، لا يعرف أحداً من أعضائه، أو وهو بمفرده، قبل ذهابه إلى المسرح، في أحد مطاعم حيّ (سوهو) دون رفيق يتبادل معه الحديث والآراء عمّا يُعرض على المسارح، أو يتناول وإيّاه كأساً من الويسكي، أثناء فترة الاستراحة. وحتى لو أنّي علمت أنّه موجود في لندن، لما استطعت أن أفعل الشيء الكثير من أجله:

ففي الأسبوع السابق لم يتح لي أي وقت من الفراغ والحرية. وهذا المساء، سألتقي ببعض الأصدقاء لنذهب إلى أحد المسارح، وفي اليوم التالي عليّ أن أسافر إلى الخارج. لذلك سألته:

(ماذا ستفعل هذا المساء؟).

- سأذهب إلى مسرح (البافيون) (Le Pavillon). جميع المقاعد كانت محجوزة، ولكنّي التقيت عند المدخل بشخص لطيف أعطاني بطاقته التي كان يريد إرجاعها، وكما تعلم، فالمرء يستطيع تدبير أمره إذا كان بمفرده.

- وماذا في ذلك، لو أتيت لتتناول طعام العشاء معنا؟ فأنا أصطحب بعض الأصدقاء إلى أحد المطاعم، ثم سنذهب إلى المسرح.

- بكل سرور.

فحدّدنا موعداً للّقاء في الساعة الحادية عشرة، وتركته، وذهبت للقيام ببعض أعمالي.

كنت أخشى ألاّ يروق أصدقائي كثيراً لمورتون، لأنّهم كانوا متفوقين عليه كثيراً في السنّ، ولكن في عزّ الصيف أين تجد في آخر

لحظة أيّ شاب أو شابة؟ زد على ذلك أن أيّة فتاة لن تتقبّل بسرور دعوتي لها لمراقصة شاب خجول قادم من ماليزيا. وآل (بيشوب) على الأقلّ، يمكن أن يستقبلوه ويستضيفوه، وعلى أيّة حال، ألا يفضّل أن يتناول طعام العشاء على أنغام وألحان جوقة موسيقيّة جيدة، وهو ينظر إلى نساء جميلات وهنّ يرقصن (الفالس)، بدلاً من أن يأوي إلى سريره وينام عند الساعة الحادية عشرة، لأنه لا يعرف إلى أين يذهب؟

كنت قد تعرّفت على (شارلي بيشوب) في الفترة التي كنت أدرس فيها الطب. كان آنذاك شاباً نحيلاً أصهب، بارز الملامح. نظارته تمنع الناظر إليه من تبيّن جمال عينيه السّوداوين. وكانت البهجة تشعّ من وجهه المستدير. واهتمامه بالنساء كان شديداً، ولأنه لم يكن يملك كثيراً من المال، ولا يهتم بهندامه وأناقته، فلابدّ أنه كان يعاملهن بلطف وبأسلوب خاص، لأن الكثيرات منهن لم يكن لهن مطلب سوى إرضاء رغباته العديدة والمتغيّرة. كان ذكيّاً ولكنه يبالغ في الادعاء، مماحكاً ومتحمساً، غضوباً على الدوام وأكولاً. وباختصار يمكن اعتباره رفيقاً غير مستحب، ولكنه لم يكن مزعجاً أبداً. والآن وقد تجاوز الخمسين من العمر، فقد ازداد وزنه، وفقد شعره، ولكن من خلال نظارته الذهبية مازالت نظرته حادة وساخرة. ورغم لهجته الجازمة وغروره وسخريته، كنت أعتبره شاباً طيباً.

ومع مرور الزمن، يعتاد المرء على عيوب ومساوئ أصدقائه ويألفها. ثم ينتهي به الأمر إلى تقبّلها، مثلما يتقبّل ما يصيب جسمه من أمراض وتشوهات. وهو اختصاصي في علم الأمراض، ولذلك كان يرسل لي من وقت لآخر نسخة من آخر مؤلفاته. فتبدو لي جافة، تقنية جداً، ومزدانة بلوحات مخيفة تمثل مختلف أنواع الجراثيم. ولذلك لم أقرأ منها سطراً واحداً. وبشأن هذه الأمور كان ينظر إلى (شارلي) على أنّ أفكاره خاطئة، ولذلك لم يكن يحظى بالتعاطف وبالمودّة من

قبل زملائه، أما هو، فلم يكن يزعجه أن يعتبرهم أغبياء جميعهم وأن يتعامل معهم على هذا الأساس، ولكن عمله كان يدرّ عليه ستمائة أو ثمانمائة جنيه في العام، أمّا رأي الآخرين، فلم يكن يعيره أي اهتمام.

معاشرة قديمة استمرت ثلاثين سنة، جعلتني أحب (شارلي بيشوب) ولكني كنت أحب زوجته (مرغري) أيضاً، لأنها كانت فاتنة حقاً. وقد أدهشني كثيراً زواجهما: كان (شارلي) في الأربعين من العمر تقريباً في ذلك الحين، وعدم ثباته كان يبعث على الظن أنه سيبقى عازباً. وحبه الشديد للنساء كان حب الرجل الماجن وليس حب الإنسان العاطفي. وهو يعرف على الدوام ماذا يريد، ويطلبه. فإذا لم يحصل عليه بواسطة الحب ولا بالمال، فإنه عند ذلك يهزّ كتفيه ولا يبدي أيّ إلحاح: أي باختصار إنه لم يكن يبحث لدى النساء عن أمور مثالية، بل عن إشباع رغباته الحسّية. فكيف إذن، وهذا وضعه وهذه تصرفاته، كنّ يتساقطن كالبقّ في فراشه؟ أمّا حاجاته الفكرية، فكانت البنى الوحيدة الخلية، أي الشيء القليل، يكفيها ويشبعها. وهو صريح في كلامه دائماً، وعندما أخبرني بزواجه من الآنسة (مرغري هوبسون) لم أجد حرجاً بأن أطلب منه تفسير ذلك. فكتم ضحكته المعتادة، وقال:

(هنالك ثلاثة مبررات لهذا الزواج، الأول هو أنها ترفض أن تنام معي دون ذلك. والثاني أني أحبها بشكل جنوني، وأخيراً فهي وحيدة في هذا العالم وليس لها أي قريب، فلابدّ من أن يعتني بها أحدٌ ما).

فقلت له:

- المبرّر الأول ليس سوى تبجّح، والثاني هذر وهراء: أما الثالث فهو الحقيقي، لقد استولت عليك هذه المرأة عن طريق الحواس.

فبرقت عيناه عبر نظارته الضخمة، وقال لي:

- (يمكن أن تكون محقاً وعلى صواب).

- إنها لم تُمسك بك بـ... وحسب... أي بالعضو الذي يُجرّ به

الشيطان، ولكنها سحرتك، وسررتَ أنت بما فعلت بك.

- تعال لتناول طعام الغداء معنا غداً وستراها، فهي تبدو ظريفة لمن ينظر إليها.

كان (شارلي) عضواً في نادٍ مختلط، كنت أرتاده كثيراً في ذلك الحين، فتواعدنا على الالتقاء هناك.

بدت لي (مرغري) مغرية جداً، لم تكن قد بلغت الثلاثين من العمر، كانت حسنة التهذيب، فقد لاحظت ذلك بسرور ولكن ليس دون أن يدهشني ذلك بعض الشيء، لأنّ (غزوات) شارلي كانت بصورة عامّة، تحدث دون تمييز. ودون أن تكون جميلة، فقد كانت ظريفة، بشعرها الكثيف الأسود وعينيها المعبرتين، وسيمائها الجميل، كما كان صدقها وصراحتها مدعاة للمودّة والتعاطف. ويبدو أنها شريفة، ومستقيمة، دون مواربة، وفيّة في مجال الصداقة. وقد شعرت في الحال أنها جذبتني وخلبت لبّي. فالحديث معها لا ينضب، وإذا كانت أحاديثها، رغم حيوية ذهنها وثقتها بنفسها، ليس فيها ما هو فائق الأهمية، فهي على الأقل تتابع حديثك بيسر وسهولة أيّاً كان موضوعه. وفي الوقت نفسه تبدو عملية، تتمتع بقدر كبير من الكفاءة، كما أنّ وداعتها تنمّ عن مزاج سليم وعن السكينة وراحة البال.

كانا يبدوان مسحورين، وقد افتتن كل منهما بالآخر. فتساءلت:

(لماذا تتزوج هذا الرجل القصير، الغضوب الذي فقد شعره وأصبح أصلع ولم يعد شاباً؟) ولكني لم ألبث أن أدركت السبب: إنه الحب. فقد كانا يتعاكسان ويضحكان كما يفعل الأطفال. وأحياناً كانت نظراتهما تتلاقى، وقد اتسمت بالجدية لتبادل الرسائل السريّة.

وبعد ذلك بأسبوع، عُقد قرانهما. وكان زواجهما موفّقاً وقد اتّحدا بشكل رائع. واليوم، وبعد ست عشرة سنة، لا أستطيع الامتناع عن الإعجاب بجولة المسرّات التي لم تتوقف مسيرتها في حياتهم. ولم

أعرف في حياتي زوجين أشد ارتباطاً وتعلّقاً أحدهما بالآخر، من هذين الزوجين. ورغم أنهما لا يملكان الكثير من المال، فلم يكن ينقصهما شيء، ولم تكن تقلقهما أية مطامع أو طموحات، وبدت حياتهما كنزهة خلوية مستمرة إلى ما لا نهاية. كانا يقيمان في شقة صغيرة تقع في (Panton Street) (شارع بانتون): غرفة نوم، ردهة صغيرة وحمّام يستخدم كمطبخ إذا دعت الحاجة إلى ذلك. ولكن لم يكن أي منهما يرغب بتحضير الطعام وتناوله في المنزل، وفيما عدا وجبة الإفطار، كانا يتناولان طعامهما في أحد المطاعم. وهكذا، فإن البيت بالنسبة لهما، هو المكان الذي ينامان فيه. وإذا أتى أحد الأصدقاء ليتناول معهما كأساً من الويسكي، فإنه يحدث ارتباكاً في المنزل، الذي كان مع ذلك، يبدو مريحاً. وبمساعدة إحدى الوصائف، كانت (مرغري) تحافظ على نظافته، بقدر ما تسمح به الفوضى التي يحدثها (شارلي) ولكن لا شيء فيه كان يحمل طابع الذوق الشخصي. وأثناء إجازات (شارلي) كانا يعبران (المانش) مصطحبين معهما سيارتهما الصغيرة، وينطلقان في التجول، على هواهما، في أوروبا: حقيبتان صغيرتان وحسب تحويان كل أمتعتهما، غير مبالين بسوء الأحوال الجوية ولا بالأعطال التي تحصل بالسيارة: بل كانا يضحكان ملء شدقيهما عندما ينفجر أحد الإطارات. وإذا حدث وضلاّ عن الطريق فإنهما يقضيان ليلتهما في العراء، فيالها من متعةلهذينالبوهيميين!

وقد ظلّ (شارلي) كعادته، نزقاً، غضوباً، ومشاكساً، ولكن أي كلام أو تصرف يبدر منه لم يكن يعكر صفو وهدوء (مرغري) وبكلمة واحدة كانت تهدّئه، وتداعبه كما كانت تفعل سابقاً.

وكانت تنسخ على الآلة الكاتبة مخطوطات دراساته عن الجراثيم المجهولة وتصحح تجارب طباعة مقالاته التي كان يكتبها للمجلات العلمية. وسألتها ذات يوم، فيما إذا كان قد سبق لهما أن اختلفا أو تخاصما. فأجابتني هي:

(كلا، وكيف يمكن أن نفعل ذلك؟ إن (شارلي) يتحلّى بطباع وأخلاق الملائكة).

- يا لها من كذبة! لقد كان على الدوام، ولا يزال متسلطاً ومشاكساً.

فنظرت إليّ وقهقهت ضاحكة، لأنها، دون شك، ظنّت أني أمزح.

وتدخّل (شارلي) قائلاً: (دعيه يخرّف ويهذي، أنت ترين تماماً أنه يستخدم كلمات يجهل معناها).

ولم يكن أحدهما يملّ من الآخر، وظلاّ كما في السابق، (شارلي) يعود من المخبر كل يوم لتناول طعام الغداء مع (مرغري) في المطعم. وكانا أحياناً يتلقّيان الدعوات لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في الريف فيضحك أصدقاؤهما بمودّة من جواب (مرغري) الذي لا يتغيّر:

(سنذهب بالتأكيد، وبكل سرور، شريطة أن تخصّصوا لنا سريراً كبيراً، فلأننا منذ زمن طويل ننام سوية في سرير واحد، لم يعد أحدنا يستطيع أن ينام بمفرده).

وكان ذلك يسبب إرباكاً في معظم الأحيان، لأن البيوت الحديثة ليست مصمّمة بشكل يناسب الزوجين اللذين لا ينفصلان عن بعضهما. والأزواج بصورة عامة، لا يصرّون على أن يكون لكل منهما غرفته الخاصة وحسب، بل ينزعجون حتى من فكرة استخدامهما لحوض حمام (baignoire) واحد. ويعرف أصدقاؤهما أنهم يجب أن يهيّئوا لهما غرفة بسرير واحد وكبير، لكي يلبّيا دعوتهم. وبالطبع، كان بعضهم يستنكرون ذلك لأنه يسبب إرباكاً شديداً، ولكن أية نزوات لا يمكن تحملها للإمساك بهذين الزوجين العاشقين، كان هؤلاء يسرّون ويلهون بمشاهدة مرح، (شارلي) وسماع أحاديثه الساخرة. ومن هو الذي لا يحب (مرغري) الوديعة والظريفة؟ وبالنسبة لهذين الزوجين السعيدين لم يكن هنالك شيء أحلى على القلب من نزهة طويلة سيراً

على الأقدام، يقومان بها بمفردهما في الحقول الريفية.

وعادةً عندما يتزوج الرجل، تبعده زوجته، عاجلاً أو آجلاً، عن أصدقائه القدامى، أمّا (مرغري) فعلى العكس من ذلك، لقد شدّدت أواصر صداقته معهم وقوّت من حميميّتها. وبتأثيرها أصبح (شارلي) أقلّ قسوة، وأخذ يبدو محبّباً ولطيفاً. ولم يكن الانطباع عن (آل بيشوب) يوحي بأنهم يشكلون أسرة. بل عاشقان عازبان قديمان يعيشان سوية. وعندما تكون (مرغري) المرأة الوحيدة بين مجموعة من الرجال، وكثيراً ما كان يحصل ذلك، فإنها لا تتكمش ولا تبدو متزمّتة، بل تشارك في الأحاديث، وتسارع إلى الرد على الأسئلة، بحيث لا يعتبرها الرجال دخيلة عليهم، وأنا لم أكن أحضر إلى إنكلترا أبداً، إلاّ وأذهب لزيارتهما. كانا يتناولان طعام العشاء في النادي الذي ذكرته، وعندما لا يكون لديّ ارتباط أو موعد آخر، كنت ألحق بهما.

وفي ذلك المساء، التقيت بهما لتناول الطعام على عجل، قبل الذهاب إلى المسرح، وأخبرتهما بأن (مورتون) سيحضر لمرافقتنا. وقلت لهما: (أخشى أن يبدو لكما غريباً جداً، ولكنه بالحقيقة شاب طيب، وكان لطيفاً معي أثناء إقامتي في (بورينو).

فصرخت (مرغري): (لماذا لم تُخبرني مسبقاً، لكي أُحضر معي إحدى الفتيات).

فقال (شارلي): (ولماذا تُحضرين إحدى الفتيات؟ ألستِ هنا، أنت؟)

فأجابته زوجته: (كم هو ممتع، بالنسبة لشابٍ الرقص مع امرأة كبيرة، في مثل سنّي!)

- سنّك!.. وما علاقة سنك بذلك؟

والتفت نحوي:

- أتعرف امرأة ترقص أحسن منها؟

كنت أعرف بعضهن، ولكنها ترقص جيداً، بخفّة ورشاقة

محبّبتين، مع محافظتها بدقّة على الإيقاع.

فأجبته بحماسة واضحة:

- كلا بالتأكيد.!

كان (مورتون) ينتظرنا في ملهى (Eiro's) وقد أبرز هندامه لتلك الأمسية سمرة وجهه الذي لوحته الشمس. هل لأني كنت أعلم أنّ بزّته الرسمية (السموكنغ) هذه، قد أمضت أربع سنوات في حقيبة مبطنة بالتنك تُحيط بها كرات صغيرة من (النفتالين)؟

وعلى أية حال، فقد بدا لي متضايقاً في بزّته هذه، لأنه معتاد على ملابس (الخاكي) الخفيفة التي تناسبه أكثر من هذه.

طلبت بعض المشروبات: (كوكتيل) و(شمبانيا). وأخذ (شارلي) وهو المحدّث البارع، يتحدّث ونحن نصغي إليه، و(مورتون) من جهته، كان يبدو منكمشاً وقد اعتراه الخجل. ولابدّ أنه كان يرغب بالرقص، ولكن أيخطر على باله أن يدعو (مرغري) لمراقصته. فنحن بالنسبة له، لابدّ أننا ننتمي إلى جيل آخر.

- (يجب أن أقول لك إنّ السيدة (بيشوب) ترقص بشكل رائع)

- حقاً؟

وقال لها وقد احمر وجهه:

هل تمنحينني شرف مرافقتك في إحدى الرقصات؟

وابتعدا.

كانت (مرغري) في تلك الأمسية بفستانها الأسود البسيط تبدو بالحقيقة باهرة المظهر والجمال. وفي تلك الفترة كان لا يزال زيّ الملابس القصيرة هو الدّارج، لتكشف لنا عن ساقي (مرغري) الرائعتين. ولابدّ أنها قد تزيّنت قليلاً، ولكن بالمقارنة مع زينة وبهرجة النساء الأخرى، كانت عذوبتها تبدو طبيعيّة. وشعرها القصير يناسبها تماماً، ولم تكن تلمع أية شعرة فضّية في تموجاته المدهشة. وعادت إلى

مائدتنا وقد بدت أكثر حيوية ونشاطاً، محمّرة الخدين، برّاقة العينين.

فسألها زوجها: (أيرقص جيداً)؟

- وبشكل رائع!

فقال (مورتون):

- من السهل إجادة الرقص معك.

وأخذ (شارلي) يروي حكاياته ونوادره المسلّية، بما تتضمنه من دعابة وسخرية، وكنّا نشعر بأنه يهتم كثيراً بكل ما يرويه. ولكنّ (مورتون) لم يسبق له أن اطّلع على الأمور التي كان يتحدث عنها، ورغم أنه، بدافع المجاملة أخذ يتظاهر بالانتباه إلى تلك الأحاديث، ولكنه في الحقيقة كان يبدو شارداً ومأخوذاً بجو المرح والبهجة، الذي يسود المكان، وبالموسيقا والشمبانيا. وعندما استأنفت الجوقة الموسيقية عزف ألحانها، توجّه بنظراته المتسائلة نحو (مرغري). فلاحظ (شارلي) هذه النظرات، فابتسم وقال لزوجته:

- (اذهبي وارقصي معه يا (مرغري)، ويسرّني أن تقومي بهذه التمارين من وقت لآخر)

فذهبا، بينما كان (شارلي) يتأمّل زوجته بحنان ومحبّة. وقال:

(إنها مسرورة، فهي تحب الحركة والرقص، أمّا أنا فإنّ ذلك يُتعبني ويجعلني ألهث كالفقمة. ويبدو أن هذا الشاب ليس سيئاً على أية حال).

وبدا اجتماعنا الصغير ناجحاً، وبعد أن أودعنا السيدة والسيد (بيشوب) في إحدى سيارات الأجرة، ذهبت برفقة (مورتون) سيراً على الأقدام، متّجهين نحو (بيكاديلّي سيركوس) فأخذ يشكرني بتأثّر شديد على السهرة الممتعة التي أتحتها له في تلك الأمسية.

ثم ودّعته وانصرفت. وفي صبيحة اليوم التالي غادرت إنكلترا.

لقد أسفت لأني لم أستطع الاهتمام به أكثر من ذلك، لأنه عند عودتي، يكون قد سافر، عائداً إلى (بورينو). وقد مرّت ذكراه في ذهني أكثر من مرة، ولكني عندما عدت إلى لندن، في الخريف، كنت قد نسيته ولم أعد أفكّر به، وبعد ذلك بثمانية أيام، دخلت ذات مساء إلى النادي الذي يرتاده (آل بيشوب) فوجدت (شارلي) جالساً مع بعض رفاقنا الذين لم أكن قد رأيتهم بعد عودتي.

وبادرني أحدهم: (بيل مارش) وهو زوج إحدى أعزّ صديقاتي، بالدعوة لتناول كأس (مارتيني) معه.

وسألني (شارلي): (من أيّ عالم أتيت أنت، كنت أتساءل: ماذا حدث لك يا ترى؟)

كان ثملاً، وقد دُهشت لذلك، فهو معروف بحبه للكحول ولكنه يتحمّلها جيداً، ولا يكثر من تناولها أو يتجاوز الحد المعقول. وعندما كنّا فتياناً وفي ريعان الشباب، كان يحلو له أن يعتبر سكّيراً ولكنّ ذلك كان بخاصة لكي يبدو رجلاً. فهل يمكن أن نلوم رجلاً على انحرافات وأخطاء ارتكبها في العشرين من عمره؟ ولكنّ السّكْر لم يكن يجعله لطيفاً على الإطلاق: كان عند ذلك يبرز طبعه العدواني، فيكثر من الكلام، وبصوت أقوى مما ينبغي. وبلهجة جازمة يسرد أحاديث لا رابط بينها، ويثور بسرعة عندما توجّه له أدنى ملاحظة. وقد ملّ أصدقاؤه من هذا الوضع المزعج، وتراوحت آراؤهم بين الاستياء الشديد والتّسامح. وفي الوقت الحاضر لم يكن يبدو جميلاً لمن ينظر إليه: إذ إنّ رجلاً في سنّه، كبير الكرش، أصلع الرأس، مبتلي بنظارة، يصبح منظره مقرفاً عندما يفرط في الشراب. و(شارلي) الذي كان يعتني كثيراً بهندامه، بدا لي وقد أهمله، وانتشر وتبعثر رماد السجائر على ملابسه.

ونادى الخادم وطلب منه أن يحضر له كأساً من الويسكي. وهذا

الخادم يعمل في النادي منذ ثلاثين سنة. وقال له: (ولكن يا سيدي لديك كأس ويسكي أمامك).

فردّ عليه (شارلي) غاضباً:

(احتفظ بملاحظاتك لنفسك، فأنا أعفيك منها، وأحضر لي في الحال كأساً مزدوجاً من الويسكي، وإلاّ سأشكو وقاحتك لأمين سر النادي)

- (حسن جداً، يا سيدي..)

وأفرغ (شارلي) كأسه بجرعة واحدة، ولكن يده كانت ترتجف وانسكب قليل من السائل على ثيابه.

فقال (بيل مارش) عند ذلك: (الآن، علينا أن ننصرف، يا عزيزي (شارلي)..)

ثم التفت نحوي: (إن شارلي يقيم عندنا، منذ فترة وجيزة).

فازدادت دهشتي: لقد حدث شيء ما، بالتأكيد. ولكني لم أجرؤ على إلقاء الأسئلة.

وقال له (شارلي):

(سألحق بك، دعني فقط أتناول كأسا آخر، قبل أن أنصرف، فذلك سيساعدني على النوم بشكل أفضل).

ولاحظت أن الجلسة يمكن أن تطول، فنهضت، معلنا نيتي الذهاب سيرا على الأقدام. وعندما هممت بالانصراف، قال لي (بيل):

- قل لي يا عزيزي، ألا تريد أن تأتي لتناول العشاء معنا، مساء الغد؟ لن يكون هناك سوى (جانيت)، (شارلي) وأنا.

- بكل سرور يا صديقي.

وقلت في سري: (هنالك أمر جديد، هذا واضح، ولاشك في ذلك)

كان منزل (آل مارش) يطل على الجانب الشرقي من حديقة

(ريجنت)، أتت الوصيفة وفتحت لي الباب وأدخلتني إلى مكتب (بيل) الذي كان ينتظرني، وقال لي على الفور، وهو يصافحني:

(أردت أن أقول لك كلمة قبل أن تصعد. أتعلم أنّ (مرغري) قد هجرت (شارلي)؟

- ما هذا الذي تقوله لي؟ وماذا تعني بذلك؟

- لقد اعتبر ذلك بمثابة مأساة، ولم تشأ (جانيت) أن تتركه بمفرده في تلك الشقّة الصغيرة والكئيبة، وطلبنا منه أي يأتي لتمضية بعض الوقت هنا. وعملنا كل ما بوسعنا عمله. وهو يشرب كثيراً دون أن يرتوي. ومنذ خمسة عشر يوماً لم تغمض له عين.

- ولكنّي أتصور أنها لم تهجره نهائياً؟!

كنت منذهلاً.

- بلى، لقد تولّهت بشاب يدعى (مورتون).

- ومن هو (مورتون) هذا؟

كنت قد نسيت تماماً صديقي (مورتون) الذي تعرّفت عليه في (بورينو).

- اللّه! ما بك؟ ألستَ أنت الذي قدّمته لنا، وعرّفتها عليه. فيالها من مصيبة كنت أنت سببها! هيا بنا، ولنصعد، لقد أردت تحذيرك مسبقاً.

لم أصدّق أذنيّ، وقد عاودني الذّهول، ثم قلت له: (ولكن، أصغِ إليّ...)

- تحدّث مع (جانيت) واسألها، فهي تعرف كل تفاصيل القصة. أمّا أنا، فهذا فوق طاقتي، لقد أرهقت (مرغري) أعصابي، ولابدّ أن (شارلي) من جهته، متألّم جداً ويكاد يفقد صوابه.

وسبقني إلى الصالون. ونهضت (جانيت) وتقدمت نحوي. كان (شارلي) جالساً قرب النافذة يطالع إحدى صحف المساء، فوضعها جانباً وصافحني، وقد بدا متّزناً، رابط الجأش، وأخذ يتحدّث كالعادة،

بلهجته القوية، ولكنّ الألم كان بادياً عليه. وبعد أن تناولنا كأساً من الشراب، نزلنا إلى قاعة الطعام.

كم كانت تبدو جميلة وظريفة للناظر إليها، (جانيت) هذه المرأة الشقراء الممشوقة القامة! إنها تبعث البهجة في القلوب، كالنديم المفرح والمسلّي، وبفضل حضورها لا ينضب أو يتوقف الحديث. وبعد أن انتهينا من تناول طعام العشاء، قدّمت لنا زجاجة من مشروب (البورتو) وقالت:

(أمنحكم عشر دقائق).

و(بيل) وهو الصّموت عادة، أخذ يحاول جاهداً أن يتحدّث. وأنا وإن كنت مرتبكاً لكوني أجهل تفاصيل القضية، فقد شاركت في الحديث، وكان واضحاً أنّ (آل مارش) يحاولون تسلية (شارلي) وعملت كل ما في وسعي لمساعدتهم في ذلك. وبالإضافة إلى كل هذا، فإنّ (شارلي) نفسه ظلّ محافظاً على دوره: فهو على استعداد دائم لاحتكار الحديث، وقد أخذ يناقش من وجهة نظر علم الأمراض، جريمة قتل كانت آنذاك تشغل الرأي العام. ولكنّ كلامه كان يبدو متكلّفاً لا معنى له. ورغم أنه بذل جهداً كبيراً في ذلك، فإن جمجمته الخالية من الأفكار كانت تبدو كقشرة فارغة، وقد شعرنا بالارتياح عندما سمعنا قرعاً على الأرض الخشبية، تشير به (جانيت) إلى تذمّرها ونفاذ صبرها، وفي مثل هذه الحالة، فإنّ وجود امرأة يسهّل الأمور كثيراً. فصعدنا، وأخذنا نلعب (البريدج) في جلسة عائلية.

وعندما أردت الانصراف، اقترح عليّ (شارلي) أن يرافقني إلى (ماريلوبون روود).

فاعترضت (جانيت) على ذلك، قائلة:

- أوه! يا (شارلي) إنّ الوقت قد تأخّر كثيراً، عليك أن تأوي إلى سريرك وتنام.

- إن نزهة قصيرة ستجعلني أنام بسرعة وبشكل أفضل.

فكفّت عن محاولة إقناعه، وعلى أيّة حال، لا يمكن أن يُمنع أستاذ وقور، متخصّص في علم الأمراض، من الخروج إذا كانت لديه رغبة بأن يفعل ذلك، والتفتت بظُرف وبشاشة نحو زوجها، وقالت:

- أعتقد أنّ نزهة كهذه لن تؤذي أيضاً (بيل).

كانت ملاحظتها غير مناسبة، والنساء يبدين المزيد من الحماسة في معظم الأحيان، فوجّه لها (شارلي) نظرة غاضبة، وصرّح بلهجة حاسمة:

- (لا أرى أيّة ضرورة لإجبار (بيل) على الخروج الآن)!

فردّ (بيل) مبتسماً:

- (وأنا ليس لدي الرغبة بأن أخرج، اني متعب وذاهب لأندسّ في أغطية سريري).

وقبل أن يذهب (بيل) ليفعل ذلك لابدّ أنّه قد وجّه اللوم لزوجته على ملاحظتها الخرقاء.

وقال (شارلي) ونحن نسير متّجهين إلى الشارع:

- (لقد كانا رائعين بالنسبة لي، وبدونهما، لا أدري ماذا كان يمكن أن يحدث لي، فمنذ خمسة عشر يوماً لم أستطع النوم).

فعبّرت له عن أسفي، ولكن دون أن أطلب منه شرحاً أو تفسيراً لذلك. ومضت برهة ونحن نسير صامتين. ولاشك في أنه لم يرافقني إلاّ لكي يبثني أشجانه، ويحدّثني عن مصيبته. ولكم وددت أن أعبّر له عن تعاطفي ومودّتي، ولكني لم أشأ إحراجه وإرغامه على أن يبوح لي بأسراره، فكيف يمكن أن أساعده وأستدرجه ليفعل ذلك؟ علماً بأنه لم يكن من أولئك الذين لا يتطرّقون مباشرة إلى الوقائع. واعتقدت أنه كان يبحث عن كلماته، عندما وصلنا إلى زاوية الشارع. ولكنه قال لي:

- (ستجد سيارة أجرة أمام الكنيسة، أمّا أنا فسأتابع السير

قليلاً، طابت ليلتك!)

وابتعد (شارلي) مجرجراً قدميه، وأنا مازلت مندهشاً ممّا حصل، ولم يبقَ عليّ سوى أن أستقل سيارة أجرة وأذهب لكي أنام. وفي صباح اليوم التالي أخرجني جرس الهاتف من الحمّام، فأمسكت بالسماعة بعد أن غطّيت جسمي بمنشفة، إنها (جانيت):

- (إيه، حسن! ما رأيك بكل هذا؟ لقد استبقيت (شارلي) حتّى ساعة متأخّرة من الليل، فقد عاد في الثالثة صباحاً)

- لقد افترقنا في (ماريلبون روود) ولم يقل لي شيئاً على الإطلاق.

- هذا غير ممكن؟!

ومن لهجة (جانيت) تبيّن لي أنها تنوي إطالة الحديث في تلك المكالمة، ويبدو أن جهاز الهاتف قريب من سريرها، فقلت لها بسرعة:

- اسمعي، إني استحم!

فصاحت بلهجة تنمّ عن الغيرة والحسد:

- أوه! ألديك جهاز هاتف في الحمّام؟

فأجبتها بشيء من الحدّة والجفاء:

- كلاّ، ليس لدي جهاز هاتف في الحمّام، وقد غرقت السّجادة كلها.

فقالت، بصوت ينمّ عن الخيبة والاستياء:

- أوه! إذن متى أستطيع أن أراك؟ أتريد أن تأتي إلى منزلنا عند الظهر؟

لم يكن ذلك يناسبني أبداً، ولكنّي فضّلت عدم المناقشة، وإنهاء المكالمة، فقلت:

- نعم اتّفقنا، إلى اللقاء..

وعلّقت السّماعة قائلاً في سرّي:

(آمل من النخبة المختارة في السماء إذا كانت تستخدم الهاتف أن تتحدث عن أمورها، دون إضافة أي كلمة لا فائدة لها.)

كنت أحبّ (جانيت) كثيراً، وأعرفها جيداً: فلا شيء يثير اهتمامها كالمصائب التي تحلّ بأصدقائها. وعندما تكون مطّلعة على الصعوبات والمتاعب التي تواجههم. تسرع بتقديم خدماتها.

وصديقة الأيام السوداء والسيئة، هذه، تعيش مع هموم ومشاكل الآخرين، فإذا تورّط أحدهم في مغامرة غرامية، تصبح هي في الحال المؤتمنة على أسراره. ولا يحدث أيّ طلاق إلاّ وتهتم به. وهذا لم يمنعها من أن تكون لطيفة وفاتنة. وعند الظهر شعرت برغبة في الضحك، بسبب هيجانها الذي لم تستطع السيطرة عليه: فمصيبة أسرة (بيشوب) قد أحزنتها بالتأكيد، ولكن أيّة متعة بالنسبة لها عندما يُتاح لها أن تتحدث عنها لأيّ كان! حتّى يُخيل للمرء أنها عند ذلك كالأم التي تتحدث عن أول ولادة لابنتها مع طبيب العائلة. كانت (جانيت) تُدرك خطورة الوضع، ولا يخطر على بالها المزاح أبداً، ولكنها تبدو عازمة على الحصول منها على الفائدة الممكنة.

وبدأت حديثها بالسهولة التي يشعر بها الشخص الذي سبق له أن ردّد القصة نفسها عشرات المرّات، بالعبارات والكلمات ذاتها:

(لا يمكنك أن تتصور الذعر الذي شعرتُ به، عندما أخبرتني (مرغري) أنها قرّرت أن تهجر (شارلي) فأنا لم أعرف في حياتي زوجين أكثر ارتباطاً أحدهما بالآخر، لقد كان ارتباطهما مثالياً، لم تعكّره أيّة سحابة. فأنا و(بيل) نحبُّ بعضنا كثيراً ولكننا، من وقت لآخر، نتشاجر، ويشدّ أحدنا شعر الآخر. وأشعر في بعض الأيام، أني أستطيع أن أخنقه.

فقلت لها:

- لندع خلافاتكما جانباً، وحدّثيني عن الزوجين (بيشوب) فأنا

من أجل هذا أتيت.

- كنت أنتظرك بفارغ الصبر، فعلى أيّة حال، أنت الوحيد الذي يستطيع شرح وتفسير هذه القصة.

- أرجوكِ، لا داعي للسخافات. فقبل أن يخبرني (بيل) مساء البارحة بهذه القضية، لم يكن لديّ أيّة فكرة عنها.

- وهذا ما ظننته، كنت أشكّ بأنك لا تعرف شيئاً، مع خشيتي من أن تكون قد ارتكبت خطأً ما، في هذه القضية.

- ألا تروين لي القصة من بدايتها.؟

- إيه حسن، البداية هي: (أنت) والشرّ كله حصل منك وأنت سببه. أنت الذي أتيت بالدون جوان، ولذلك كنت أرغب كثيراً بأن أراك.

- وهل تعرفينه؟

- أنا؟ إنّي لم أره في حياتي، ولا أعرف عنه سوى ما حدّثتني به (مرغري).

- في أيّة ساعة تتناولان طعام الغداء؟

- في الواحدة والنصف.

- وأنا أيضاً أتناوله في هذا الموعد. تابعي حديثك إذن.

ولكن يبدو أن ملاحظتي قد أوحت بفكرة لجانيت إذ إنها قالت:

- وماذا لو استغنينا عن تناول الغداء في المطعم؟

يمكننا أن نجد شيئاً ما، نأكله هنا، فلدينا قليل من اللحم البارد، وبذلك لن نضطر إلى الركض والتدافع. ويكفي أن أكون عند المزيّن في الساعة الثالثة.

- كلا، كلا، كلا، إن هذا لا يناسبني ولا يعنيني أبداً، سأنصرف في الساعة الواحدة والثلث، على أبعد تقدير.

- فلنسرع إذن! ما رأيك بـ(جيري)؟

- ومن هو (جيري) هذا؟

- (جيري مورتون) واسمه الحقيقي (جيرالد).

- وكيف تريدين منّي أن أعرف ذلك؟

- لقد أقمت عنده، ألم يكن إذن يلقي رسائله كيفما اتّفق؟

فأجبتها بشيء من الحدّة:

- هذا ممكن، ولكني لم أقرأها.

- أوه! يالك من غبي، أنا أتكلم عن المغلفات.

وكيف يبدو لك (مورتون)؟

- إنه جيد، على مذهب (Kipling)[1] ومن الشباب الذين تحدث عنهم هذا الأديب. مشبع بالحماس للعمل. ويشكّل دعامة حقيقية من دعائم الإمبراطورية.

فقالت (جانيت) متذمّرة:

- ليس هذا ما أسألك عنه، كيف شكله؟

- له شكل مّا بالطبع، وأنا أعرفه إذا رأيته، ولكنّي الآن لم أعد أتذكّر ملامحه. كان يبدو عليه أنّه يعتني بنفسه وبهندامه.

- أخيراً هل أنت روائي أم لا؟ ما هو لون عينيه؟

- لا أعرف عن هذا شيئاً.

-ينبغي أن تعرف ذلك: لا يمكن أن يمضي أحدنا أسبوعاً مع أحد ما دون أن يلاحظ فيما إذا كانت عيناه زرقاوين أو سوداوين، وهل هو أشقر أم أسمر؟

- بين وبين.

- طويل أم قصير؟

---

[1] (كيبلانغ) (Kipling): (١٨٦٥- ١٩٣٦) كاتب وشاعر إنكليزي جمع في قصصه وأشعاره بين وصف أحوال الطفولة والشباب وبين التغنّي بأمجاد الإمبراطورية البريطانية، وحصل على جائزة (نوبل) سنة ١٩٠٧. (المترجم).

- يبدو لي أنه متوسط القامة.

- هل تنوي إغاظتي؟

- كلا، ليس لديه شيء غير عادي، وهو لا يلفت النظر. فلا هو جميل ولا بشع، ولكنّ شكله مناسب ومقبول تماماً.

- (مرغري) قالت إنّ ابتسامته ساحرة، وإنّ إغراء شكله وهيئته، لا يُقاوم.

- هذا ممكن تماماً.

- لقد تولّه بها.

- وكيف عرفتِ ذلك؟

- رأيت رسائله.

- وهل أطلعتك، هي، عليها؟

- بالتأكيد.

يجد الرجال صعوبة بالاعتياد على عدم تكتّم النساء في قضاياهنّ العاطفيّة وفي تقبّل ذلك. فهنّ لا يتحفّظن أبداً ويناقشن فيما بينهن أشدّ المواضيع سرّية وحميميّة. فالحياء والرصانة من صفات وميزات الذّكور. ولكنّ هؤلاء مهما عرفوا عن تلك المواضيع، فإن كل دليل جديد على تلك الوقاحة والاستهتار، يسبب لهم صدمة قويّة. فماذا كان يمكن أن يقول (مورتون) لو أنّه علم أنّ (جانيت مارش) لا تقرأ رسائله وحسب، بل إنها كانت تطلع كل يوم على تطوّر وتقدّم حبه الشديد لمرغري؟ فإذا صدّقنا (جانيت) فإنه منذ لقائه الأول مع (مرغري) كان حبه لها كالصاعقة، ومنذ النظرة الأولى. وفي صبيحة اليوم الذي تلا العشاء البسيط الذي أقمته لهم في مطعم (سيروس)، تلفن لها ليدعوها لتناول وجبة خفيفة في أحد الملاهي، التي تعزف فيها موسيقى الرقص. ولابدّ أن رواية (جانيت) هي الصدى لما روته لها (مرغري) التي كانت تحظى بمودّتها وعطفها، بطبيعة الحال، ومع ذلك،

فإنها بعد رحيل صديقتها، كانت هي الأولى التي خطرت لها فكرة دعوة (شارلي) لتمضية أسبوعين أو ثلاثة في منزلهم، لتتقذه من عزلة لا تطاق في تلك الشقة التي أصبحت مقفرة. ومنحته مودة شديدة. وكانت تتناول معه طعام الغداء كل يوم تقريبا، لأن من عادته تناول هذه الوجبة مع (مرغري). وكانت تصطحبه للقيام بنزهة في حديقة (ريجنت) وتوفد (بيل) ليلعب (الجولف) معه يوم الأحد، وكثيرا ما كانت تصغي إليه، بأناة وصبر دائمين، وهو يردد قصة مصيبته، محاولة تعزيته وتسليته، لأنها كانت ترثي لحاله من كل قلبها. وكل هذه العناية لم تكن تمنعها من أن تظل منحازة إلى جانب (مرغري)، وعندما كنت أجازف باستتكار مسلكها، كانت تنفجر غاضبة. لقد أثارتها هذه المغامرة وخلبت لبها، فقد عاشتها منذ اليوم الذي أتت فيه (مرغري) مبتسمة ومزهوة، مترددة بعض الشيء، لتحدثها عن عاشقها الشاب، وحتى المشهد الأخير، الذي بدت فيه (مرغري) وقد استبد بها الجنون، وصرحت بأنها لم تعد تستطيع التصنع والتمثيل، ثم غادرت منزل الزوجية.

وتابعت (جانيت) حديثها:

لم أصدق أذني للوهلة الأولى، فأنت تعرف كيف كان يعيش هذان الزوجان! ملتصقين، أحدهما بالآخر، بشكل مضحك، كثيرا ما كان يثير سخرية وتهكم الآخرين. ومن جهتي لم أكن أجد (شارلي) ظريفا، أما جسمه!؟ ولكن معاملته لـ(مرغري) وشدة اهتمامه وعنايته بها، كل ذلك كان يدعو إلى التأثر. وكنت أحسدهما، أحيانا لا مال معهما، وقد اعتادا العيش كالبوهيميين، ومع ذلك فإنك تراهما مسرورين، سعيدين على الدوام. لهذا، كنت أظن أن تلك المغازلة مع (جيري) لن تؤدي إلى شيء. و(مرغري) هي الأولى التي أضحكها ذلك، وقالت لي:

إني لا آخذ هذا على محمل الجد، كما تظنين، ولكن وأنا في هذه السن، إنه لأمر ظريف ومسل أن ألفت نظر أحد الشباب وأحظى باهتمامه. فقد انقضت عدة سنوات دون أن يرسل لي أحد زهورا. وقد قلت له أن يكف عن ذلك، بسبب مزاح (شارلي) وسخريته. وهذا الشاب المسكين لا يعرف أحدا، حتى ولا هرا في لندن، وهو يعشق الرقص، وقال عني إني أرقص كإحدى الجنيات. وليس مسليا أن يذهب دائما بمفرده إلى المسرح، ولذلك فقد رافقته مرتين أو ثلاث مرات إلى بعض الحفلات النهارية، كان يجب أن تري فرحته، عندما أوافق على الخروج معه.

فقلت لها: (وأنا أتعرف أنه لطيف ومؤثر).

فأجابت: (نعم إنه كذلك، وكنت أعرف أنك ستدركين الوضع جيدا وتتفهمينه، وأتصور أنك لا تلومينني؟!)

- كلا، بالتأكيد، يا عزيزتي، فأنت تعرفينني جيدا، فلو كنت مكانك لفعلت مثلما تفعلين.

لم تكن (مرغري) تخفي مشاويرها مع (مورتون) وكان زوجها يشاكسها بشأن اكتسابها لصداقته، ولكنه كان يرى أن الشاب مهذب ولطيف، ولذلك ظل يبدو مسرورا لمعرفته أن (مرغري) تلهو وتتسلى في الوقت الذي يكون هو في عمله منكبا على مجهره. دون أن تساوره فكرة الغيرة. وقد تناول الثلاثة طعام الغداء وذهبوا سوية إلى المسرح عدة مرات. ولكن (جيري) أراد بعد فترة وجيزة، أن يمضي أمسية بمفرده مع (مرغري) فرفضت في بادئ الأمر، ولكنه ألح في طلبه، عند ذلك طلبت من (جانيت) أن تتصل بـ(شارلي) وتدعوه لتناول طعام العشاء، وليشترك في لعبة (البريدج). كان (شارلي) لا يخرج أبدا دون أن ترافقه زوجته، ولكن (آل مارش) كانوا أصدقاء قدامى و(جانيت) طلبت منه الحضور بمفرده، كخدمة يؤديها لهم، وليكون الرابع في لعبة الورق

أي أنها اخترعت هذه القصة لكي تقنعه بالحضور وحده.

وفي اليوم التالي أتت (مرغري) لتراها. فالأمسية كانت رائعة: عشاء ورقص في ملهى (ميدنهيد) ودعوة بالسيارة عبر ليلة صيفية جميلة.

هذا ما روته (مرغري) لصديقتها، وأضافت: (إنه مجنون، متدله بي).

- وهل قبلك؟

- وكيف!

وكتمت (مرغري) ضحكتها، قائلة:

(كم أنت لطيفة ومسلية يا (جانيت)! إنه ظريف، ذو طبيعة طيبة وسمحة. ولكني لا أصدق نصف ما يرويه لي.

- انتبهي، لكي لا تقعي في حبه وغرامه!

- لقد حصل ذلك وانتهى الأمر.

- إيه، يا لها من قصة!

- إوه! إن هذا لن يدوم طويلا، فهو سيعود إلى (بورينو) في الخريف.

- أخيرا، لقد استعدت شبابك، ونقصت سنك عشر سنوات، وهذا ما يحدث دائما في مثل هذه الحالة.

- أعرف ذلك. وأشعر بالحقيقة أني فقدت عشر سنوات من ماضي حياتي.

وانتهى بهما الأمر إلى الالتقاء كل يوم: يتنزهان سوية في الصباح، أو يلجآن إلى أحد معارض الرسم. ثم تعود (مرغري) لتتناول طعام الغداء مع (شارلي). وبعد ذلك يلتقيان فيستقلان سيارة أجرة وينطلقان إلى الريف أو إلى ضفاف نهر (التاميز). وأخذت (مرغري) آنذاك تخفي هروبها ومشاويرها ولا تحدث زوجها عنها: كانت تظن بحق، أنه لن يتفهم ذلك ولن يتقبله.

سألت (جانيت):

- كيف حصل أنك لم تلتقي بـ (مورتون) أبدا؟

- إنها لم تكن ترغب في ذلك، فأنا وهي في نفس السن تقريبا، ويمكن قبول اعتذارها في هذا الشأن.

- فعلا.

- كنت أفعل كل ما في وسعي من أجلهما، فعندما كانت تخرج مع (جيري)، كانت دائما تقول إنها كانت معي.

أنا أحب الصراحة وتوضيح الأمور على الدوام:

- أكانا ينامان سوية، أعني: هل كان يضاجعها؟

- أبدا وعلى الإطلاق، ليست (مرغري) من هذا النوع ولا هذا من طبيعتها.

- وما أدراك؟

- لو حصل ذلك لكانت حدثتني عنه.

- ربما كنت على صواب.

- لابد أنك تظن أني سألتها عن ذلك، ولكنها كانت صريحة وجوابها حاسما، وهي لا تكذب، وأراهن بشأن هذا على وضع يدي في النار. فشيء من هذا لم يحدث بينهما أبدا.

- إن هذا ليس عاديا، على أية حال.

- (مرغري) امرأة جدية.

فهززت كتفي.

- وهي تتحلى بالاستقامة والإخلاص، بشكل تام ورائع. ولا يمكن أن تخدع (شارلي) وتخونه من أجل أي شيء في العالم. حتى أن فكرة إخفاء أمر عنه كانت لا تطيقها. وعندما أدركت أنها وقعت في حب (جيري) أرادت أن تخبر (شارلي) بذلك، فتوسلت إليها بألا تفعل هذا. فما الفائدة منه، إن لم يكن سيسبب التعاسة والحزن لشارلي؟

وبما أن إجازة (مورتون) ستنتهي بعد شهرين، فلا جدوى من التورط في تعقيدات مزعجة من أجل نزوة عابرة وحب لا مستقبل له.

ولكن رحيل (مورتون) القريب، دفع الأمور وسرع الأحداث: كان (آل بيشوب) ينوون، كعادتهم في كل صيف، عبور (المانش) والقيام بعد ذلك بجولة عبر بلجيكا، هولندة، وشمال ألمانيا، وكانت المصورات وكراسات المعلومات قد أخذت تتكدس على مكتب (شارلي). وكان يستشير أصدقاءه ويسألهم عن المطاعم والطرقات، متحمسا لا يستقر في مكان، كأنه طالب ينتظر نتيجة امتحانه، أما (مرغري) فكانت تصغي له وهي منقبضة القلب، عندما يتحدث عن مشروع تلك الرحلة: أيمكنها أن تتغيب مدة أربع أسابيع، بينما يرحل (جيري) في أيلول (سبتمبر)! كانت فكرة ضياع هذه الفترة الطويلة من وقت محدود تماما، تزعجها وتثير أعصابها. وقد تحولت هذه الرحلة إلى كابوس بالنسبة لها. ومع اقتراب موعدها، كانت تزداد عصبية ونرفزة. وأخيرا حزمت أمرها، واتخذت قرارها:

فقد قاطعته فجأة ذات يوم، وهو يحدثها عن مطعم، ذكره له أحد أصدقائه:

(اسمع، يا شارلي، ليس لدي أية رغبة بالقيام بهذه الرحلة، حاول أن تجد من يرافقك فيها).

فتأملها منذهلا. كانت مضطربة جدا، عندما تكلمت وقد أخذت شفتاها ترتعشان، فسألها:

- لماذا، ماذا هنالك؟

- ليس هنالك شيء. لا أجد تسلية أو متعة في ذلك، وهذا كل شيء. أريد أن أبقى لوحدي لبعض الوقت.

- هل أنت مريضة؟

ولمحت في عينيه ذعرا مفاجئا. فأقلقها هذا الذعر، وقالت:

- كلا، فلم يسبق لي أن كانت صحتي أفضل مما هي عليه الآن. وكل ما هنالك أني عاشقة وقد وقعت في الحب.

- أنت؟ وفي حب من وقعت؟

- في حب (جيري).

فظل فاغر الفم، عاجزا عن الكلام، لشدة دهشته.

- لا جدوى من لومي وتوبيخي. فلا حول لي ولا قوة حيال هذا الأمر. ولا أستطيع أن أفعل شيئا، إنه سيرحل بعد بضعة أسابيع، ولن أختار هذا الوقت لكي أسافر في هذه الرحلة.

فانفجر ضاحكا، ثم قال لها:

- (مرغري)! هذا أمر سخيف ومضحك جدا، فأنت في مثل عمر أمه.

فاحمر وجهها كثيرا:

- إنه يحبني بقدر ما أحبه.

- وهل قال لك ذلك؟

- أكثر من ألف مرة.

- يا له من مهرج، ومحتال صغير!.

وأخذ يضحك ساخرا، بينما كان بطنه الكبير يعلو ويهبط، فرحا بفكرة تلك الأكذوبة الضخمة.

ولم يبد شيئا من الدبلوماسية، لأنه كان عليه، حسب رأي (جانيت) أن يظهر العطف والمواساة، وأن يتفهم الوضع.

وأدركت أنا ماذا كانت تتصور: (شارلي) وقد لجم لسانه وأصبح كالأخرس، عاجزا عن النطق، شفته العليا ترتجف متقلصة، وقد كتم حزنه، وانسحب من أمام (جيري). فالنساء يؤيدون دائما تضحية الآخرين، وكان من الممكن أيضا أن تعجب (جانيت) بغضب عنيف ينتاب (شارلي) فيحطم غرضين أو ثلاثة -فيصبح مضطرا لشراء أغراض

بديلة لها- ويوجه لكمة قوية إلى فك (مرغري) ولكن (شارلي) هذا، كان يرفض أن يأخذ شيئا على محمل الجد.

ولم أنبه (جانيت) إلى أنه من الصعوبة بمكان بالنسبة لأستاذ في علم الأمراض، بلغ الخمسين من العمر، قصير القامة وبدين، أن يتصرف فجأة كرجل بدائي ممن كانوا يسكنون المغاور والكهوف. وعلى أية حال، فإن الرحلة إلى هولندة وبلجيكا قد ألغيت، وأمضى (شارلي) و(مرغري) شهر أيلول (سبتمبر) في لندن. وكانا كما في السابق، يتناولان الغداء والعشاء سوية. ولكن باقي الوقت، كانت (مرغري) لا تفارق (جيري). وكانت هذه اللحظات تعزيها وتنسيها ما كان عليها أن تعانيه في البيت. بينما استمر (شارلي) في ممارسة سخريته وتهكمه عليهما. وظل ينظر إلى القضية معتبرا إياها نوعا من المزاح السمج. وإن كان ناقما على (مرغري) فإنه لم يتصور أنها قد خانته.

وتحدثت مع (جانيت)، فقالت:

- إن هذه الفكرة لم تخطر على باله أبدا، فهو يعرف (مرغري) جيدا.

ومرت أسابيع. ورحل (جيري) أخيرا، فقد أبحر من (تيلبوري) ورافقته (مرغري) إلى هناك. وبعد عودتها ظلت تبكي زهاء ثمانية وأربعين ساعة. بينما كان (شارلي) يراقبها بسخط متزايد. وأخيرا قال لها:

- اسمعي، يا (مرغري) لقد صبرت كثيرا، ولكن هذا يكفي، وقد نفذ صبري فالمهزلة قد طال أمدها.

فصاحت بغضب:

- أنت، دعني وشأني، لقد فقدت للتو كل ما يساوي حياتي ويعطيها القيمة والمعنى.

- لا تكوني سخيفة.

ولا أدري ماذا أضاف، ربما يكون قد أعلن برعونة رأيه بـ(جيري) ونعته بأسوأ الصفات، وبعبارات جارحة، على ما أعتقد. وكانت هذه أول مشاحنة تحصل بينهما. وكان الأمل بأنها ستلتقي بـ(جيري) بعد ساعة أو في اليوم التالي، يجعلها لا تبالي بسخرية (شارلي) وتهكمه، ولكنها الآن، وقد فقدته نهائيا فإنها لم تعد تقوى على تحملها، وبعد أن صبرت وتمالكت نفسها طيلة بعض الأسابيع، فقد نفذ صبرها وفقدت وعيها ورباطة جأشها، أخيرا لدرجة أنها ربما لم تعرف وتدرك تماما ماذا قالت آنذاك، لأن (شارلي) الغضوب، وجه لها عند ذلك صفعة قوية، وهذا ما سبب القلق والاضطراب للاثنين معا. فتناول (شارلي) قبعته وهرب. وطيلة هذه الفترة المحزنة، كانا يتقاسمان السرير نفسه، ولكنه، في ذلك اليوم، عندما عاد في منتصف الليل، وجد زوجته نائمة على الديوان في الصالون. فقال لها:

- لا ينبغي أن تنامي هنا، لا تحدثي قصصا ومشاكل، تعالي نامي في السرير.

- كلا، لا أريد ذلك، دعني وشأني.

وظلا يتشاجران حتى الصباح، وصمدت (مرغري) واستمرت في تهيئة الديوان كل ليلة لكي تنام عليه، وكان من المستحيل في تلك الشقة الضيقة أن ينعزل أحدهما عن الآخر، أو أن يتحاشى رؤيته. أو أن يمتنع عن أن يكلمه. وكان التفاهم تاما بينهما طيلة سنوات عديدة، بحيث أن قوة العادة تقرب أحدهما من الآخر. وكان (شارلي) يحاول إعادة زوجته إلى جادة الصواب، ويريد أن يوضح ويثبت لها خطأها، ويمضي نصف الوقت ليلا. وهو ينصحها ويعظها، كما لو أن الوعظ والنصائح يمكنها التغلب على الحب! وأحيانا كان يستاء ويحرد ليومين أو لثلاثة أيام. وأخيرا وجدها، ذات مساء مسترسلة في البكاء، وتأثر عند رؤيته دموعها المنهمرة، فحدثها عن حبه وعن تعلقه بها، وعن

السنين السعيدة التي أمضياها معا، ولم يكن له أي مطلب سوى أن تسامحه وتغفر له: فهو لن يلفظ بعد الآن على الإطلاق اسم (مورتون) ولماذا لا ينسيا هذا الكابوس؟ ولكن أية فكرة تتعلق بالمصالحة كانت تغضب (مرغري) وتثيرها. وادعت أنها مصابة بالصداع وطلبت من زوجها أن يعطيها مسكنا، كي تستطيع النوم، وفي صباح اليوم التالي، تظاهرت أنها مستغرقة في النوم، وما أن خرج (شارلي) حتى جمعت حوائجها وذهبت. وحصلت على بعض المال، عندما باعت بعض الحلي البسيطة التي كانت بحوزتها، ثم استأجرت غرفة في (نزل) عائلي صغير.

لقد أرهقه هرب زوجته، وانهار كالخرقة البالية، وقد قال لجانيت إن هذه الوحدة تفقده صوابه وتكاد تسبب له الجنون وكتب الرسالة تلو الرسالة لمرغري، متوسلا لها أن تعود، مبديا استعداده للقيام بجميع التنازلات. وطلب من (جانيت) أن تتوسط بينهما وتشفع له عندها، ولكن كل هذا كان دون جدوى ولم يسفر عن أية نتيجة.

فسألت (جانيت):

- أتعتقدين أنها سترضى؟

- إنها تقول: كلا!

كان علي أن أنصرف لأن الساعة قاربت على الواحدة والنصف وكان هنالك من ينتظرني في الطرف الآخر من لندن.

وبعد ذلك بيومين أو ثلاثة، اتصلت بي (مرغري) هاتفيا: إنها تريد أن تراني واقترحت أن تأتي لمقابلتي. فدعوتها لتناول وجبة خفيفة. وما فعلته لا يعنيني، لذلك حاولت أن أكون لطيفا معها، ولكني

وجدتها في وضع غريب يثير السخرية، ولابد أنها كانت تشعر بذلك. لم تكن جميلة جدا فيما مضى من حياتها. وقد مرت السنوات دون أن تجعلها تشيخ، فقد احتفظت عيناها ببريقهما وحافظ وجهها على كل نضارته. كانت ترتدي فستانا بسيطا جدا. ولم أتبين فيما إذا كانت وضعت على وجهها بعض الخضاب أو الماكياج. كما أنها لم تفقد شيئا من فتنتها الطبيعية التي تتسم بالرقة والعذوبة وبدأت حديثها مباشرة بذكر الغاية من زيارتها:

- أتيت لأطلب منك أن تؤدي لي خدمة.

- وما هي؟

- سيغادر (شارلي) اليوم منزل (آل مارش) ويعود إلى شقتنا. وستبدو له الأيام الأولى قاسية دون شك. وكم تكون لطيفا لو دعوته لتناول طعام العشاء معك، واعتنيت به قليلا.

- سأرى إذا كان وقتي يسمح بذلك.

- يبدو أنه أخذ يفرط في الشراب، وهذا أمر مؤسف! أرجو أن تتحدث معه في هذا الموضوع.

فقلت بشيء من المرارة:

- لقد علمت أنه حزين بسبب ما حدث في الفترة الأخيرة، كما تعلمين.

فاحمر وجه (مرغري) وبدرت منها نظرة حزينة، وارتعشت كما لو أني ضربتها.

- أنت، بالطبع، تعرفه قبلي بزمن طويل، ومن الطبيعي أن تنحاز إلى جانبه.

- يا عزيزتي، أقول لك بصراحة، إذا كنت قد اجتمعت به كثيرا في هذه السنوات الأخيرة، فإن ذلك قد حصل خاصة بسببك وأنا لم أكن أكن له مودة كبيرة، ولكني كنت أجدك لطيفة وفاتنة.

فبدت على شفتيها ابتسامة عذبة جدا. فهي تعرف أني كنت

صادقا فيما قلت:

- وهل كنت، برأيك زوجة صالحة بالنسبة له؟

- بل لقد كنت أفضل الزوجات.

- كان كثير المشاكل والهموم، يحمل العالم على ظهره، وأنا كنت أداريه وأتحمل منه كل شيء.

- وكان حبه لك شديدا وعميقا.

- أعرف ذلك: وقد أمضينا أياما رائعة، ست عشرة سنة قضيناها سوية تمتعنا خلالها بالسعادة القصوى.

ثم خفضت نظرها، أطرقت في الأرض، وأضافت:

- وأخيرا كان علي أن أغادر المنزل، وأهجره، بعد أن أصبح الوضع مستحيلا: فالعيش في شجار دائم، كما يفعل الكلب والهر، أمر فوق طاقتي ولا أقوى على تحمله.

- إني لا يمكن أن أفهم أن شخصين يستمران في العيش تحت سقف واحد عندما يصبحان غير متفاهمين.

- إنه لأمر فظيع.. بعد تلك المودة الحميمية.. لم يكن أحدنا يفارق الآخر أبدا، ولكنه في آخر الأمر أصبح يغيظني ويرهق أعصابي، ولم أعد أستطيع رؤيته.

- لابد أن الوضع لم يكن مريحا ومستحبا، لا بالنسبة لك ولا بالنسبة له.

- وهل الذنب ذنبي إذا عشقت ووقعت في الحب، إنه شعور يختلف تماما عن الشعور الذي أكنه لشارلي، فمحبتي له كانت على الدوام تتسم بشيء من عطف الأمومة. وظل يبدو على الدوام أقل تعقلا مني. ولكني كنت أفعل كل ما أريد، وأوجهه كيفما شئت رغم سوء خلقه وطباعه. أما (جيري).. -وهنا انفرجت أساريرها، وبدا صوتها أكثر رقة وعذوبة- فقد أعاد لي شبابي، وهو يحبني، مثلما يحب

الشاب فتاة شابة، ووجدت فيه رجلا قويا، وصديقا أستطيع الاعتماد عليه.

فقلت بترو وهدوء:

- لقد بدا لي أن هذا الشاب طيب، وأنه سيتقدم ويتوصل إلى ما يرغب الوصول إليه، لقد كان صغير السن بالنسبة للمهام التي يقوم بها عندما التقيت به، فهو لم يتجاوز التاسعة والعشرين. أليس كذلك؟

فابتسمت، وقد أدركت تماما ماذا أعني.

- إني لم أخف عنه عمري أبدا، وقد صرحت له بذلك، فقال إن هذا لا أهمية له.

لاشك أن هذه هي الحقيقة. إذ إن (مرغري) لم تكن تلك المرأة التي تكذب لكي تصغر سنها، وتدعي أنها مازالت شابة. ولابد أنها تجد في صدقها وصراحتها ما يرضي غرورها.

- كم هو عمرك؟

- أربع وأربعون سنة.

- وماذا تنوين أن تفعلي في الوقت الحاضر؟

- لقد كتبت لجيري وأخبرته بأني هجرت (شارلي) وحالما يصلني جوابه، سأذهب للإقامة معه.

فانتفضت مندهشا:

- ينبغي أن تعرفي أنه يعيش في منطقة صغيرة، يعرف فيها الجميع، بسرعة كل شيء، وأخشى أن يكون وضعك هناك مغلوطا وغير سليم.

- لقد طلب مني أن أعده، أني إذا بدت لي الحياة صعبة وقاسية بعد رحيله، أن أذهب لألحق به.

- وهل أنت متأكدة أنك لم تثقي أكثر مما ينبغي بكلام شاب لاه ومتحمس؟

فانفرجت أساريرها، وابتسمت من جديد:

- كلا، عندما يكون هذا الشاب هو (جيري).

شعرت بالبرودة تسري في قلبي. فلزمت الصمت برهة، ثم رويت لها قصة الطريق الذي شقه (مورتون) بل وضخمتها قليلا، بحيث أصبحت مؤثرة، على ما أعتقد.

فسألتني:

- ولماذا تروي لي هذه القصة؟

- لتسليتك.

فهزت رأسها وابتسمت:

- كلا، إنك تحاول لفت نظري إلى حماسته الشبيبية، وإلى هوسه بعمله الذي لا وجود لأي شيء بجانبه بالنسبة له. هيا! فلست أنا التي سأعيقه. فأنت لا تعرفه مثلما أعرفه أنا: إنه رومانسي بشكل لا يصدق، إنه يعتبر نفسه كأحد الرواد الأوائل. وفكرة مساهمته في تنمية بلاد جديدة انتقلت إلي أخيرا وبدأت تساورني، وبالحقيقة، ماذا هنالك أجمل من هذا؟ وبالمقابل، تبدو الحياة هنا فارغة لا طعم لها. ولكنه بالفعل، وحيد هناك، ويشعر بالعزلة، ووجود امرأة إلى جانبه، حتى وإن كانت في مثل سني سيكون عاملا مساعدا ومشجعا بالنسبة له.

- وهل تنوين أن تتزوجيه؟

- كل شيء يتوقف على رغبته، سأفعل كل ما يريده.

فشعرت بالتأثر الشديد من موقفها هذا، ومن بساطتها، وعندما ودعتها، لم أكن أشعر نحوها بأي حقد أو عداء، ولكني بالحقيقة، بقيت أعتبرها مجنونة. ولكن إذا كنا نغضب ونثور من جنون الآخرين، فإننا سنعيش في غضب وثورة دائمين. وكل الأمور يمكن أن تسوى في النهاية. و(جيري) رومانسي؟ لاشك في ذلك.

ولكن حس الواقع والحقيقة ينقذ الرومانسيين المتورطين في حماقاتهم، من مآزق كثيرة في عالمنا المبتذل. والسذج الحقيقيون هم أولئك الذين يحملون كلامهم على محمل الجد. فالإنكليز قوم رومانسيون، وهذا ما يجعل الناس يعتبرونهم خطأ بأنهم منافقون. فهم يبحرون بكل إخلاص نحو مملكة الله، وكل ما هنالك هو أنهم خلال هذه الرحلة الشاقة يستفيدون بحسهم السليم من الفوائد والمزايا التي تتاح لهم في الطريق. ويا لها من لحظة سيئة سوف يمضيها ذلك المسكين (جيري) عندما يتلقى رسالة (مرغري)، ومع أن حالته لا تستحق التعاطف معه، ولكن الفضول كان يدفعني لأرى كيف سيخرج من هذا المأزق الذي أوقعه فيه تصرفه الخاطئ. و(مرغري) من جهتها سوف تعاني من مرارة خيبة الأمل، ولكن ذلك لن يضيرها كثيرا. فهي يمكنها أن تعود إلى جوار زوجها، فتستأنف الأسرة الحياة الطبيعية، وتنهي أيامها في سعادة وهدوء.

ولكن النهاية كانت مختلفة جدا عن ذلك. وقد انقضت بضعة أيام لم أستطع خلالها الاهتمام بـ(شارلي بيشوب) ولكني كتبت له ودعوته لتناول طعام العشاء، في إحدى أمسيات الأسبوع التالي. واقترحت عليه دون الإصرار على ذلك بشيء من الحماسة، الذهاب بعد ذلك إلى المسرح. فقد كان يفرط في الشراب، والسكر يجعله كثير الصخب والجلبة، وكنت أخشى دائما من أن يتعرض لإحدى المشاكل فتسبب له فضيحة شنيعة. وتواعدنا على تناول العشاء في النادي، الساعة السابعة. والمسرحية تبدأ في الثامنة والربع، ولكنه لم يأت. فتلفنت إلى منزله، دون أن أتلقى جوابا، فقدرت أنه في طريقه إلى النادي. وأنا أكره الوصول إلى المسرح بعد رفع الستارة، فبقيت في الردهة لكي نجلس إلى المائدة فور وصوله. ولكسب الوقت، أوصيت على طعام العشاء. أشارت الساعة إلى السابعة والنصف، ثم إلى

الثامنة إلا ربع، ولم يأت أحد. فصعدت إلى قاعة الطعام، وتناولت العشاء بمفردي. ثم اتصلت هاتفيا بآل (مارش) وعندما رد علي (بيل) قلت له:

- قل لي، أتعرف أين (شارلي)؟ لقد اتفقنا على تناول العشاء سوية، ثم الذهاب إلى المسرح، ولكنه للآن لم يأت.

- لقد مات اليوم بعد الظهر.

- ماذا تقول؟!

ويبدو أني صرخت بصوت عال، لأن شخصين أو ثلاثة التفتوا نحوي، وفي قاعة الطعام المزدحمة برواد النادي، كان الخدم يسيرون جيئة وذهابا، والضجة قوية، وكان جهاز الهاتف على مكتب أمين الصندوق.

وسألني (بيل):

- من أين تتحدث معي؟

لقد سمع ولاشك ضجة الأحاديث. وعندما أجبته طلب مني الحضور إلى منزلهم، حالما أفرغ من تناول الطعام، قائلا:

- إن جانيت تريد أن تتحدث إليك.

فقلت له: سأحضر بسرعة.

كان (بيل) يقرأ الجريدة و(جانيت) تتسلى بلعبة (الصبر) بورق اللعب، فاندفعت نحوي بمشيتها المتموجة والمتمهلة، كمشية الفهد وهو يهم بالانقضاض. كانت على سجيتها. وعندما مدت لي يدها أدارت رأسها لكي تخفي دموعها. وكان في صوتها المبحوح نبرة مأساوية:

(لقد اصطحبت (مرغري) ووضعتها في السرير، بعد أن أعطاها الطبيب دواء مهدئا. كانت محطمة. أليس هذا فظيعا؟)

وانطلق من حنجرتها صوت بدا لي وكأنه مزيج من التنهد والنحيب (هذه الأمور لا تحصل إلا معي).

لم يكن لدى (آل بيشوب) أي خادم، كانت إحدى الوصيفات تأتي صباح كل يوم لكي تنظف وترتب المنزل، وكان معها المفتاح. وفي ذلك اليوم، بدأت كعادتها بتنظيف الصالون. وكان (شارلي) منذ أن رحلت زوجته، يستيقظ في أوقات مختلفة، ولذلك فإن الوصيفة لم تدهش عندما لاحظت أنه لا يزال نائما، ولكن الوقت كان يمر، وبما أنها تعرف أن هنالك من ينتظره في المخبر، فقد ذهبت وقرعت باب غرفته. فلم تحصل على جواب. واعتقدت أنها تسمع أنينا. ففتحت الباب بكل هدوء: كان (شارلي) مستلقيا على ظهره في السرير وهو يتنفس بصعوبة.

وبما أنه لم يستيقظ، فقد أخذت تناديه، وكان منظره يبعث على الخوف. وفي الطابق نفسه كان يقيم أحد الصحفيين، فأسرعت إلى شقته. كان لا يزال في السرير، وأتى ليكلمها وهو في لباس النوم.

فقالت له: (عفوك يا سيدي، هلا ألقيت نظرة على جارك؟ إنه في حالة غريبة جدا).

فأتى الصحفي إلى شقة (شارلي) ولاحظ وجود زجاجة (فيرونال) (Veronal) صغيرة، فارغة على المنضدة الكائنة قرب السرير، فنصح الوصيفة أن تذهب وتحضر أحد رجال الشرطة فأتى الرجل مسرعا، وتلفن ليطلب سيارة إسعاف. ونقل (شارلي) إلى مشفى (Charing Cross) دون أن يستعيد وعيه، وبعد ذلك أتت (مرغري).

وقالت (جانيت):

ولابد من إجراء التحقيق، ولكن الحقيقة واضحة جدا، لقد تناول عقار الفيرونال المنوم، وأخطأ في تقدير الجرعة التي تناولها.

فسألتها:

- وهل هذا هو رأي (مرغري)؟

- إنها أشد اضطرابا من أن يكون لها رأي، هذه المسكينة، ولكني

قلت لها إنه بالتأكيد لم يشأ أن يقتل نفسه، لم يكن من نوع الرجال الذين يفعلون ذلك، أليس هذا هو رأيك يا (بيل)؟

- نعم يا عزيزتي.

- وهل ترك رسالة؟

- كلا، لم يترك شيئا، ولكن بمصادفة عجيبة، فقد تلقت (مرغري) منه رسالة، في صبيحة ذلك اليوم نفسه. أوه، إنها لا تكاد تكون رسالة، بل كلمة مقتضبة: (لكم أنا وحيد، بدونك، يا صغيرتي مرغري).. وهذا كل شيء، وهو بالطبع لا يعني شيئا، وقد وعدتني بأنها لن تذكر ذلك أثناء التحقيق الذي يجريه القضاء. فما هي الجدوى من حشو أدمغة الناس بالأفكار؟ والجميع يعرفون أن تناول (الفيرونال) ليس مأمونا. ومن جهتي، فإني لا يمكن أن أقتنع بوجوب تناوله. وما حصل لا يمكن إلا أن يكون إلا قد حدث بالمصادفة، أليس كذلك يا (بيل)؟

- نعم يا عزيزتي.

كانت (جانيت) ترفض تقبل فكرة الانتحار، ولكن إلى أي حد كانت صادقة في ذلك؟ إن خبرتي الطويلة في مجال معرفة قلوب النساء وعواطفهن لم تسمح لي بتمييز وتبين هذا الأمر. وربما كانت (جانيت) على صواب: أيعقل أن عالما في سن متقدمة، يضع نهاية لحياته لأن زوجته، التي لم تعد شابة أيضا قد هجرته؟ فلابد أن الأرق قد أرهقه، ولاشك أنه كان في حالة السكر الشديد، فتناول دون انتباه منه جرعة كبيرة جدا من (الفيرونال). كان هذا هو رأي رجل المباحث. الذي قيل له أن تصرفات (شارلي) السيئة أرغمت زوجته على أن تهجره وتغادر المنزل. ولم يكن لديه بالحقيقة أية رغبة بأن يموت. وأفضى المحقق بحديث جمع فيه بين التعاطف والمواساة، وبين رأيه في خطورة تناول العقاقير المخدرة والمنومة.

أنا أكره الجنائز والمشاركة فيها. ولكنّ (جانيت) أصرّت على اصطحابي إلى جنازة (شارلي). وكان العديد من زملائه يريدون المشاركة فيها، ولكن، بناء على رغبة (مرغري) اقتنعوا بالعدول عن ذلك، وكنّا نحن الأربعة: (جانيت)، (بيل)، (مرغري) وأنا، وحدنا الذين رافقناه إلى مثواه الأخير. كان علينا أن نذهب لنجلب الجثمان، واقترحوا عليّ أن يمرّوا ليأخذوني. فوقفت أترصّد السيارة، وعندما لمحتها تسير في الشارع نزلت. فتقدم مني (بيل) قائلاً:

(انتظر لحظة، أرجوك، فلديّ ما أقوله لك: جانيت تطلب منك أن تعود إلى منزلنا بعد الاحتفال بالدفن، فما هي الجدوى من ترك (مرغري) تستسلم لأفكارها المحزنة. وبعد تناول الشاي يمكننا أن نلعب الـ(بريدج) فما هو رأيك في ذلك؟

- ونحن في هذه الملابس؟

كنّا جميعاً نرتدي ملابس الحداد السوداء، وكانت ربطة عنقي سوداء أيضاً.

- أوه! وما هي أهميّة ذلك؟! فما يجب عمله هو أن نواسيها ونسلّيها.

- حسن جداً.

ومع ذلك، فإنّنا لم نلعب (البريدج) وكانت الشقراء (جانيت) تبدو في غاية الجمال في فستانها الأسود، وقامت بدور الصديقة المخلصة بشكل رائع وبحسّ سليم. كانت تبكي أحياناً، وتجفّف دموعها بعناية لكي لا يسيل خضاب جفونها (الريمل). وعندما تعتري (مرغري) نوبة من النحيب كانت تضمّها إليها بعطف وحنان. وبدت كسند كبير القيمة، بالنسبة لها في تلك المصيبة. وعدنا إلى منزل (آل مارش) حيث كانت هناك برقية لـ(مرغري). فأخذتها وصعدت إلى غرفتها، فظننت أنها برقية تعزية، وخرج (بيل) ليبدّل ملابسه. ودخلت أنا و(جانيت)

إلى الصالون، ففتحت منضدة (البريدج) ونزعت (جانيت) قبعتها ووضعتها على البيانو. وقالت:

(لا جدوى من التصنّع، و(مرغري) حزينة ومضطربة، بطبيعة الحال، ولكن عليها الآن أن تتقوّى وتتغلّب على حزنها، ولذلك فإنّ (مباراة بريدج) ناجحة ومرحة، ستغيّر لها أفكارها. مسكين (شارلي) إنه ما كان يمكن أن يتقبّل العزاء لو أنه فقد (مرغري). ولكن بالنسبة لها، علينا أن نعترف بأنّ هذا يسوّي الأمور تماماً. فقد أرسلت برقية إلى (جيري) صباح اليوم.

- ولماذا؟

- لكي تخبره بما حدث للمسكين (شارلي).

وفي تلك اللحظة، دخلت الوصيفة وقالت لها:

(ألا تريد سيدتي أن تصعد إلى جوار السيدة (بيشوب) فهي تطلبها).

- نعم بالتأكيد.

وخرجتَ مسرعة وبقيتَ بمفردي، وبعد قليل أتى (بيل) وقدّم ليَ الشراب. وأخيراً عادت (جانيت) وناولتني برقية، وقرأت فيها:

(أوصيك بإلحاح أن تنتظري رسالتي) (جيري).

وسألتني: ماذا يعني هذا؟

- الأمر في غاية الوضوح.

- يا لك من أحمق! لقد أكّدت لـ(مرغري) أنّ هذا لا يعني شيئاً على الإطلاق، ولكنها مع ذلك قلقة جداً، ولابدّ أنّ (جيري) أرسل هذه البرقية قبل أن تصله البرقية التي تحمل له خبر موت (شارلي) وأعتقد أنها ليس لديها أيّة رغبة بلعب (البريدج). أعني أنه لن يكون من المناسب اللعب في اليوم نفسه الذي وارينا فيه الثرى زوجها المسكين.

- هذا صحيح.

- سوف يردّ جيري دون شك، على البرقية الثانية. بل إنّ هذا مؤكّد. فما هو رأيكم في ذلك؟ ولكن كل ما يمكن عمله الآن، هو انتظار رسالته.

وبدا لي أن الموضوع قد استنفذ، ولذلك ودّعتهم وانصرفت. وبعد ذلك بيومين، تلفنت لي (جانيت) وقالت لي إنّ (مرغري) قد تلقّت للتوّ برقية أخرى من (جيري)، ثم قرأتها لي:

(تأثّرت أشدّ التأثّر لمصابك الأليم، أفكّر بك كثيراً، لك كلّ مودّتي وعطفي. جيري).

وسألتني: ما قولك في هذا؟

- إنه كلام سليم تماماً ولائق.

- من البديهي أنه لا يستطيع القول أنه مسرور.

- كان يمكن أن يكون ذلك غير لائق.

- وقد أضاف في النهاية عبارة (مودّتي وعطفي).

فأخذت أتصوّر المرأتين منهمكتين في تفحّص البرقيّتين والتدقيق فيهما ودراسة كل كلمة، والبحث عن كل المعاني المحتملة والممكنة لهذه الكلمات. وكنت أكاد أسمع تعليقاتهما التي لا نهاية لها.

وتابعت (جانيت): ماذا سيحلّ بـ(مرغري) إذا تخلّى عنها الآن؟ أخيراً سوف نرى فيما إذا كان رجلاً مهذّباً (جنتلمان).

فقلت:

- يا لها من دعابة كاذبة.!

وأسرعت بوضع السماعة، وإنهاء المكالمة.

وفي الأيام التالية، تناولت طعام العشاء مرّتين عند (آل مارش) فلفتت نظري قسمات وجه (مرغري) المتعبة والمشدودة: كانت تنتظر بقلق شديد رسالة (جيري) وقد أرهقها الحزن والقلق، فلم تعد سوى ظل وقد بدت نحيلة جداً، بحيث لم أعد أعرفها، ولكنّها كم كانت تبدي من اللطف والامتنان لأقل اهتمام يوجّه لها! وابتسامتها الغامضة

والخجولة كانت تثير العطف والشفقة. وكان الجميع يودّون مواساتها، وهي في تلك الحالة من الضعف. ولكنّ (مورتون) كان على مسافة عدة آلاف من الكيلومترات. وأخيراً وفي صباح أحد الأيام، طلبتني (جانيت) على الهاتف:

(لقد وصلت الرسالة، و(مرغري) تقول إني يمكنني أن أطلعك عليها، أتريد الحضور؟)

ومن نبرة صوتها أدركت كل شيء، وعندما وصلت ناولتني (جانيت) الرسالة، فقرأتها: كانت مسبوكة بشكل جيد ولابدّ أن (مورتون) قد أعاد كتابتها مرات عديدة. وعبر تأكيده على العطف والحنان وعنايته الشديدة لكي لا يجرح شعور (مرغري)، وكان ذعره يبدو واضحاً. وكنت بالحقيقة، أتخيّله وهو يرتجف، في بنطاله القصير. ولكي يَخفي ذعره، أخذ يتهكّم على البيض الذين يقيمون في المستعمرة التي يعمل فيها ويجعل منهم سخرية، قائلاً عنهم: ماذا سيقولون عند وصول (مرغري) إلى هناك؟ فلن يطول بهم الأمر حتى يطالبوا بنقله. والناس يتصوّرون خطأ أن المرء في (الشّرق) حرّ بأن يعيش على هواه وكما يحلو له، فالسّكان هنا أكثر ثرثرة وهذراً، من سكان أصغر قرية في الريف: ومحبّته لـ(مرغري) أقوى من أن تجعله يعرّضها لإساءات وإهانات أولئك الثرثارين والمغتابين الفظيعين. وبالإضافة إلى ذلك، فقد أوفده المسؤولون عن المستعمرة، منذ فترة وجيزة، في مهمّة إلى موقع ناء يبعد إلى الداخل مسيرة عشرة أيام. وهي لن تستطيع أبداً الإقامة في كوخ ريفي خشبي. وبالطبع لا يوجد هناك فندق. وفي معظم الأحيان تضطره ظروف العمل إلى البقاء في الغابة، عدة أيام متوالية. كلاّ، بالحقيقة لم يكن هذا المكان يناسب أيّة امرأة. وهو متعلّق بها كثيراً، ولكنّه يطلب منها ألاّ تعقّد حياتها بسببه. أوليس الحلّ الأكثر حكمة وتعقّلاً هو أن تتصالح مع زوجها؟ وهو لن يغفر لنفسه أبداً إذا

تبيّن له أنه عكّر صفو تفاهمها مع (شارلي).

نعم، لقد كان من الصعوبة بمكان كتابة مثل هذه الرسالة، ولابدّ أن الذي كتبها قد لاقى مشقّة كبيرة في ذلك.

وقالت (جانيت):

(ولكنّه لم يكن يعرف بعد ما حدث لشارلي. فموته يقلب الأمور رأساً على عقب، وقد لفتّ نظر (مرغري) إلى ذلك.

- وهل هذا هو رأيها؟

- أوه! إني لا أفهمها. وأنت؟ ما هو انطباعك؟

- الأمر واضح للعيان، إنّه لا يريدها وهو يتهرّب منها.

- ومع ذلك كان يلاحقها ويركض وراءها، منذ شهرين.

- لا يمكن أن نتصوّر ما الذي يمكن أن يَحدثه تغيير الجو والبيئة. فبالنسبة له، لابدّ أن يشعر كما لو أنّه غادر لندن منذ سنة أو أكثر، وقد التقى هناك بأصدقائه القدامى، واستأنف ممارسة عمله، ومصالحه وعاداته. فلماذا نخدع (مرغري) يا عزيزتي؟ فالحياة هناك قد استعادت (جيري) واستحوذت عليه من جديد، وليس فيها مكان لها.

- أمّا أنا، فقد نصحتها للتوّ، بألاّ تعير بالاً لهذه الرسالة، وأن تسافر في الحال لتلحق به.

- آمل أن تكون أعقل من أن تذهب لتصطدم بخيبة أمل مخيفة هناك.

- إذن ماذا سيحلّ بها؟ أوه! امرأة بهذا اللطف، ذات قلب ذهبي.

- أصعب ما في الأمر، هو أنّ قلبها الطيب هو الذي أفسد كلّ شيء. فلماذا بحق الشيطان، لم تتم مع (مورتون) وتضاجعه بكل بساطة؟ كان يمكن ألاّ يعرف (شارلي) شيئاً عن ذلك، ولن يضيره بشيء. وهي و(مورتون) كان من الممكن، لو حصل هذا، أن يقضيا أوقاتاً ساحرة وهنيئة. وعند انتهاء الإجازة يفترقان وهما مقتنعان بالوصول

إلى نهاية فترة شكّلت فاصلاً محبباً. وبعد أن تكون (مرغري) شبعت من المداعبات، ارتوت وهدأت، كان يمكن أن تظلّ بالنسبة لشارلي كما كانت سابقاً وعلى الدوام الزوجة المناسبة والممتازة.

فتقلّصت شفتا (جانيت) ونظرت إليّ بازدراء:

- والفضيلة، ماذا تفعل بها؟

- فلتذهب الفضيلة إلى الجحيم! الفضيلة التي تسبب تكدّس الدمار والكوارث لا تعنيني ولا أهتم بها، سمّي هذه فضيلة إذا شئتِ أمّا أنا فأقول أنها جبن ونذالة.

- إن فكرة خيانة (شارلي) والاستمرار بالعيش معه، كانت تثيرها وتغيظها. هنالك نساء هكذا، فماذا يمكن عمله؟!

- يا إلهي! ألم يكن بإمكانها أن تظلّ وفية له بالعاطفة والفكر، دون أن تكون كذلك بالحسّ والجسد؟ وهذه، مع ذلك هي إحدى التسويات التي تبدو النساء الأكثر قوة على تحقيقها.

- يا لك من مستهتر ووقح!

- إذا كانت مواجهة الحقيقة، والتّحلي بالحسّ السليم استهتاراً إذن، أنا مستهتر ووقح، بالتأكيد، وبقدر ما تريدين. ولكن هاهي الوقائع أمامنا: (مرغري) لم تعد شابة، و(شارلي) كان في الخامسة والخمسين من عمره، وقد تزوّجا منذ ست عشرة سنة. وقد سلب لبّها شاب متأنّق كان يغازلها. وهذا أمر طبيعي، ولكن لا تسمّي هذا حبّاً، بل رغبة حسّية وجسدية. وقد كانت بلهاء عندما أخذت أحاديثه المنمقة على محمل الجد. فلم يكن هو الذي يتكلم، بل كانت حواسه الجائعة، هي التي تفعل ذلك. فهو يعاني من كبت طويل الأمد: تصوّري أنه منذ أربع سنوات لم يرَ امرأة بيضاء في سريره! و(مرغري) كانت تنوي تدمير عمله ومستقبله بإرغامها إيّاه على الوفاء بوعوده الجنونية! فالمصادفة جمعت بينهما. وقد سحرته وتولّه بها، ولأنه لم يستطع أن ينالها فقد

زاد ذلك من رغبته بها بمزيد من الشوق والشغف. ولاشكّ أنه كان يعتقد أنه يحبّها، ولكنّي وأكرّر لك ذلك، لم يكن شعوره هذا سوى مجرد رغبة حسّية وجسديّة، ولو أنّهما تضاجعا، لكان (شارلي) لا يزال على قيد الحياة، وفضيلة (مرغري) المتشدّدة هي التي سبّبت كلّ الضرر.

- هذا كثير! ويصعب تصديقه، فأنت تعلم جيداً أنها لا يمكنها أن تتصرّف بهذا الشكل، فهي ليست عاهرة على أيّة حال!

- إنّي أفضّل العاهرة على المرأة الأنانية أو الحمقاء.

- اسكت.. فأنا لم أطلب منك الحضور لكي تسمعني حديثاً يثير القرف إلى هذه الدرجة.

- إذن، لماذا بالضبط طلبت مني الحضور؟

- (جيري) صديقك. وأنت الذي قدّمته لـ(مرغري) وعرّفتها عليه. وإذا كانت اليوم في مأزق، فإن ذلك حدث بسببك، وكل الأذى والضرر أتى منك، ولذلك فإنّ من واجبك أن تكتب لجيري وتنصحه بأن يتصرّف بشهامة وكرجل شريف.

- أفضّل أن تَقطع يدي، بدلاً من أن أفعل ذلك!

- إذن هيا! انصرف من هنا.

فنهضت، انصياعاً لما طلبت منّي، ولكنها أضافت:

(أخيراً، على أيّة حال، إنّه لمن حسن الحظ أنّ (شارلي) قد أمّن على حياته).

فالتفتّ نحوها وقلت:

(وتجدين لديك الوقاحة الكافية لتعامليني كمستهتر؟!)

ولن أردّد الشتائم التي وجّهتها لها وأنا أصفق الباب خلفي. وهذا لا يمنعني من القول أنّ (جانيت) امرأة فاتنة، وإني كثيراً ما كنت أقول في سرّي، كم هو ممتع أن يكون المرء زوجها!.

الزينة التي اكتملت

أحب "إيلسوم" (Elsom) ذلك البلاج الصغير الذي يقع في جنوب إنكلترا، بجوار (بريفتون) (Brighton) حيث أجد بقية من السحر القديم الذي زال عن هذه المدينة الجميلة. وهدوء هذا الشاطئ الرملي يتسم بالروعة والوقار. ومنذ عشر سنوات، وأنا أذهب إليه في معظم الأحيان. وهنا وهناك تنتشر بعض المنازل القديمة التي لا يزال يبدو عليها مظهر العظمة، كامرأة من علية القوم الذين فقدوا ثروتهم ومكانتهم، والتي يدعو إلى الابتسام اعتزازها بطبقتها، دون أن يثير الإهانة والغيظ. وتلك المنازل التي بنيت في عهد أول (جنتلمان) (Gentlman) في أوربا، ربما تكون شهدت الأيام الأخيرة لبعض السياسيين ورجال الحاشية الذين زالت سلطتهم وفقدوا ما كانوا يتمتعون به من حظوة.

وفي الشارع الكبير، ذي الطابع الرومانسي، كانت سيارة الطبيب تبدو في مكانها المناسب. كانت ربات البيوت يتسوقن حاجاتهن، دون استعجال: فهن يثرثرن مع الجزار وينظرن إليه وهو يقتطع ضلعية من لحم ثور كبير، وبينما يضع البقال في إحدى سلالهم كيسا من الملح وعلبة شاي، كن يسألنه باهتمام عن أخبار زوجته.

فهل حظي بلاج (إيلسوم) في سابق عهده بالشهرة وبإقبال الناس عليه؟ إني لا أعرف شيئا عن ذلك، وفي الفترة التي أتحدث لكم عنها، كان مكانا مريحا، والأسعار فيه ليست مرتفعة، تسكنه سيدات

متقدمات في السن، بعض الفتيات العوانس وبعض الأرامل، وكثير من الموظفين الذين عملوا سابقا في الهند، ومن الضباط المتقاعدين. ورغم ما يبدو عليهم من برود، فإنهم كانوا ينتظرون بفارغ الصبر، شهري آب وأيلول (أغسطس وسبتمبر) وعودة السباحين والمستحمين، لأنهم لم يكونوا يأنفون من تأجير (فيلاتهم) لكي يستطيعوا التمتع ببضعة أسابيع من التسلية واللهو في أحد فنادق سويسرة.

لم يسبق لي أبدا أن أقمت في (إيلسوم) أثناء موسم الاصطياف، عندما يتسكع الشباب بملابسهم الزاهية في الحدائق والمتنزهات، بينما آخرون يسرحون ويمرحون على الشاطئ الرملي، وفي قاعة البلياردو الكائنة في فندق (الدوفان) (Le Dauphin) أي ولي العهد، يستمر تصادم الكرات حتى منتصف الليل. كنت أذهب إليه دائما في فصل الشتاء. عند ذلك تكون جميع الفيلات، على امتداد الشاطئ، وهي منازل مبنية بالجص وذات نوافذ زجاجية بارزة على الطراز الذي كان سائدا سنة ١٨٣٠ مستعدة لتأجير الغرف للمصطافين.

وفي فندق (الدوفان) يخدم الزبائن رئيس واحد للخدم، وخادم لكل طابق. وفي الساعة العاشرة، يدخل البواب إلى غرفة التدخين ومن نظرته إليك، تدرك أن عليك أن تذهب وتأوي إلى فراشك. ولكن المرء يمكنه أن يرتاح فيه تماما، فهو فندق صغير نظيف وجيد جدا. وقد ارتاده (الأمير الوصي) أكثر من مرة، قادما بالسيارة لتناول الشاي مع السيدة (Fitzherbert) (فيتزهربرت). ويرى الداخل إلى صالون الفندق رسالة ضمن إطار، معلقة على الجدار، أرسلها الكاتب الإنكليزي (William Thackeray) (ويليام ثاكيري) يطلب فيها أن تحجز له ردهة وغرفتان للنوم تطلان على البحر، ويوصي بأن ترسل له عربة إلى المحطة.

بعد الحرب بسنتين، أو ثلاث سنوات، أتيت إلى (إيلسوم) في

تشرين الثاني (نوفمبر) لأرتاح وأقضي فترة النقاهة، بعد نزلة وافدة أصابتني. وصلت بعد الظهر، وحالما فتحت حقيبتي وبدلت ملابسي، نزلت نحو الشاطئ الرملي، كانت بعض القوارب الشراعية، التي انتزعت صواريها استعدادا لفصل الشتاء، قد سحبت إلى الأعلى فوق الحصى والرمال. وبدت مقصورات الاستحمام (الكابينات) ممتدة في صف طويل رمادي اللون. لم يكن هنالك أحد على المقاعد التي وضعها المجلس البلدي، كان بعض المتنزهين يسيرون جيئة وذهابا. ومررت بقرب عقيد عجوز أحمر الأنف، يرتدي بنطال الغولف، ويتبعه كلبه. وبسيدتين مسنتين ترتديان تنورتين قصيرتين، وتنتعلان حذائين سميكي النعل. وبفتاة عادية لا شأن لها، على رأسها قبعة تزينها ريشة. والحقيقة هي أني لم يسبق لي أن رأيت (البلاج) مقفرا إلى هذه الدرجة. وكانت الفنادق تنتظر كالفتيات الذابلات اللواتي ينتظرن ويترصدن عبثا عودة عشاقهن، وحتى فندق (الدوفان) المضياف كان يبدو كئيبا ومهجورا. وقد بدت لي الحياة عند ذلك، باهتة قاتمة. فصعدت إلى غرفتي، وبعد أن حركت الجمر في المدفأة، وأزلت عنه الرماد، تناولت كتابا لأطرد الأفكار السوداء. ولكني لاحظت بسرور بالغ حلول موعد ارتدائي لملابسي من أجل الذهاب لتناول طعام العشاء.

كان نزلاء الفندق القلائل قد سبقوني إلى المائدة، فألقيت عليهم، دون اهتمام نظرة سريعة: كان هنالك سيدة وحيدة، ورجلان تقدمت بهما السن، أصلعان، وقد احتقن وجهاهما باحمرار ظاهر، فلابد أنهما ممن اعتادوا على ممارسة لعبة (الغولف). وكانا يتناولان الطعام دون أن يتبادلا الكلام. ولفت انتباهي ثلاثة أشخاص يجلسون على الشرفة: رجل متقدم في السن وسيدتان، يحتمل أن تكون إحداهما زوجته والأخرى ابنته. وفي بداية الأمر كانت الأولى هي التي أثارت اهتمامي: فهي ترتدي فستانا فضفاضا من الحرير الأسود وقبعة من

الدنتيلا السوداء، أساور ضخمة وعقد ذهبي كبير، تدلت منه ميدالية كبيرة، وفي عنقها مشبك مصنوع من الذهب أيضا. إذن لا يزال هنالك أناس يحبون هذا النوع من الحلي والمجوهرات؟ وكثيرا ما توقفت أمام واجهات المخازن التي ترهن هذه الحلي الغالية الثمن التي بطل استعمالها، لقاء قروض تمنحها لأصحابها، ثم تعمد إلى بيعها ثانية، وكنت أنظر إليها متذكرا بشيء من الأسى، النساء اللواتي كن يتولعن بها. والآن، لقد تغير الكثير من أشكال الملابس والقبعات وحلت الخفة والرقة محل الضخامة والكثافة. وكان إنكليزيو ذلك العصر يهتمون بالنوعية الجيدة والصفات الحسنة وهم يذهبون صباح كل يوم أحد إلى الكنيسة، ويتنزهون في الحدائق بعد القداس. ويقيمون حفلات عشاء تضم عادة اثني عشر مدعوا، حيث يقوم صاحب البيت بتقطيع الشواء المكون من اللحم البقري والفراريج، وبعد ذلك تعزف السيدات بعض المقطوعات الصامتة من ألحان (مندلسون) ويغني أحد السادة، الذي يتمتع بصوت جهوري وجميل، أغنية راقصة، من الأغاني الاسكتلندية القديمة.

كانت المرأة الأخرى تدير لي ظهرها، لم أكن أرى سوى قامتها الفتية والمشوقة التي يكسوها فستان رمادي داكن، وشعرها الكثيف الأسود، كان الثلاثة يتحدثون بصوت خافت. وبعد ذلك بقليل التفتت هذه الأخيرة، فلمحت جانب وجهها الذي أدهشني جماله: أنف مستقيم ودقيق، وجه بيضاوي شديد النعومة والنقاء، تسريحة (الملكة الكسندرة). وبعد الانتهاء من تناول العشاء، خرجت السيدة المسنة، دون أن تلتفت إلى اليمين ولا إلى اليسار، فتبعتها الفتاة. عند ذلك لاحظت بدهشة كبيرة أن هذه الفتاة التي كنت أظن أنها شابة، كانت بالحقيقة متقدمة بالسن. وكان فستانها البسيط، الذي يبدو طويلا بالنسبة لأزياء ذلك العصر، يبرز قامتها بطريقة قديمة وباطلة ولكنه على أية

حال كان فستان فتاة شابة. كانت طويلة كإحدى بطلات (تينسون) (Tennyson)[1] نحيفة، ممشوقة القامة، تمشي بظرف وأناقة، وكان أنفها يشبه أنف إحدى آلهات اليونان القديمة، وشكل فمها ينم عن العزيمة والتصميم، وعيناها كبيرتان وزرقاوان، وبشرتها تبدو مشدودة بعض الشيء على عظامها، وبعض التجاعيد كانت ظاهرة على جبينها وحول عينيها، ولكن ما أروع ملامحها ولون بشرتها! فهي تشبه نماذج (ألما تدما) Alma Tadema المفضلة، تلك الرومانيات ذوات التقاطيع والملامح المنتظمة والساحرة، اللواتي كن، رغم جلابيبهن، يبدون كالإنكليزيات تماما. ومنذ ربع قرن، كان هذا النموذج من الروعة والكمال الهادئين هو الزي الدارج. أما في أيامنا هذه فقد طواه النسيان، مثلما يطوي النسيان قصائد الهجاء الساخرة. والطعام المكون من صدر الحمل المشوي، وكعالم الآثار الذي يكتشف أحد التماثيل، فقد عثرت بالمصادفة على أثر باق من حقبة زالت وانقضت، لأن لا شيء يعادل في بعده عنا، بعد الأول من أمس.

بعد انصراف السيدتين، عاد فجلس السيد العجوز. قدم له الخادم كأسا من شراب (البروتو) فشم رائحته، وأخذ يحتسيه جرعة بعد جرعة، محدثا صوتا بحركة من لسانه. كان أقل طولا من زوجته الضخمة، حسن الصحة، دون أن يكون بدينا، وكانت خصلات من الشعر الأشيب تحيط بوجهه المتغضن واللطيف، ذي الشفتين الرقيقتين والذقن العريضة المربعة الشكل. كانت سترته المخملية السوداء، وقميصه ذو الصدارة، الذي تتفتح ياقته عن ربطة عنق عريضة سوداء، وبنطاله العريض جدا، كل هذا يعطي انطباعا بأنها ملابس تتكرية.

---

[1] (Alfred, lord Tennyson) (١٨٠٩-١٨٩٢): شاعر إنكليزي يعتبر أعظم شاعر في العصر (الفيكتوري) نسبة إلى الملكة فكتوريا. له دواوين ومؤلفات عديدة. (المترجم)

وبعد أن ارتشف كأسه بمتعة وهدوء نهض وغادر القاعة.

ولشدة ما أثار اهتمامي هؤلاء الناس الغريبو الشكل، قمت بالاطلاع على سجل المسافرين والنزلاء، فقرأت: السيد والسيدة إيدوين سان كلير، والآنسة (بوركيستر)، ساحة (لينستر) حي (بايسوتر) لندن. وقد كتبت هذه الأسماء، مع العنوان، بخط دقيق ناعم. فلم أشك بأنها أسماء وعنوان الجماعة الذين أثاروا اهتمامي، فطلبت بعض التفاصيل والمعلومات، من المديرة، عن السيد (سان كلير): كان أحد الأعيان المعروفين في المدينة.

دخلت إلى قاعة (البلياردو) ولعبت بضعة جولات، وبعد ذلك مررت في الردهة في طريقي إلى غرفتي. كان السيدان المحتقنا الوجه يطالعان صحيفة المساء، والسيدة المسنة داهمها النعاس وبيدها رواية كانت تقرؤها. والثلاثة الآخرون كانوا جالسين في إحدى زوايا الردهة: السيدة (سان كلير) تطرز، والآنسة (بوركيستر) تنسج الحبكات بسرعة وحماسة، بينما أخذ السيد (سان كلير) يقرأ بصوت خافت، ولكنه مسموع. وعند مروري بقربه، التقطت جملة من رواية (Bleak House) (البيت المهجور).

وفي اليوم التالي، أمضيت كل النهار تقريبا بالقراءة والكتابة، ولكني مع ذلك ذهبت للقيام بالنزهة، وفي طريق عودتي، جلست على أحد مقاعد البلاج المريحة. كان الطقس قد أصبح لطيفا، ولم أجد ما أفعله سوى مراقبة شخص يتقدم نحوي: إنه رجل، وعندما اقترب مني بدا لي معطفه الرقيق الأسود، رثا، باليا، وكذلك قبعته المستديرة. كان يبدو متأثرا بالبرد، يسير وقد وضع يديه في جيوبه. وعند مروره بقربي، ألقى علي، خلسة، نظرة سريعة، وسار خطوتين أو ثلاثا، تردد قليلا، توقف ثم عاد أدراجه. وعندما أصبح بالقرب من مقعدي، أخرج يده من جيبه، ورفع بها طرف قبعته. فبدا لي قفازه الأسود العتيق

الذي حال لونه: لاشك أنه أحد الأرامل، الذي يعاني من الضيق والفقر، بل ربما كان مثلي أنا، أحد الناجين من النزلة الوافدة.

وقال لي:

(عفوا، يا سيدي، هل تتكرم علي بعود ثقاب؟)

- (بكل طيبة خاطر)

فجلس بجانبي. وبينما كنت أتناول علبة الثقاب، كان هو يبحث في جيبه عن السجائر. وأخرج علبة صغيرة لسجائر (الجولدفلاك)، وقد بدت عليه الدهشة، وقال:

(يا إلهي، يا لها من مشكلة! لم يعد معي سجائر).

فقلت له، مبتسما:

- اسمح لي أن أقدم لك إحداها.

وأخرجت علبتي وقدمت له سيجارة، فتناولها ببساطة، وبلا كلفة.

وسألني: (أهي من الذهب؟) وهو يلمس بإصبعه العلبة التي أغلقتها. من الذهب! نعم، ولكني لم أستطع الاحتفاظ بإحداها طويلا. لقد سبق لي أن امتلكت ثلاثة مثلها. وجميعها سرقت مني.

فخفض بصره وأخذ ينظر بعينيه الزرقاوين الباهتتين بشيء من الأسى إلى حذائه البالي. كان أنفه الطويل بارزا في وجهه الأصفر المتجعد. هل هو في الخامسة والثلاثين أم في الستين من العمر؟ لم يكن لديه ما يلفت النظر سوى تفاهته. ولكن فقره الظاهر لم يكن يمنعه من العناية بمظهره وبهندامه.كان يبدو مهذبا ودقيقا، ومتمسكا بهاتين الصفتين. كلا، لم تكن هيئته البائسة ناتجة عن مرض ألم به، إنها، بالتأكيد ناتجة عن مكابدته لهموم ولمتاعب شخصية، وقدرت أنه ربما كان مستخدما قد فقد زوجته، وأن رب العمل قد أشفق عليه، فأوفده إلى (إيلسوم) كي يتخلص من أفكاره المحزنة ويتعزى عن مصابه.

وسألني: (أتنوي البقاء هنا زمنا طويلا؟)

- عشرة أيام أو خمسة عشر.

- وهذه أول مرة تقيم فيها هنا؟

- لقد سبق لي أن أتيت مرارا إلى (إيلسوم).

- وأنا أيضا يا سيدي، وأستطيع القول أنه لا يوجد إلا عدد قليل من (البلاجات) التي لم أزرها في أحد الأيام. ولكن بلاج (إيلسوم) على ما أعتقد، هو الذي يستحق جائزة التفوق عليها كلها. فهنا يلتقي المرء بأناس طيبين، وبعلية القوم. وهو مكان هادئ خال من الصخب والضجيج، راق لا وجود فيه لأي شيء مبتذل، وأنت تدرك ما أعني. وأنا لي فيه ذكريات طيبة، يا سيدي. وفيما مضى كنت أعرف المدينة كمعرفتي لجيبي. وقد عقدت قراني في كنيسة (سان مارتان).

- حقا؟

- وكان زواجا سعيدا، يا سيدي.

- يسرني أن أعرف ذلك.

وتابع وهو مسترسل في التفكير: (وهذا الزواج استمر تسعة أشهر).

بدت لي هذه الملاحظة غريبة، وشعرت، دون حماسة تذكر، بأنه سيبوح لي بأسرار حياته الزوجية، ولكني آنذاك كنت أنتظر، إن لم يكن بفارغ الصبر، فعلى الأقل بدافع الفضول، ماذا سيقول. ولكنه لم يضف شيئا، بل أخذ يتنهد. وأخيرا قطعت حبل الصمت، قائلا:

- لا يبدو أنه يوجد هنا كثير من الناس.

- هذا أفضل، فأنا لا أحب الازدحام والجماهير، وكما قلت لك، لو عملنا الحساب، لتبين لنا أني أمضيت عدة سنوات على البلاجات دون أن أمضي أية فترة في فصل الصيف، والفصل الذي يعجبني هو الشتاء.

- ألا ترى أن الجو كئيب، قاتم، يبعث على الحزن؟

فالتفت نحوي، ووضع على كتفي يده التي يغطيها القفاز الأسود:

(نعم، وعلى الحزن الشديد، وبسبب هذا الحزن، فإننا نفرح بأي شعاع من أشعة الشمس ونرحب به.)

فبدت لي هذه الجملة سخيفة ولم أجبه عليها، فسحب يده ونهض:

(هيا بنا لا أريد أن أثقل عليك كثيرا، وأنا سعيد جدا بتعرفي عليك).

ورفع قبعته القديمة بكثير من التهذيب، وانصرف. وعندما أخذ الجو يبرد عدت إلى الفندق، وعند وصولي إلى قرب درجه العريض، اصطفت بجانبه عربة تجرها فرسان هزيلتان، نزل منها السيد (سان كلير) الذي كانت قبعته تبدو وكأنها تجمع بين شكل القبعة المستديرة والقبعة العالية. ومد يد المساعدة لزوجته، ثم لابنة أخته، وتناول البواب الأغطية والمساند. وبينما كان السيد (سان كلير) يدفع الأجرة لسائق العربة، سمعته يحدد له الساعة المعتادة موعدا لليوم التالي: كان (آل سان كلير) يقومون كل يوم بنزهة، بعد الظهر بالعربة. ولم يكن ليدهشني أبدا لو علمت أن أيا منهم لم يسبق له أن ركب في سيارة.

وروت لي مديرة الفندق أنهم متحفظون وانعزاليون، ولا يحاولون الاتصال مع نزلاء الفندق الآخرين. وأخذت أقلب صفحات صورهم في خيالي: كنت أراهم ثلاث مرات في قاعة الطعام يوميا. وفي الصباح كان السيد والسيدة (سان كلير) يجلسان أمام الفندق، هو يقرأ صحيفة (التايمس) وهي تطرز. لأنها على ما يبدو لم يسبق لها أن قرأت أية صحيفة. وعند الظهر كانت تنضم إليهما الآنسة (بوركيستر) فتسألها السيدة (سان كلير):

(أكانت نزهتك جيدة، يا(اليانور)..)؟

- كانت رائعة ياعمتي (جيرترود).

وبينما كانت السيدة (سان كلير) تخرج للنزهة بالعربة، كل يوم بعد الظهر كانت الآنسة (بوركيستر) تقوم بالنزهة سيرا على الأقدام كل صباح.

وقال السيد (سان كلير) وهو يلقي نظرة على التطريز الذي تقوم به زوجته: (عندما تصلين إلى نهاية الدور، يا عزيزتي، يمكننا الذهاب للقيام بجولة صغيرة.)

فأجابته زوجته: (بكل سرور يا صديقي) ثم جمعت أدوات التطريز وطوتها ثم أعطتها إلى الآنسة (بوركيستر) وقالت لها:

- إذا صعدت، أرجو أن تأخذي هذه الأشياء معك، يا اليانور.!

- بكل سرور يا عمتي.

- لابد أنك متعبة قليلا، من نزهتك الطويلة يا عزيزتي.

- سأذهب لأرتاح قبل الغداء.

وعند ذلك، تدخل الآنسة (بوركيستر) إلى الفندق، ويذهب السيد والسيدة (سان كلير) جنبا إلى جنب للقيام بنزهة سيرا على الأقدام، على الشاطئ الرملي، إلى أن يصلا إلى نقطة معينة -هي نفسها في كل مرة- ثم يعودان إلى الفندق، بخطوات هادئة وبطيئة.

وعندما كنت أحييهما، على الدرج، كانا ينحنيان بأدب، دون أن يبتسما. وفي الصباح كنت أقول لهما صباح الخير، وعند هذا الحد توقفت محاولتي في التعرف عليهما. وهذا ما جعلني أعتقد أني لن أتوصل إلى التحدث إليهما. ومع ذلك فإن نظراتي كانت تلتقي أحيانا بنظرات السيد (سان كلير) ولأني كنت أظن أنه قد قيل له من أنا وأنه أصبح يعرف اسمي، كان غروري يجعلني أتبين بعض الفضول في نظراته. وبعد يوم أو يومين سلمني البواب رسالة:

(السيد سان كلير يقدم تحياته للسيد، ويطلب منه أن يتكرم بإعارته كتاب Whitaker's Almanach).

فاستولت علي الدهشة: لماذا بحق الشيطان يعتقد هذا السيد أني أملك هذا الكتاب؟

- ولكن يا سيدي، لقد قالت له المديرة إنك كاتب.

فلم أتبين العلاقة بين الأمرين:

(قل للسيد (سان كلير) إني آسف جدا لأن هذا الكتاب ليس بحوزتي، ولو كان معي لكان يسرني جدا أن أرسله له.

وكانت هذه فرصة سانحة. إني ربما استطعت أخيرا التعرف على هؤلاء الناس غير العاديين. أحيانا كنت أشاهد في وسط آسيا قبائل تقيم في قرى صغيرة، يحيط بها سكان غرباء. لم يكن أحد يعرف كيف أتت تلك القبائل إلى تلك القرى، ولا لماذا بقيت فيها. وهي تحافظ على عاداتها وتقاليدها، ولا يتكلم أفرادها إلا بلغتهم الخاصة ولا يقيمون أية علاقة مع جيرانهم. فهل كانوا من سلالة بعض الرحل المسنين عندما تدفقت حشود أجدادهم على تلك القارة، أم أنهم البقية الباقية من شعب عظيم، كانت له فيما مضى سلطة وسيادة؟ لا أحد يعرف شيئا عن ذلك، لأن ليس لهم تاريخ يروي سيرة حياتهم.

وأسرة (سان كلير) كانت تذكرني بهم، فهي أيضا تنتمي إلى ماض ولى عهده. وهي تذكرنا أيضا بشخصيات الروايات التافهة والفئة، القديمة العهد، التي كان يعجب بها آباؤنا. كانت فترة شبابهم يعود تاريخها إلى سنة ١٨٨٠، وقد مكثوا فيها، فكيف استطاعوا اجتياز السنوات الأربعين الأخيرة، دون أن يلاحظوا تطور الأخلاق والعادات؟ إنهم يرجعونني إلى زمن طفولتي فأتذكر أشخاصا فارقوا الحياة منذ زمن طويل. فهل تقادم الزمن هو الذي يعطيهم اليوم هيئة وسمات على هذا القدر الكبير من الأصالة؟ إذن عندما يقال عن أحدهم أنه (نموذج ذو طابع خاص) فهذا يعني شيئا ما.

في هذا المساء، وجهت الكلام بصراحة وبصورة مباشرة إلى السيد (سان كلير) الذي كان يجلس في الردهة مع السيدتين، وقلت له:

(إني آسف لعدم وجود ذلك الكتاب لدي، ولكن إذا كان أحد كتبي يمكن أن يفيدك، فيسعدني أن أعيرك أياه).

وبدا السيد (سان كلير) منكمشا وكانت السيدتان منكبتين على عملهما، وقد خيم على الجو صمت مريب. وأخيرا قال:

(ليس لذلك أية أهمية، ولكن بناء على ما قالته المديرة، اعتقدت أنك كاتب وروائي).

فأخذت أفكر منقبا في ذهني: أية علاقة بين مهنتي وكتاب: (Whitaker's Almanach)؟

فيما مضى كان السيد (Trollope) (ترولوب) يأتي في معظم الأحيان لتناول طعام العشاء في منزلنا الكائن في ميدان (لينيستر) وسمعته مرة يقول إن الكتابين الضروريين لأي كاتب روائي هما: التوراة و الـ(Witaker's Almanach).

وحرصا مني على متابعة الحديث قلت:

- يبدو لي أن السيد (Thackeray) قد أقام فترة في هذا الفندق.

- لست من المعجبين بهذا الكاتب، وإن كان قد تناول طعام العشاء أكثر من مرة مع والد زوجتي، المرحوم (سارجان سونديرز) فقد وجدته مستهترا أكثر مما ينبغي. وحتى اليوم، لم تقرأ ابنة أخي روايته: (Vanity Fair).

فاحمر وجه الآنسة (بوركيستر) عند سماعها هذه الملاحظة المتعلقة بها شخصيا.

وأتى الخادم بالقهوة، فالتفتت السيدة نحو زوجها، قائلة:

- ألا ترى يا صديقي أنه يسرنا أن يتناول هذا السيد قهوته معنا؟

لم تكن هذه الجملة موجهة لي بشكل مباشر، ولكني أسرعت بالإجابة:

- بكل طيبة خاطر يا سيدتي.

وجلست، فتابع السيد (سان كلير) حديثه، قائلا:

- إني معجب بالكاتب (Trollope)[1] وقد ظل على الدوام أديبي المفضل، لقد كان (جنتلمانا) بكل معنى الكلمة، وبغاية الرقة والتهذيب، وأنا بالتأكيد معجب بـ(Dickens)[2] ولكنه لم يعرف في حياته كيف يكون الجنتلمان. ويبدو أن شباب هذه الأيام لم يعودوا يتذوقون (Trollope) فابنة أخي الآنسة (بوكيستير) مثلا، تفضل كتب (William Black).

فقلت: أخشى ألا أكون أعرف أيا منها.

- آه! أنت مثلي، لا تتابع حركة الأدب الحديث. لقد أقنعتني مرة ابنة أختي بقراءة رواية لكاتبة تدعى الآنسة (رودا بروتون)، ولكني لم أستطع أن أتحمل قراءة أكثر من مائة صفحة منها.

فقالت الآنسة (بوكيستير) معترضة، وقد احمر وجهها ثانية:

- أنا لم أقل إنها تعجبني، يا عمي (إدوين) بل لقد قلت إنها جارحة ولكن كل الناس تتحدث عنها.

- على أية حال، أنا متأكد، بأن ليس هذا هو نوع الكتب التي تحب خالتك (جيرترود) أن تراه بين يديك، يا عزيزتي (إيليانور).

- لقد قالت لي الآنسة (بروتون) ذات يوم إنها عندما كانت شابة كان الناس يجدون كتبها فاحشة وبذيئة، وإنها عندما تقدمت في السن وأصبحت عجوزا، صاروا يجدون تلك الكتب مملة، وأن هذا فيه كثير من الظلم، لأنها ظلت تكتب عن الأمور نفسها وبالأسلوب نفسه تماما،

---

[1] (أنطوني ترولوب): (١٨١٥- ١٨٨٢) كاتب بريطاني، تحدث في رواياته عن الحياة في الأقاليم وفي الريف، من رواياته المشهورة: (أبراج بوكستير)

[2] (شارل ديكنز): (١٨١٢- ١٨٧٠) الروائي البريطاني الشهير، الغزير الإنتاج والغني عن التعريف. (المترجم)

طيلة أربعين سنة.

فوجّهت لي الكلام الآنسة (بوركسيتر) للمرة الأولى وسألتني:

- أوه! أنت إذن تعرف الآنسة (بروتون) إنه لأمر مفيد وهام! و(Ouiola)؟

- يا عزيزتي (إيليانور) من ستذكرين لنا أيضاً؟ أنا متأكد تماماً أنك لم تقرئي سطراً واحداً مما كتبته (Ouiola).

- بلى يا عمي (إيدوين) لقد قرأت روايتها (تحت علمين) وقد أعجبتني كثيراً.

- إنك تدهشينني وتثيرين غيظي. وأنا أتساءل إلى أين ستصل الفتيات، وإلى ماذا سيتوصّلن في نهاية الأمر.

- لقد كنت دائماً تقول لي إنّني عندما أبلغ الثلاثين من عمري، فإنك تعطيني كامل الحرية بقراءة كل ما أريد.

فقال السيد (سان كلير) وهو يبتسم لكي يخفّف من حدة توبيخه، ولكن بشيء من الجدية والوقار:

(الحرية والإباحية مختلفتان وليستا الشيء نفسه)

لا أدري إذا كنت قد نجحت في وصف السحر الزائل لهذا الحديث أو فيما إذا كنت قد توصّلت إلى التعبير عنه، ولكني كان بإمكاني البقاء طيلة تلك الليلة، بكل طيبة خاطر، لسماع مناقشة موضوع انحراف وتحوّل جيل كان مزدهراً سنة ١٨٨٠. وكم كنت أودّ أن ألقي نظرة على البيت الكبير الكائن في ميدان (لينستير)! لكي أرى (البروكار) الذي يزيّن صالون الاحتفالات الذي لا يدخل إليه أحد إلاّ في المناسبات الرسمية الكبيرة، والخزائن الملأى بأواني البورسلين المصنوعة في (دريسد) التي تذكّرني بطفولتي. وفي قاعة الطعام، الغرفة المفضّلة كان لابدّ أنه يوجد فيها سجّادة عجميّة وخزانة ضخمة مصنوعة من خشب الزان الصقيل، طافحة بالأدوات الفضيّة.

وفي اليوم التالي، التقيت بالآنسة (بوركيستر) في درب ضيق وجميل يقع في الجانب الخلفي من (إيلسوم). وكان بودي أن أرافقها بكل سرور ولكني شعرت أن هذه الفتاة البالغة الخمسين من عمرها يمكن أن ترتبك عند قيامها بنزهة على انفراد حتى مع شخص متقدم في السن مثلي. وحيتني بانحناءة سريعة، وقد احمر وجهها حياء، وبمصادفة غريبة التقيت بعد ذلك بقليل بالشخص الغريب ذي القفاز الأسود، الذي تبادلت معه الحديث على البلاج فلمس بطرف أصابعه قبعته القديمة، وقال لي:

- عفوا يا سيدي، هل تتكرم بإعطائي عود ثقاب؟

- بكل طيبة خاطر، ولكني لسوء الحظ لا أحمل سجائر.

- اسمح لي إذن أن أقدم لك إحدى سجائري.

وأخرج علبة من جيبه، ولكنها بدت فارغة، فقال:

- أوه! وأنا أيضا لم يعد معي سجائر، فيا له من حظ عاثر!

وابتعد، فلاحظت أنه يسرع في سيره: فهل ينوي مرافقة الآنسة (بوركيستر)؟ فكرت بالعودة واللحاق به، ولكن لماذا أفعل ذلك؟ إنه يبدو أكثر تهذيبا من أن يزعج سيدة.

وبعد الظهر، رأيته مرة ثانية، بينما كنت آخذ قسطا من الراحة على الشاطئ: كان يتجه نحوي بخطوات بطيئة ومترددة، كورقة يابسة تدفعها الريح. ولم يتردد هذه المرة بالجلوس بقربي. وقال:

- هانحن نلتقي ثانية، يا سيدي. فالعالم صغير، وإذا كان لا يزعجك ذلك، أرجو أن تسمح لي بأن أرتاح لبضعة دقائق؟ فأنا متعب بعض الشيء.

- هذا مقعد عام وللجميع، ولك الحق مثلي باستخدامه..

ولم أنتظر حتى يطلب مني ثقابا، فقدمت له سيجارة في الحال.

- أنت لطيف جدا يا سيدي. إني أحدد عدد السجائر التي

أدخنها، ولكني على الأقل أتمتّع هكذا بهذه السجائر. فمع التقدّم في السن، تتناقص رغباتنا ومسرّاتنا، وحسب تجربتي، أرى أنّنا نتذوّق أكثر وبشكل أفضل ما يتبقّى لنا منها.

- وهذا يُعتبر عزاءً لنا.

- عفواً يا سيدي، أنت، إن لم أكن مخطئاً كاتب معروف تماماً؟!

- نعم، أنا كاتب ولكن كيف عرفت ذلك؟

- لقد رأيت صورتك في الصحف. وأنا، هل تعرفني؟

أخذت أتفحّصه وأتفرّس فيه: رجل قصير نحيل، يرتدي بزّة سوداء نظيفة جداً، ولكنها عتيقة حائلة اللون، أنفه طويل وعيناه دامعتان. قلت له:

- كلاّ.. بكل أسف..

فتنهّد وقال:

- لقد تغيّرتُ كثيراً، لقد مرّ وقت كانت صوري في كل مكان. والحقيقة أنّ تلك الصور التي تنشرها الصحافة ليست ناجحة، وأقسم لك، يا سيدي،إني لو لم أكن أرى اسمي مكتوباً تحتها، لما عرفت أنها صوري أنا..

ثم صمت، كان أقصى الجزر يغطي بالوحل الأصفر رمل وحصى البلاج. وبدا الحاجز الذي تتكسر عليه الأمواج المكشوف جزئياً، كالعمود الفقري لأحد الوحوش المنقرضة والتي عاشت قبل الطوفان.

واستأنف حديثه:

- لكم يبدو لي هاماً أن يكون المرء مؤلّفاً! وكثيراً ما فكرت أني، لدي كلّ ما ينبغي لكي أكتب. وقد مرّت فترة، قرأت فيها كثيراً، ولكن ليس الآن، فلم تعد عيناي تساعدانني على ذلك. وأعتقد أني لو حاولت فإني أستطيع أن أؤلّف كتاباً.

- يقال أنّ أيّاً كان بإمكانه أن يؤلّف كتاباً.

- ولكن ليس رواية، أرجو أن تعرف ذلك، فأنا لا أجيد كتابة الروايات، وأفضل التاريخ، وبخاصة كتابة المذكرات، ولو قدم لي أحدهم شروطا مقبولة، فلن أطلب أفضل من أن أكتب مذكراتي الخاصة.

- هذا هو النوع الدارج اليوم.

- ليس هنالك كثير من الناس شاهدوا ما شاهدته أنا، ومنذ بعض الوقت تقدمت بعرض بهذا الشأن، لإحدى الصحف، ولكني لم أتلق حتى ردا على رسالتي.

وألقى علي نظرة تنم عن الرجاء والتوسل، كلا، بما أنه يبدو بهذا المظهر المناسب، فإنه لا يمكن أن يهم بأن يطلب مني نقودا.

- إذن، أنت لا تعرف من أكون؟

- بصراحة كلا..

فبدا عليه أنه أخذ يفكر، ثم تلمس قفازه الأسود، وتأمل خلال لحظة ثقبا في طرف أحد أصابعه، وأخيرا التفت نحوي، وقال باهتمام واضح:

- أنا مورتيمر إيليس..

- آه؟

هذا كل ما استطعت قوله، لأني بالحقيقة أعتقد أني لم يسبق لي أن سمعت بهذا الاسم. فبدت الخيبة على وجهه.

وكرر اسمه: (مورتيمر إيليس) إنك لن تقول لي إنك لا تعرفه.

- أخشى أن يكون الأمر كذلك، فأنا أسافر كثيرا إلى خارج إنكلترا.

فإلى ماذا تعود شهرته؟ هل كان بطلا رياضيا؟ ففي إنكلترا هذا اللقب وحده يمنح الشهرة الحقيقية. أكان طبيبا يشفي المرضى؟ أم أحد أبطال لعبة (البلياردو)؟ فلا أحد بالطبع، يبدو مجهولا أكثر من

أي وزير سابق، ويمكن أن يكون قد تولى، على سبيل المثال، إدارة قسم التجارة. ولكن لا يبدو عليه ما يدل على أنه من محترفي السياسة.

وتابع حديثه بشيء من المرارة:

- وهاك ما هي الشهرة: إيه، فطيلة أسابيع عديدة، كنت الرجل الذي تحدث عنه الناس في إنكلترا، أكثر من أي رجل آخر، انظر إلي، لابد أنك رأيت هذا الوجه في الصحف: (مورتيمر إيليس).

فأبديت حركة تنم عن التهرب، وقلت:

- كلا، بالحقيقة، وأنا آسف لذلك.

فانتظر لحظة ليعطي مزيدا من الوزن والأهمية لتصريحه:

- أنا المتعدد الزوجات، والمزواج الشهير!.

بماذا يمكن أن تجيب، عندما يخبرك رجل يكاد يكون مجهولا أنه مزواج شهير. أنا أعترف بأن الغرور ينتابني أحيانا، فأعتقد أني أرد بمزيد من السرعة، ولكنني هذه المرة، فقد أرتج علي ولم أجد جوابا.

وتابع يقول:

- لقد تزوجت إحدى عشرة امرأة، يا سيدي.

- امرأة واحدة عادة، تكفي عن سبعة.

- إنها قضية عادة، عندما تكون قد تزوجت إحدى عشرة امرأة فلم يعد هنالك لدى النساء أي سر بالنسبة لك.

- ولكن لماذا توقفت عند الحادية عشرة؟

- هذا هو السؤال كنت واثقا أنك ستلقيه علي. فمنذ الدقيقة الأولى، قلت لنفسي: (إنه يبدو ذكيا) إيه يا سيدي، هذا الأمر يقلقني على الدوام، لأن: (الأحد عشر) ليس رقما تاما وصحيحا. فيه شيء ناقص لم يكتمل. ثلاث نساء، أي كان يمكنه الحصول عليهن، سبع زوجات، هذا حسن جدا، يقال أن العدد تسعة يجلب السعادة، والعشرة

لا بأس به، ولكن الأحد عشر! هذا هو الأمر الذي أنا آسف بشأنه، وحسب، كل شيء يمكن أن يصبح لدي سيان لو أنني توصلت لإكمال (الدزينة).

وفك أزرار معطفه وأخرج من الجيب الداخلي محفظة وسخة ملأى بقصاصات الجرائد القديمة، وأراني اثنتين أو ثلاثا منها:

- كلا، تأمل هذه الصور! أنا أسألك: هل هي تمثلني حقا؟ إنه لأمر مخجل، بالحقيقة، فمن يراها يعتبرني مجرما.

كانت المقالات مطولة جدا، لأن (مورتيمر) كان يمثل بالنسبة للمحررين آنذاك مورد رزق وقيمة اقتصادية. كان أحدها معنونا، كما يلي: (مزواج يكرر محاولات الزواج) وآخر يحمل العنوان التالي: (فاسق يكتشف أمره) وثالث، كان عنوانه: (واترلو، أو الجولة الخاسرة لوغد حقيقي).

فتمتمت: (ليست هذه ما يمكن أن تسمى صحافة جيدة جدا).

- إني لا أعير أقل أهمية إلى ما تقوله الصحف.

قال ذلك وهو يهز كتفيه، ثم تابع:

لقد عرفت الكثير من الصحفيين، ولكني ناقم على القاضي، فقد عاملني أسوأ معاملة، ولكن هذا لم يجلب له السعادة: إنه مات في السنة نفسها.

وألقيت نظرة على أحد المقالات:

(أرى أنك قد حكم عليك بالسجن خمس سنوات)

أقول لك إن هذا يبعث على القرف، ومع ذلك.. وأشار بإصبعه إلى جملة في المقال: (ثلاثة من ضحاياه طلبن من المحكمة التسامح معه). وهذا يوضح رأيهن بي، وبعد كل ذلك أسجن خمس سنوات! انظر أي لقب يطلقون علي: (وغد عديم الحس والعاطفة) أنا، مع أني الأفضل نوعية بين بني البشر، جميعهم، ويقولون عني: (سم يفتك

بالمجتمع، وبلية يمكن أن تحل بجميع الناس) وقد بلغت الوقاحة بذلك القاضي إلى حد القول أنه لو كان يملك السلطة لجعلهم يجلدونني بسوط ذي تسع شرائط. خمس سنوات، ولكن دعك من ذلك أيضا وإن كانت عقوبة قاسية، تجاوزت الحد المعقول -فإني لن أغير رأيي ولن أتراجع عما أعمله- ولكني أسألك:

- هل كان له الحق أن يعاملني بهذه القسوة ويلطخ سمعتي بالوحل؟ كلا، بالتأكيد ولن أغفر ذلك له أبدا، طيلة حياتي حتى لو عشت مائة سنة.

كان الغضب يضفي الاحمرار على خدي هذا الرجل المزواج، وفي لحظة من ثورة غضبه، برقت عيناه (المعمشتان). كانت تلك بالطبع ذكرى أليمة بالنسبة له.

وسألته:

- أتسمح لي بقراءة هذه المقالات؟

- إنما من أجل هذا أريك أياها، يا سيدي، فأنا أريد منك أن تقرأها، وبعد ذلك، لابد أن يتبين لك أني كنت الضحية في هذه القضية.

وبعد أن تفحصت هذه القصاصات جيدا، أدركت لماذا كان (مورتيمر إيليس) يعرف إلى هذه الدرجة بلاجات إنكلترا: لقد كانت هي الميدان الذي يمارس فيه الصيد، وكانت طريقته تقضي بأن يرتادها بعد انقضاء فصل الصيف وموسم الاصطياف، فيقيم في أحد الفنادق، ولا يمر وقت طويل حتى يلتقي بإحدى النساء: أرملة، أو فتاة عانس تقدمت بها السن، كانت أعمارهن تتراوح بين خمسة وثلاثين وخمسين سنة. وجميعهن شهدن أنهن تعرفن عليه على شاطئ البحر. وبصورة عامة، كان يعلن لهن عن حبه بعد خمسة عشر يوما من التعارف، وبعد ذلك يتم الزواج دون تأخير. وكان يجد طريقة ليجعلهن

يعهدن إليه بمدخراتهن. وبعد مضي بضعة أشهر، بحجة سفره إلى لندن لمتابعة شؤون أعماله، كان يتوارى عن الأنظار، دون أن يعود أبدا. واحدة من زوجاته فقط رأته بعد ذلك، قبل الدعوى التي أقامتها ضده. وكانت تلك النساء تنتمي إلى وسط مناسب، ولا بأس به. وقد تبين أن إحداهن ابنة أحد الأطباء، وأخرى ابنة قسيس، وكان في عدادهن مديرة فندق، وأرملة مندوب تجاري، وإحدى صانعات القبعات. وكانت ثرواتهن تتراوح بين خمسمائة وألف جنيه، ولكن (مورتيمر إيليس) لم يكن يبدي اهتماما بالمبلغ، فهو يستولي عليه كله حتى آخر (بنس)، وقد وصفت بعض ضحاياه فقرهن الذي يثير الشفقة، ولكنهن كن متفقات على هذه النقطة: (لقد كان زوجا صالحا ويعاملهن معاملة حسنة). وثلاث منهن طلبن له من المحكمة الرأفة والتسامح، بل لقد صرحت إحداهن أنها على استعداد لمعاودة العيش معه إذا وافق على استعادتها. ولاحظ أني كنت أقرأ هذا التصريح، فعلق على ذلك قائلا:

(وكان من الممكن أن تعمل من أجلي، ومن المؤكد أنها عند ذلك ستعطيني ما تحصل عليه من أجور، ولكني قلت: (الماضي هو الماضي، ولا أحد تعجبه مثلي ضلعة خروف طازجة، ولكن إذا كانت (بائتة) ومسخنة.. أف، تفا لها!

وسوء الحظ وحده هو الذي منع (مورتيمر إيليس) من أن يكمل الدزينة التي يتطلبها حبه للأرقام المدورة، بالزواج مرة أخرى، لأنه كان قد خطب آنسة (هوبارد): (ألفا جنيه بالتمام والكمال، على شكل قروض حربية) وبيانات إشهار الخطبة والزواج كانت قد أعلنت ووزعت، عندما التقت به إحدى زوجاته اللواتي هجرهن، فحصلت على المعلومات اللازمة ووشت به.

(يالها من خبيثة، هذه! لقد خدعتني تماما.)

- وكيف حصل ذلك؟

- لقد التقيت بها في (إيستبورن) في شهر كانون الأول (ديسمبر) على ما أذكر، قرب المكسر ورصيف المرفأ، وقالت لي خلال الحديث أنها كانت تعمل في إحدى دور الخياطة، وأنها وفرت مبلغا مناسبا. كان من المستحيل معرفة الرقم الحقيقي، ولكنها لمحت لي أنه في حدود ألف وخمسمائة جنيه تقريبا، أيمكن أن تصدق ذلك، فهذه الصعلوكة لم تكن تملك ثلاثمائة منها. وهذه هي التي خانتني، مع أني لم أكن قد وجهت لها أي لوم، فمن هو الرجل الذي لم يكن قد حطم كل شيء عندما يكتشف خدعة كهذه؟ ولم أظهر لها حتى أني انزعجت، وانصرفت دون أن أتفوه بكلمة.

- ولكن ليس دون الحصول على الثلاثمائة جنيه، على ما أعتقد.

فرد بلهجة وكأني وجهت له إهانة:

- ماذا تقول يا سيدي، يجب أن نتحلى بالعقل، فهل يمكن أن تدوم ثلاثمائة جنيه إلى الأبد.. وكان قد مضى على زواجنا أربعة أشهر قبل أن تعترف بالحقيقة.

- أرجو المعذرة على تطفلي، وآمل ألا ترى في سؤالي ما يسيء إلى مزاياك الشخصية، ولكن لماذا تلك النسوة توافق معك على الزواج؟

فأجاب، كما لو أن ذلك كان يتم تلقائيا:

- لأني كنت أعرض عليهن الزواج.

- أولم تقابل أبدا بالرفض؟

- نادرا جدا ما قوبلت بالرفض، ليس أكثر من أربع أو خمس مرات طيلة حياتي، وبالطبع، لم أكن أتقدم لطلب يد إحداهن دون أن أكون متأكدا من إمكانية قبولها لطلبي، ولا أخفي عليك أنه كان يحصل معي أحيانا، أن أضيع جانبا من وقتي. فليس من الممكن دائما إصابة الهدف من أول طلقة، أليس كذلك؟ وكثيرا ما كنت ألاحق إحدى النساء خلال عدة أسابيع قبل أن يتبين لي أن لا جدوى من ذلك.

فاستغرقت في التفكير. وبعد قليل لاحت ابتسامة واضحة على محيا صديقي الجديد، وانفرجت أساريره، واستأنف حديثه قائلا:

(أعتقد أني أدركت أمرا: إن شكلي هو الذي يدهشك، وأنت لابد أنك تتساءل عن الدافع لإعجابهن بي. وهذا ما نصل إليه في هذا الشأن لكثرة ما نقرأ من روايات، ومن ارتياد دور السينما. فأنت تتصور أن ما تبحث عنه النساء، هو الرجل من نوع (رعاة البقر) (Cow- boy) أو الرومانسي الحالم من الطراز الذي كان سائدا في إسبانيا القديمة، ذو العينين البراقتين والأسمر اللون، أو ربما أيضا أحد أبطال الرقص المشهورين. وهذا يضحكني.

- وأنا سررت بذلك.

- هل أنت متزوج، يا سيدي.؟

- نعم، ولكن ليس لي سوى زوجة واحدة.

- إذن أنت لا تستطيع أن تميز وتحكم. فلا ينبغي التعميم انطلاقا من حالة خاصة وبالاعتماد عليها، وأنا أسألك، ماذا يمكنك أن تعرف عن الكلاب إذا كنت لم تقتن في حياتك سوى كلب من النوع الذي يصطاد الفئران؟

ولم يكن هذا السؤال يستدعي بالطبع أي جواب.

فأخذ يراقب الأثر الذي أحدثه، ثم تابع:

(أنت مخطئ يا سيدي وترتكب خطأ جسيما: فالنساء يمكن أن يتولهن في حب شاب جميل ولكن أن يتزوجنه..؟ فهذا أمر لا يفكرن به أبدا. فهن بالأساس، ينظرن بشيء من اللامبالاة إلى الناحية الجسدية.

- (دوغلاس جيرولد) الذي كان قبيحا بقدر ما كان فكها، كثيرا ما قال إنه يتحدث إلى المرأة ويلاطفها خلال عشر دقائق، وبعد ذلك لن يعود بالنسبة لها أي وجود لأجمل شاب.

هن لا يحببن التحالي والهزل، ولا يرغبن أن يكون الرجل فكها

يكثر من المزاح والمداعبة: أنهن يعتبرنه غير جدي. ولا يحببنه أكثر إذا كان باهر الجمال، لأنهن عند ذلك، لا يثقن به. فالذي يردنه، هو الرجل الجاد، فالأمن قبل كل شيء، ثم أني ألفت نظرك إلى ما يلي: لست جميلا ولا فكها مسليا، ولكن، وأرجو أن تصدقني، لدي ما تطلبنه جميعهن: الاتزان، والدليل على ذلك أني حققت السعادة لكل زوجاتي.

- ومما يسجل لك نقطة وعلامة حسنة أن ثلاثة من بينهن طلبن من المحكمة أن ترأف بك وتعاملك بالحسنى والتسامح، وأن إحداهن رغبت بالعودة إليك.

- لا تحدثني عنها. كنت أرتجف طيلة المدة التي قضيتها في السجن: كنت أتصورها وهي تنتظرني عند الباب، في اليوم الذي سيفرج فيه عني، فقلت للمدير: (حبا بالله، يا سيدي، اسمح لي أن أتسلل خلسة من الباب الخلفي).

وعاود تلمس قفازه الأسود، ومرة أخرى توقفت نظراته على ثقب إصبعه السبابة.

(تأمل إلى أين يصل بنا الحال بسبب الإقامة والعيش دائما في الفنادق. وكيف تريد يا سيدي، أن يبدو المرء معتنى به على الدوام، بدون وجود امرأة إلى جانبه؟ لقد كنت أكثر زواجا من أن أستغني عن وجود امرأة بقربي. هنالك رجال يتذمرون ويشكون من كونهم متزوجين، فأنا لا أفهمهم. فللقيام بعمل ما، يجب القيام به بحمية وإخلاص، وبالنسبة لي، فالزواج هو قضيتي وعملي، وتلك الاهتمامات والإجراءات البسيطة التي تتأثر بها النساء كثيرا، والتي يسرع معظم الرجال بإهمالها والتخلي عنها، لا تكلفني أنا أي جهد. وكما قلت لك للتو، فإن هذه الاهتمامات البسيطة هي التي تجعل المرأة تتعلق بالرجل: وأنا لم أخرج أبدا من المنزل ولم أرجع إليه دون أن أقبل زوجتي، ونادرا ما كان يفوتني أن أحضر لها بعض السكاكر أو بعض

الزهور. وكنت لا ألقي بالا للمصروف والنفقات.

- على أية حال، كان ذلك على حساب الزوجة ومن نقودها.

- وماذا بعد؟ ليست النقود هي التي تعطي القيمة للهدية، إنها النية التي تفعل ذلك، كلا، لا أريد أن أمتدح نفسي، ولكن لدي صفة هي لي: (فأنا زوج مثالي).

وتابعت تقليب الصفحات، ثم قلت له: أتدري ما الذي يدهشني؟ جميع هؤلاء النسوة، وضعهن مناسب، عاقلات، رزينات، نساء هادئات ومهذبات، ومع ذلك فقد وافقن على الزواج بك بتسرع، دون أن يحصلن على أية معلومات عنك. فوضع يده على ذراعي وقال:

(آه! هذا هو الأمر الذي لم تفهمه، يا سيدي، فالنساء لا يفكرن إلا بالزواج: شابات أو مسنات، قصيرات أو طويلات، شقراوات أم سمراوات، جميعهن لديهن هذا القاسم المشترك: الهوس بالزواج، وكنت أعقد قراني عليهن في الكنيسة، إذ إن المرأة لا تشعر بالطمأنينة إلا إذا وقفت أمام الكاهن. وأنت تقول إني لست بجمال أدونيس، ليكن هذا! فأنا لم أدع ذلك ولم أطمح إليه في يوم من الأيام، ولكن حتى لو كنت بساق واحدة، أو كنت أحدب كدمية المهرج، فبإمكاني أن أجد نساء بقدر ما أريد، مستعدات للسماح لي بوضع محبس الزواج في إصبعهن، فليس الرجل الذي هو يعنيهم، إنه الزواج، فهو عندهن كالمرض، بل كالوباء الساري. ولم يكن بينهن من لم تكن على استعداد للموافقة على الزواج بي بعد المقابلة الثانية. وكل ما هنالك، أني كنت أراعي التأني وعدم التسرع. وعندما اكتشف الأمر وتبين كل شيء، فأية موسيقى، وأية أنغام ترددت لأني تزوجت إحدى عشرة مرة! إحدى عشرة مرة!. إنها لا شيء، إنها حتى لا تشكل دزينة. ولو أني رغبت بذلك لاستطعت أن أتزوج ثلاثين مرة. وأقسم لك يا سيدي، إني عندما أفكر بكل الفرص التي أتيحت لي، أقف مشدوها حيال قناعتي واعتدالي.

- لك مني التحية والثناء، فقد أبدعت في سرد هذه القصة.

- نعم، إنه (وارين هاستنغ) هو الذي قال ذلك. أليس هذا صحيحا؟ وهذه الجملة أثارت انتباهي عندما قرأتها لأول مرة، فهي تناسبني تماما.

- ألم يبد لك فيما مضى، أمرا رتيبا ومملا، هذا الدور الدائم للراغب بالزواج.

- إيه! أعتقد يا سيدي أن لدي حسا منطقيا، وإنها لمتعة وأي متعة بالنسبة لي عندما يتبين لي أن الآثار والنتائج نفسها، تحدثها الأسباب نفسها. فمثلا، مع امرأة لم يسبق لها أن تزوجت أتظاهر أني أرمل، وأجعلها تعتبرني دائما أني ذلك الرجل الذي فقد زوجته، فيكون لهذا فعل السحر عليها. أما الفتاة فتحب كثيرا أن يكون الرجل مدربا، يتمتع بالخبرة والمعرفة. ولكني بتعاملي مع الأرملة، أقول إني عازب: إذ إن الأرملة تخشى أن يكون الرجل الذي سبق له أن تزوج يعرف من الأمور أكثر مما ينبغي.

وأعدت له قصاصاته، فطواها بعناية ووضعها في محفظته القديمة.

(أنت لا تعلم، يا سيدي، شيئا عن فداحة الظلم الذي ألحقوه بي. لقد رويت لك كيف عاملوني: سم يفتك بالمجتمع، شقي بائس لا تساوره رحمة على أحد، وغد حقيقي. إيه! انظر إلي لأسألك: هل أبدو بتلك الصفات حقا؟ أنت الذي تمارس مهنة تقييم الطباع والأخلاق والحكم عليها، لم أخف عنك شيئا، وأنت تعرفني: هل أنا رجل شرير؟

فأجبته بروية بدت لي تتسم بكثير من الحس السليم:

- أنا لا أعرفك كثيرا.

- إني لأتساءل فيما إذا كان القاضي، وأتساءل فيما إذا كانت هيئة المحلفين، أو فيما إذا كان الجمهور، أو أي أحد من هؤلاء قد قدر وجهة نظري أنا. لقد دخلت إلى المحكمة عبر صياح الاستنكار

والسخرية، وقامت الشرطة بحمايتي من غضب الجماهير. أولم يفكر أحد إذن بما كنت قد فعلت لتلك النسوة.؟

- لقد أخذت منهن نقودهن!

- بالتأكيد لقد فعلت ذلك، فكان لابد لي من أن أعيش، على أية حال، كما يعيش جميع الناس. ولكن ماذا أعطيتهن مقابل تلك النقود؟

كان هذا أيضا سؤالا دقيقا وحساسا، ورغم نظراته المتسائلة، فقد لزمت الصمت. ومع ذلك، فبماذا أجيب؟

كانت لهجة صوته تتصاعد، وهو يتكلم بحماسة واضحة:

(سأقول لك أنا ماذا أعطيتهن مقابل تلك النقود: الحلم! بل كل ما يحلمن به. انظر إلى هذا المكان -وأشار بحركة واسعة من يده إلى البحر وإلى الأفق- يوجد في إنكلترا مائة مكان مثله. تأمل هذا البحر وهذه السماء، وانظر إلى تلك الفنادق، وإلى ذلك المكسر، وإلى الشاطئ الرملي. ألا ينقبض صدرك عندما تنظر إليها؟ إنه الموت التام. وبالنسبة لك أنت الذي تأتي لتمضي هنا أسبوعا أو أسبوعين، عندما تكون متعبا، ربما بدا لك كل هذا مقبولا، ولكن فكر بكل تلك النسوة اللواتي يعشن هنا السنة بكاملها، من أول يوم فيها إلى آخر يوم، دون أن يشعرن بأي أمل يمكن أن يراودهن. ويكدن لا يعرفن أحدا. لديهن ما يضمن لهن العيش، وهذا كل شيء. وإني لأتساءل فيما إذا كنت تعلم إلى أي حد حياتهن مرعبة: إنها تشبه منتزها طويلا محاطا بجدران من الإسمنت، مستقيما، ومسطحا، يمتد من شاطئ رملي إلى شاطئ آخر. حتى فصل الصيف، أي موسم الاصطياف بحركته وبهجته، لا يأتيهن بشيء. فقد كان من الممكن ألا يتواجدن هنا، إذ إن وجودهن وعدمه سيان.

عند ذلك أصل أنا. فأرجو الانتباه! إني لا أتقدم من أية امرأة طالبا يدها، إذا لم يكن يسرها أن يقال لها أنها لم تتجاوز الخامسة والثلاثين من عمرها. وأنا أجلب لهن الحب. والكثيرات بينهن لم يسبق

لهن أن عرفن شيئا عن مرافقة الزوج وعن الحياة الزوجية، ولا عن الجلوس على أحد المقاعد في الظلام، وذراع تطوق لهن خصورهن. فأنا، بالنسبة لهن، أمثل المجهول، التأثر والانفعال. وأعيد لهن ثقتهن بأنفسهن. لقد كن في مكان إقامة المنبوذات، وأنا أحضر لأخرجهن منه. شعاع ضئيل من أشعة الشمس يغمر تلك النماذج التي تمثل الحياة البائسة. هذا ما مثلته أنا، بالنسبة لهن. فكيف تريد منهن أن يقاومن، وألا يرغبن بأن أعود إليهن؟ والوحيدة التي خانتني هي تلك التي كانت تعمل بالخياطة في أحد محلات الأزياء، فقد ادعت أنها أرملة، ولكني أعتقد أنها لم يسبق لها أن تزوجت أبدا. ويقال عني أني دنيء سافل: لقد جلبت السعادة والشاعرية إلى إحدى عشرة حياة، لم يكن لديها أية فرصة للحصول عليها أو معرفتها. ويقولون عني إني وغد وبائس شرير.. والحقيقة هي أني إنساني، محب لبني البشر. خمس سنوات، لقد سجنت خمس سنوات. وكان عليهم بدلا من ذلك أن يمنحوني وسام المجتمع الملكي، لمحبة البشر.

وأخرج علبة سجائر (الجولدفلاك) الفارغة التي يحملها وتأملها وهو يهز رأسه بأسى. فقدمت له علبتي. فتناول سيجارة دون أن يتفوه بكلمة: لم يكن أمامي سوى رجل طيب يحاول التغلب على تأثره وانفعاله.

(وعلى ماذا حصلت في نهاية الأمر؟ على المأوى ولقمة العيش وعلى ما أحتاجه لشراء السجائر. ولكني لم أستطع أبدا أن أدخر (بنسا) واحدا، والدليل على ذلك أني وأنا في سني الحالية، ليس في جيبي نصف (كورون)..)

وألقى نظرة معبرة نحوي، وأضاف:

(إنها مذلة كبيرة بالنسبة لي. وأنا أجد نفسي في هذا الوضع. لقد كنت أدفع نقدا، وأفي ديوني كاملة. وأتساءل الآن، يا سيدي، فيما إذا كنت تستطيع إعطائي شيئا ما. إنه أمر صعب وشاق أن يضطر

المرء إلى مد يده والطلب من الآخرين، ولكن الحقيقة هي أنك إذا أقرضتني جنيها، فإنك تؤدي لي خدمة قيمة)

لقد أتاح لي هذا الرجل المزواج، تسلية تساوي جنيها، بالحقيقة، لذلك فتحت محفظة نقودي، وقلت له:

(بكل سرور..)

فأخذ يتأمل أوراقي النقدية، ثم قال:

(ألا يمكنك إعطائي جنيهين؟

- أعتقد أني أستطيع أن أفعل ذلك.

وناولته جنيهين، فأخذهما وهو يتنهد. ثم قال:

(أنت لا تتصور حال المرء الذي تعود على الرفاهية، عندما يصبح لا يعرف أين سيقضي ليلته.)

- أرجو أن توضح لي أمرا، ولا أود أن أبدو وقحا، في نظرك، ولكن يبدو أن النساء، بصورة عامة، يرون أن القول المأثور: (أن تعطي، فذلك أفضل من أن تتلقى). وقد وضع ليتبعه الرجال. فكيف، ويا للغرابة، استطعت أن تقنع هؤلاء المسكينات الطيبات، وهن دون شك حريصات ومقتصدات، على أن يأتمنوك على مدخراتهن العزيزة ويسلمنك إياها؟)

فأنارت جميع ملامحه ابتسامة عريضة:

(إيه! حسن يا سيدي، أنت تعرف ولاشك ماذا قال شكسبير عن الطمع: (إنه يتجاوز الهدف). وهكذا قل لإحدى النساء إنها إذا سلمتك رأسمالها، فإنك ستضاعفه لها خلال ستة أشهر، فلن ترى عند ذلك، مهما أسرعت، أنها أعطتك النقود بما يكفي من السرعة. إنه الجشع، وليس شيء آخر سواه.

شعرت بتناقض مثير، كمن يتناول مشروبا ساخنا بعد مثلوجة من (البوظة)، عندما التقيت ثانية، بعد أن فارقت ذلك الوغد المسلي والممتع، بالسيد والسيدة (سان كلير) والآنسة (بوركيستر) الذين يمثلون الكرامة والشرف، ويذكرون المرء، بعصر التنانير الواسعة والقاسية القماش، وبعطور اللاوند والخزامى. فقد أصبحت الآن أقضي أمسياتي معهم. وحالما تغادر السيدات مائدة العشاء، كان السيد (سان كلير) يرسل لي تحياته، طالبا مني الحضور لتناول كأس (بورتو) معه. ثم نذهب سوية لنتناول قهوتنا في الصالون. ولم يكن السيد (سان كلير) ممن يزدرون بالكونياك المعتق. وتلك الساعة التي تبدو عديمة الطعم بشكل ممتع، والتي كنت أمضيها مع هذه الأسرة، كان لها علي تأثير عجيب. ويبدو أن مديرة الفندق حدثتهم عني، وقالت لهم إني أكتب بعض المسرحيات. وقد روى لي السيد (سان كلير) عبر أحاديثه، الطرفة التالية:

كنا نذهب في معظم الأحيان لمشاهدة المسرحيات، عندما كان (السير هنري إرفنغ) يعمل في مسرح الليسيوم)، وقد سعدت ذات يوم بمقابلته، كان (السير إيفيرارد ميلي) قد دعاني لتناول العشاء في نادي (غاريك) وقدمني للسير (إرفنغ) الذي لم يكن حتى ذلك الحين سوى السيد (إرفنغ).

فقالت له زوجته:

ارو له يا (إيدوين) ماذا قال لك آنذاك.

فاتخذ السيد (سان كلير) وضعا مسرحيا، وقام بتقليد ناجح لـ(هنري إرفنغ):

(لديك بنية ومظهر الممثل يا سيد (سان كلير) إذا كان المسرح يغريك، احضر لمقابلتي وسأعهد إليك بأحد الأدوار)

ثم عاد السيد (سان كلير) لوضعه الطبيعي، وقال:

هذا ما قاله لي (هنري إرفنغ) وهذا كاف ليخلب لب أي شاب، ويجعله يتبنى رأيه.

فقلت معلقا:

- ولكنه لم يخلب لبك، ولم يجعلك تتبنى رأيه على ما يبدو.

- أعترف أني لو كنت في وضع مختلف، لأغراني العرض، ولكن كان علي أن أفكر بأسرتي. فوالدي كان سيحزن كثيرا إن لم أمارس الأعمال التجارية.

- وأية تجارة تمارس؟

- أمارس تجارة الشاي، يا سيدي، وشركتي هي الأقدم في المدينة. وقد أمضيت أربعين سنة من حياتي أكافح بكل قواي ميل أبناء بلادنا للتخلي عن الشاي الصيني الطيب الذي كان يحتسيه الناس في فترة شبابي، والاتجاه إلى احتساء الشاي (السيلاني).

آه! إنه هو الذي كرس حياته لإقناع الجمهور بشراء شيء لم يكن يريد سوى شراء الشيء الذي يرغب فيه ويشتهيه!

فتدخلت السيدة (سان كلير) قائلة:

(ولكن زوجي في فترة شبابه، كان يمثل، كهاو، كثيرا من الأدوار، وبنجاح ملحوظ.)

- بعض الأدوار في مسرحيات شكسبير، التي تعرفها، وأحيانا في مسرحية: (مدرسة الفضائح) ولم أكن أقبل أبدا الظهور في أدوار سخيفة. ولكن كل هذا أصبح من ذكريات الماضي. لقد كانت لدي موهبة التمثيل، وربما كان من المؤسف أني لم أستغلها، ولكن فقد فات الأوان الآن. وعندما نقيم حفلا للعشاء، يحدث لي أن أستجيب لإلحاح السيدات وألقي (مونولوج): مناجاة (هاملت) المطولة، لنفسه. ولكني لا أزيد على ذلك شيئا.

(أوه! أوه! أوه! لقد خلب لبي ذكر حفلات العشاء تلك، وأخذت

أتساءل فيما إذا كان سيسعدني الحظ فأدعى إليها.)

- كنت كثير اللهو، شديد النشاط في شبابي، وقد تعرفت آنذاك على كثيرين من الفنانين والأدباء، مثل (ويلكي كولينس)[1] والبعض ممل كانوا يكتبون في الصحف. وقد رسم (واتس) (Watts) صورة زوجتي، واشتريت إحدى لوحات (ميلي) (Millais) كما عاشرت أيضا بعض الرسامين الذين كانوا يرسمون حسب الطريقة التي سبقت عصر (رافائيل) الرسام المشهور.

- هل لديك لوحة، من أعمال (روسيتي) (Rossetti)[2]

- كلا، إني معجب بموهبته، ولكني لا أستطيع تقبل حياته الخاصة، وأنا لا أشتري لوحة لأي فنان لا أراه أهلا لتناول العشاء في منزلي.

كنت شارد الذهن، عندما ألقت الآنسة (بوركيستير) نظرة على ساعتها، وقالت: (ألن تقرأ لنا شيئا هذا المساء، يا عمي (إيدوين)؟

وقد روى لي السيد (سان كلير) ونحن نحتسي (البورتو) قصة الآنسة (بوركستير) المحزنة: كانت مخطوبة لأحد أقارب السيد (سان كلير) وهو قاض، عندما اكتشفوا أنه قد أغوى ابنة الغسالة التي تعمل في منزلهم.

وقال السيد (سان كلير): إنه أمر فظيع، وفظيع جدا. فاتخذت

---

[1] (Wilkkie Collins) (١٨٢٤- ١٨٨٩) روائي بريطاني: رواياته التي تثير التوتر والترقب، كرواية: (حجر القمر) (Pierre de Lune) مثلا، جعلت منه أحد رواد الرواية البوليسية.

[2] (Dante Gabriel Ressetti) (١٨٢٨- ١٨٨٢): رسام وشاعر بريطاني من أب إيطالي، أحد الموجهين لحركة الرسامين على طريقة ما قبل (رافائيل) استلهم مواضيعه من أساطير القرون الوسطى ومن الشعر الإنكليزي والإيطالي القديم. (المترجم).

ابنة أخي، بالطبع القرار الوحيد الذي يمكن أن تتخذه: فقد أرسلت له محبس الخطوبة، رسائله وصورته، وأخبرته أنها لن تصبح زوجته أبدا، وتوسلت إليه أن يتزوج تلك الفتاة، واعدة بأن تكون أختا لها. وقد تحطم قلبها بسبب هذه الحادثة. ومنذ ذلك الحين، لم تنظر إلى أي رجل.

- وهو هل تزوج ابنة الغسالة؟

فهز السيد (سان كلير) رأسه وتنهد، ثم قال:

- كلا، لقد خيب أملنا كثيرا، وحزنت زوجتي أشد الحزن، وهي ترى أحد أقاربها يتنكر بهذا الشكل لأبسط قواعد الشرف. وبعد مرور بعض الوقت علمنا بأنه خطب فتاة، من أسرة محترمة جدا، وكانت بائنة هذه الفتاة عشرة آلاف جنيه. فرأيت أن من واجبي أن أكتب للأب لأشرح له ما حدث، فرد على رسالتي بطريقة فظة، تتسم بالتعالي، قائلا أنه يفضل أن يكون لصهره خليلة قبل الزواج، لا بعده.

- وماذا حصل بعد ذلك.

- لقد تزوجا، واليوم أصبح قريبنا قاضيا في المحكمة العليا، وأصبحت زوجته إحدى سيدات الطبقة الراقية، التي تخاطب بلقب: (Mylady). ومع ذلك، فإننا لم نوافق إطلاقا على استقبالهما في منزلنا. وعندما رقي، ومنح لقب (Sir) اقترحت ابنة أخي أن ندعوهما لتناول طعام العشاء، ولكن زوجتي صرحت بأنه لن يدنس مطلقا عتبة باب منزلنا، وأنا أيدتها في هذا القرار.

- وابنة الغسالة؟

- تزوجت، من أحد شباب طبقتها، وهي تدير الآن مقهى في حي (كنتربري). وابنة أخي التي تملك ثروة صغيرة ساعدتها كثيرا، وهي عرابة لابنها البكر.

مسكينة، الآنسة (بوركيستير)! لقد ضحت بنفسها على مذبح

الخلق (الفيكتوري) وأخشى أن يكون شعورها بأنها تصرفت بنبل وشهامة، هو مكافأتها الوحيدة.

وقلت:

(إن الآنسة (بوركيستير) جميلة جدا، وعندما كانت في سن الشباب، لابد أنها كانت فاتنة ورائعة الجمال، فلماذا لم تتزوج شخصا آخر؟)

- لقد كانت بالفعل تعتبر رائعة الجمال. وكان الرسام (ألما تاديما) معجبا جدا بها لدرجة أنه طلب منها أن تتخذ وضعية النموذج في رسمه لإحدى لوحاته، ولكننا، بالطبع،لم نسمح بذلك.

كانت لهجة السيد (سان كلير) تدل على أن ذلك الطلب قد جرح لديه شعور الحشمة واللياقة. وتابع حديثه، قائلا:

كلا، إن الآنسة (بوركيستير) لم تهتم أو تفكر إلا بقريبها، خطيبها السابق.. ومع ذلك فهي لا تتحدث عنه أبدا، وقد مضى على انفصالهما ثلاثون عاما، وأنا متأكد أنها ما تزال تحبه. إنها امرأة بالمعنى الحقيقي للكلمة، يا سيدي، إنها تمثل الحياة، والحب، وإذا كنت أشعر أحيانا بالأسف لكونها حرمت من مباهج الزواج والأمومة، فإني أجد نفسي مضطرا للإعجاب بوفائها وإخلاصها.

ولكن (كثيرا ما تتغير المرأة..) نعم، يا عم (إيدوين) وأنت كنت تعرف ابنة أخيك منذ سنوات عديدة، لأنك بعد وفاة أمها بسبب مرض ألم بها، آويتها، وهي لا تزال طفلة، في منزلك الأنيق الكائن في ميدان (لينستير). ولكن يا عم (إيدوين) ما الذي كنت تعرفه بالحقيقة عن (إيليانور)؟

بعد أن روى لي السيد (سان كلير) قصة الآنسة (بوركيستير) المؤثرة، بيومين، وجدت مديرة الفندق، عند عودتي من ملعب (الغولف) في حالة من الذعر الشديد:

(السيد سان كلير يرسل لك تحياته ويرجوك أن تصعد في الحال إلى الغرفة رقم سبعة وعشرين)

- أنا ذاهب إلى هناك حالا، ولكن ماذا حدث؟

- إنها كارثة.. سيحدثونك عنها.

قرعت الباب. فذكرتني لهجة السيد (سان كلير) عندما ردد: (ادخل، ادخل) أنه كان قد مثل أدوار بعض شخصيات مسرحيات شكسبير، عندما كان عضوا في أفضل فريق للممثلين الهواة، في لندن. كانت السيدة (سان كلير) مستلقية على الديوان وإلى جانبها منديل مبلل بالكولونيا، وفي يدها قارورة أملاح. والسيد (سان كلير) كان واقفا أمام المدفأة، كما لو أنه يريد منع الآخرين من الاستفادة منها:

- أعتذر عن دعوتي إياك بهذه الطريقة الفظة، ولكننا نواجه مصيبة كبيرة، وفكرنا أنك ربما تستطيع إلقاء بعض الضوء على ما حدث.

كان بادي الاضطراب، فسألته:

- وماذا حدث؟

- لقد هربت ابنة أخينا. ففي الصباح أوفدت من قال لزوجتي إنها مصابة بصداع شديد. وعندما تعاني من هذا الألم، نتركها لوحدها، ولم تدخل زوجتي إلى غرفتها إلا بعد الظهر، لكي تتفقدها وترى إن كانت بحاجة لشيء: كانت الغرفة خالية، والحقيبة جاهزة، ولم يكن هنالك شيء مما تملك من نقود ومجوهرات، وعلى المخدة، وجدت رسالة، تخبرنا فيها عن عملها الطائش.

فقلت:

- إني شديد الأسف، ولكني لا أدري ما الذي أستطيع عمله.

- لدينا انطباع بأنك الرجل الوحيد الذي كانت على علاقة به في (إيلسوم).

فأدركت ما يدور في خلده:

- إنك مع ذلك، لن تظن بأني قد اختطفتها.. فأنا رجل متزوج.

- واضح تماما إنك لست معها، ولكن، للوهلة الأولى، فكرنا أنه ربما.. ولكن إذا لم تكن أنت، فمن هو يا ترى..؟

- هذا، لا أعرف عنه شيئا على الإطلاق.

فقالت السيدة (سان كلير) وهي تتنهد مستلقية على ديوانها:

- أطلعه على الرسالة يا (إيدوين).

- لا تتحركي، يا (جيرترود) وفكري بآلامك وبمرض (القطان) الذي تعانين منه.

الآنسة (بوركيستير) تعاني من الصداع والسيدة (سان كلير) مصابة بالقطان. والسيد (سان كلير) مم يشكو؟ إني أراهن على خمسة مقابل واحد أنه يشكو من ألم المفاصل (النقرس).

وناولني الرسالة، فقرأتها بإشفاق وتعاطف:

(عمي العزيز (إيدوين)، خالتي العزيزة (جيرترود) عندما تتلقيان رسالتي أكون قد أصبحت في مكان بعيد. وأنا أتزوج صباح اليوم رجلا عزيزا جدا علي. أعرف أني أسأت التصرف بهربي بهذا الشكل، ولكني خشيت بأن تعارضا زواجي، ولأنه لم يكن هنالك شيء يجعلني أغير رأيي، فقد رأيت أنه من الأفضل لنا جميعا ألا أحدثكما عن ذلك، وخطيبي متحفظ جدا. إذ إن إقامته لفترة طويلة في المناطق الاستوائية جعلته متكتما، شديد الحساسية، وهو يصر على أن يعقد قراننا سرا ودون شهود، وعندما تعلمان كم أنا سعيدة، فإني آمل أن تصفحوا عن خطيئتي. وهل أستطيع أن أطلب منكما التكرم بإرسال حقيبتي إلى مستودع الأمانات في محطة فكتوريا؟ بكل احترام، ابنة أخيكم المحبة (إيليانور)..).

وقال السيد (سان كلير) عندما أعدت له الرسالة:

لن أصفح عنها أبدا، ولن تدنس بعد الآن، على الإطلاق، عتبة باب منزلنا. (جيرترود) إني أمنعك من ذكر اسم (إيليانور) في حضوري.

فأخذت السيدة (سان كلير) تبكي بهدوء.

عند ذلك قلت: ألست قاسيا جدا؟ وما المانع من أن تتزوج الآنسة (بوركيستير)؟

- وهي في هذه السن! إنه تصرف سخيف ومضحك. وسنصبح سخرية لجميع سكان حي (ميدان لينستير). أتعرف كم هو عمرها؟ لقد بلغت الحادية والخمسين.

فقالت السيدة (سان كلير) مصححة خطأه، وهي تتنحب:

- بل لقد أصبح عمرها أربع وخمسين سنة.

- لقد اعتنينا بها، عنايتنا بعيوننا. وكانت بمثابة ابنتنا الوحيدة. وظلت هكذا بعد أن تقدمت بها السن. وأرى أن هذه الرغبة المفاجئة بالزواج غير لائقة أبدا.

فاعترضت السيدة (سان كلير) قائلة:

- ذلك لأننا كنا نراها دائما صغيرة، وننظر إليها ونعتبرها على هذا الأساس.

- وهذا الشخص الذي تتزوجه، من هو؟ إنها، حتى لم تقل لنا اسمه. وأنا أخشى أسوأ ما في الأمر.

وفجأة لمعت في ذهني فكرة، ففي صباح ذلك اليوم، بعد تناولي وجبة الإفطار، التقيت، مصادفة، بـ(مورتيمر إيليس) عند بائع التبغ. ولم أكن قد رأيته منذ عدة أيام. وقلت له:

(إنك متأنق جدا.)

كان حذاؤه الذي جدد نعله، بادي اللمعان، وقبعته التي نظفت بدت جديدة، وكان يرتدي ياقة نظيفة وقفازا جديدا: أي كل ما يمكن عمله بمبلغ (جنيهين) على أية حال!.

وشرح لي الوضع قائلا:

(إني مسافر صباح اليوم إلى لندن من أجل بعض الأعمال)

فانحنيت، وخرجت من المحل.

وتذكرت أيضا أني بينما كنت أقوم بنزهة، قبل ذلك بخمسة عشر يوما، التقيت بالآنسة (بوركيستير)، وبعد مسافة قصيرة التقيت أيضا بـ(مورتيمر إيليس) فهل يمكن أنهما كانا يسيران سوية، وأنه عندما لمحني ابتعد عنها؟

فبادرت السيد (سان كلير) بالسؤال:

- ألم تقل لي إن الآنسة (بوركيستير) تملك ثروة خاصة بها؟

- إنه مبلغ زهيد، لا يزيد عن ثلاثة آلاف جنيه.

قسما إن الأمر في غاية الوضوح. وأخذت أنظر إليهما وقد استولى علي الذهول.

وفجأة نهضت السيدة (سان كلير) وصاحت بأعلى صوتها:

- إيدوين، إيدوين، وماذا يحدث إذا لم يتزوجها؟!

عندما سمع السيد (سان كلير) هذه الكلمات، وضع يده على جبينه، وانتابه ضعف شديد، فانهار على أحد الأرائك، وتمتم شاكيا:

- عند ذلك يمكن أن أموت بسبب هذا العار.

فقلت: لا تقلقا، إنه بالتأكيد سيتزوجها، فهو لا يفوته ذلك أبدا.

ولم يصغيا لي، فلاشك أنهما اعتقدا أني أهذي، وقد فقدت صوابي. بينما كنت آنذاك مقتنعا، بعد أن بدا لي الأمر واضحا:

لقد حقق (مورتيمر إيليس) ما يطمح إليه: فالآنسة (بوركيستير) تكمل الدزينة.

الهوس القاتل

كنت على علاقة قديمة من زمن طويل مع (آل بلاند) دون أن أعلم شيئا عن قرابتهم بـ(فيردي ربنشتاين) وعندما تعرفت عليه كان عمره يناهز الخمسين سنة، وفي الفترة التي وقعت فيها الأحداث التي سأرويها، لابد أنه كان قد تجاوز السبعين من العمر. ولم يكن قد تغير كثيرا. كان شعره القاسي والأجعد قد أصبح ناصع البياض، ولكنه ظل محافظا على لياقته البدنية، وقامته المستقيمة، ومن يراه بهذا الشكل، يدرك في الحال سبب شهرته القديمة كـ(دون جوان) زير نساء. كان لا يزال لديه مظهره الجانبي الجميل الذي يتصف به الساميون، وظلت عيناه الجذابتان تحتفظان بسحرهما الذي كان يفتك فتكا ذريعا بقلوب الجنس اللطيف. كان طويلا ممشوق القامة، أشقر البشرة، يرتدي ملابسه بأناقة وعناية، ويبدو وهو في هذا الهندام من أكثر الرجال الذين عرفتهم في حياتي، سحرا وجاذبية. كان يزين قميصه بلآلئ كبيرة سوداء، ويضع في أصابعه خواتم من البلاتين مرصعة بالياقوت الأزرق. ربما كانت زينة هذا الهندام تدل بعض الشيء على حب الظهور ولكنها كانت تنسجم مع بنيته الجسدية. وكثيرا ما كان يقول:

(إني شرقي -على أية حال- وهذه الأبهة الغريبة لا تسيء إلى مظهري).

وكان مجرى حياة رجل كـ(فريدي ربنشتاين) يمكن أن يصبح موضوعا رائعا للكاتب الذي يكتب سيرة حياة الناس. إذ ان حياته من

حيث نوعيتها كانت بمثابة عمل فني. أعجوبة مصغرة كإحدى تلك المنمنمات الفارسية التي تكمن أهميتها في دقة وروعة تفاصيلها ومكوناتها الصغيرة. ولسوء الحظ فإن الوثائق المتوفرة لكتابة سيرة حياته قليلة جدا: بعض الرسائل -ومن المحتمل أن يكون معظمها قد تعرض للتلف- وذكريات أناس، أصبحوا اليوم على حافة القبر. ولو استطاع أن يتذكر كل شيء، فإنه لن يكتب مذكراته أبدا، لأن الماضي، بالنسبة له، لا يمثل سوى متع ومسرات حميمية، متتالية. وهو يلتزم بالتكتم الشديد حيال هذا الجانب من حياته.

ولم يقدم (فريدي) المودة والتكريم إلا لسيدات المجتمع، ولم تكن له علاقات إلا مع أرقى الأسر وأعرقها. فقد ولد في إفريقيا الجنوبية، وأتى إلى إنكلترا وهو في العشرين من عمره، فاشتغل لبعض الوقت في سوق الأوراق المالية (البورصة) ولكنه بعد وفاة والده ورث ثروة طائلة، وانسحب من العمل بعد ذلك لحياة رجل المجتمع، الذي لا يشغله سوى اللهو والتسلية. وفي تلك الفترة، كان المجتمع الإنكليزي لا يزال منغلقا على نفسه، واليهودي لا يستطيع اقتحام أبوابه بسهولة: ولكن تلك الأبواب كانت تنفتح أمام (فريدي) وكأن ساحرا قد فتحها له: فهو غني، جميل، ورياضي، لذلك كان يبدو رفيقا محببا للجميع. كان يملك في شارع (كورون) (Curron) قصرا مفروشا على الطراز الفرنسي القديم، ولديه عربة مقفلة، ورئيس خدمه باريسي. لكم كان مفيدا وهاما تفحص بدايات حياته المدهشة، ولكن تلك البدايات ضاعت في غياهب الزمن. وعندما عرفته كان يعتبر من زمن طويل، أحد أكثر الرجال شهرة وخطورة، في لندن.

وقد تعرفت عليه في منطقة (نورفولك) عند جماعة من أكثر الناس ظرفا وأناقة: فباعتباري روائيا شابا، دعتني ربة البيت التي كانت مولعة بالأدب. كنت منكمشا، أشعر بالخجل. كان هنالك ستة

عشر مدعوا، بينهم بعض الوزراء والأعيان، وسيدات مسنات، وكانت أحاديثهم تدور حول أمور وقضايا، لا تعنيني ولا أعرف شيئا عنها. وقد عاملوني بلا مبالاة تتسم بالتهذيب. وشعرت أني دخيل، لا أقدم أية مشاركة أو أية فائدة لهؤلاء المدعوين. ولكن (فريدي) أنقذني مما كنت أعاني من ضيق: لقد أتى وجلس بقربي ولم يفارقني بعد ذلك. وعندما عرف أني كاتب، أخذ يشرح لي آراءه المتعلقة بالمسرحية والرواية. ورويت له أني أمضيت فترة طويلة من حياتي في أوروبا. فأبدى لي عند ذلك بعض الأفكار الظريفة والمسلية عن فرنسا، ألمانيا وإسبانيا. وقد راودني شعور مفر بأنه يتجنب الآخرين وينفرد بي. كانت تعليقاته وأحاديثه الفكرية والثقافية، تجعل ثرثرة المدعوين الآخرين المملة، عن السياسة، وعن فضيحة طلاق ما، وغير ذلك، تبدو فارغة لا طعم لها.

ولكن إذا كان (فريدي) يشعر في قرارة نفسه بشيء من الاحتقار لهذه الجماعة المكونة من علية القوم، فإني بالتأكيد كنت الوحيد الذي يتيح لي تبين ذلك. ألا ينبغي أن أرى في هذا الموقف تكريما ظريفا؟ كان يحب أن يمارس سحره وجاذبيته. ويبدو أن سروري الواضح كان يرضيه ويجعله يزهو بذلك، وإلا فلماذا كان يجامل إلى هذا الحد مؤلفا مجهولا إن لم يكن بدافع حبه للفن وللأدب؟

كنا كلانا، بالأساس غريبين عن هذا الوسط، أنا بسبب مهنتي، وهو بسبب أصله وعرقه، ولكني كنت أغبطه على مرحه وبحبوحة معيشته. كان الجميع ينادونه بـ(فيردي) وهو على الدوام يظل مبتهجا، رائق المزاج. حاضر النكتة والدعابة، سريع الرد والإجابة على أي سؤال أو استفسار، وجميع من كانوا في ذلك البيت يحبونه كثيرا: فهو يتمتع بفن الإضحاك، وبحس سليم يجعله يمتنع عن الكشف عن جهل الآخرين. والعطر الخفيف للحلم الشرقي الذي كان ينشره. يبدو أنه يجعل أولئك الناس يشعرون أنهم أكثر التصاقا بمزاياهم الإنكليزية.

وبوجوده بينهم لم يكن أحد منهم يخشى تلك الفترات من الصمت المقلق الذي يخيم أحيانا على الاجتماعات التي يعقدها الإنكليز، وعند أول بادرة لذلك الجو الذي يسوده البرود المزعج، يطرح (فيردي ربنشتاين) على الفور موضوعا يبعث الحرارة في الجو، ويوقظ الجميع من سباتهم العميق.

كان معينه من القصص اليهودية لا ينضب. فهو يستخدم لهجة (اليديش) العبرية، ويقلد بشكل متقن مواقف وحركات أبناء مذهبه: فيغوص رأسه في جسمه، وتصبح تعابيره تنم عن الحيلة والخداع، وصوته يتسم بالعذوبة والمداهنة: فلم يعد أمامنا سوى أحد (الخاخامين) أحد تجار الملابس والحاجيات القديمة، مندوب تجاري متجول، مرابي غني، أو أيضا إحدى (قوادات) فرنكفورت البدينات. وكان هذا يبز جميع المسرحيات الهزلية المضحكة. ولكنه لم يكن يخفي أصله، كان الجميع يضحكون ملء أفواههم وبكل جوارحهم. ومن جهتي، كنت أشعر ببعض الحرج وأنا أراه يسخر من بني جنسه. ولكن القصص اليهودية كانت هي اختصاصه، ونادرا ما التقيت به دون أن أسمعه يروي آخر قصة سمعها.

وطلب مني (فيردي) عنواني، وبعد بضعة أيام من عودتي إلى لندن، دعاني لتناول طعام العشاء. لم نكن سوى ستة: سيدة أمريكية متزوجة من أحد اللوردات، ورسام سويدي، إحدى الممثلات، وأحد مشاهير النقاد. كانت المشروبات والأطعمة كلها لذيذة وشهية، والحديث عذبا وجذابا.

وبعد العشاء جلس (فيردي) إلى البيانو، ولم يعزف سوى بعض

مقطوعات الفالس النمساوية -وكان هذا، اختصاصا آخر له كما علمت فيما بعد- وهذه الموسيقا الخفيفة والعاطفية كانت تبدو متفقة ومنسجمة مع أناقته الرصينة. كان يعزف دون أدنى جهد أو تكلف، بلمسات تتسم بالرقة والعذوبة، وكان يغني بصوت خافت. كان هذا أول عشاء، ثم تعددت بعد ذلك اللقاءات والدعوات. فقد اعتاد أن يدعوني مرتين أو ثلاث مرات كل سنة، وأخيرا أصبحت ألتقي به كثيرا في بيوت أخرى. كان وضعي ينمو ويتحسن في المجتمع، وربما كان وضعه قد أخذ ينحدر قليلا.

وقد حدث معي في الأيام الأخيرة أن التقيت به في اجتماعات كان يقبل فيها يهود آخرون، واعتقدت أني كنت ألمح في عينيه الغائرتين عند توقفهما على أبناء مذهبه ابتسامة ساخرة تنم عن ملاحظته لانحطاط وتدهور المجتمع الإنكليزي. كان البعض يعتبرونه مغرورا ومتعاليا، ولكني أعتقد أنهم مخطئون في ذلك، إذ إن الظروف هي التي أطلقته منذ مطلع شبابه في المحيط الأكثر انغلاقا. وكان شغفه بالفن صادقا وحقيقيا، وعلاقاته مع الفنانين كانت تبدو لي دائما في صالحه. وكان في هذا المجال، يتخلى عن تلك السخرية التي يبديها في حضور كبار شخصيات المجتمع، لكي يثبت للفنانين أنه لا يجهل قدرهم وأهميتهم. وكثيرا ما كان أصدقاؤه يستعينون بذوقه الحساس والسليم. وهو من بين الأوائل الذين قدروا المفروشات وقطع الأثاث القديمة حق قدرها. وفي القصور القديمة، أكثر من قطعة نادرة وقديمة أخرجت من مستودع المهملات، لتحتل موقعا مرموقا في الصالون. وكثيرا ما يحلو له أن يتجول في صالات البيع، وهو على استعداد دائم لتقديم المشورة لكبار السيدات الراغبات بشراء أشياء جميلة بشكل موفق وبأسعار مناسبة. وكان وهو الكريم والغني يبذل جهدا كبيرا ليدبر طلبا للحصول على لوحة لرسام ناشئ أعجبته موهبته، أو لكي يدخل لدى

أحد كبار الأثرياء، عازفاً موسيقياً بحاجة للعمل لكي يحصل على مكافأة ماديّة. ولكنه لم يكن يتوسّط إلاّ للموهوبين، ذوي القيمة العالية. ومع أنه يعامل الآخرين، ممّن لا يتمتّعون بأيّة موهبة، بمنتهى التهذيب، ولكنّه لم يكن يحرّك ساكناً لكي يساعدهم. وفي منزله، كانت الأمسيات الموسيقية -التي يقيمها لمدعوّين يختارهم بعناية- عبارة عن متعة كبيرة. ولم يكن قد تزوّج.

وكثيراً ما يقول: أنا رجل من هذا المجتمع، ويسعدني ألاّ أكون منحازاً لرأي معين، وألاّ يكون لديّ أحكام مسبقة على أي أمر، فجميع الأذواق والمشارب موجودة في الطبيعة. ولكن يستحيل عليّ إذا قرّرت الزواج، أن أتزوّج سوى امرأة يهوديّة. وليس هنالك أي سوء بأن يذهب أحدنا إلى (الأوبيرا) مرتدياً اللباس الرسمي (السموكنغ) ومع ذلك فإن هذا لم يخطر على بالي أبداً.

- إذن، لماذا لا تتزوّج امرأة إسرائيلية؟

لم أكن شاهداً على هذا الحديث، ولكنّ الشخص الذي تجرّأ على إلقاء هذا السؤال على (فيردي) رواه لي:

أوه! يا عزيزتي، إنّ نساءنا كثيرات التوالد، أتريدين أن ترينني وقد أثقلت الأرض وملأتها بصغير يدعى إسحاق، وبصغير آخر يدعى يعقوب، وبـ(روبيكا) صغيرة، وبـ(ليا) و(راشيل)؟

ولكنه كانت له جولات غرامية موفقة وسعيدة، ولا يزال سحر الماضي الرومانسي الحالم يعبق من حوله. ففي شبابه كان يبدو على الدوام، عاشقاً متيّماً، ولا تزال بعض السيدات المسنّات تتحدث عنه وعن إغرائه الذي لا يَقاوم، وإذا ذكرن، وهنّ يستعدن ذكرياتهنّ هذه أو تلك من النساء اللواتي خلبت لبّهن تماماً عيناه الجميلتان، كنت أشعر أنهنّ يضمرن كثيراً من المعذرة والتسامح لؤلئك الخاطئات السعيدات: (شاب على هذا القدر من الظرف والجمال! وكم من السيدات الأنيقات

المشهورات في تلك الفترة، والعديد من الأرامل اللواتي تراهنّ اليوم فخورات بأحفادهنّ الذين يدرسون في جامعة (إيتون) ومنصرفات حالياً إلى اللعب والخسارة في لعبة (البريدج) كنّ فيما مضى، قد احترقن بلهيب الحب الأثيم مع هذا اليهودي الجميل. وأشهر (غزوة) غرامية لـ(فيردي) هي دوقة (هيريفورد) الفاتنة التي تعتبر من أجمل وأروع النساء في إنكلترا، خلال أواخر حكم الملكة (فيكتوريا) وقد استمر هذا الحب عشرين سنة، ولاشكّ بأنّه بدأ خلال فترة من المداعبة والغزل، ولكن علاقتهما كانت متينة ورسمية تقريباً. ومع مرور الزمن استطاع، بحسّه السليم، أن يجعل من الخليلة المسنة، صديقة مخلصة، ومنذ زمن غير بعيد تناولت طعام الغداء معهما. كانت الدوقة امرأة طويلة وبدينة، يغطّي وجهها الخضاب ومواد التجميل. كنّا تواعدنا على اللقاء في فندق (الكارلتون) ووصل مضيفنا (فيردي) بعدنا ببضعة دقائق، واقترح علينا تناول الكوكتيل ولكنّ الدوقة قالت له، إننا سبق لنا أن تناولناه، فعلّق على ذلك قائلاً:

(أه! لقد تساءلت، لماذا يبدو بريق عيونكما أقوى من المعتاد) فبدا السرور على وجه تلك السيدة التي ذوى جمالها مع مرور السنين.

وكنت أشعر، أنا أيضاً، أنّ شبابي قد ولّى وأنّي قد تقدّمت بي السنّ، فمتى ينبغي أن أتحدث عن نفسي، كما أتحدث عن رجل عجوز؟ لقد ألّفت بعض الكتب. وكثيراً من الروايات والمسرحيات، وقمت بالعديد من الرحلات، وعرفت الحب وعذابه وخيباته، وعلى الدوام كنت ألتقي بـ(فيردي) في ذلك المجتمع الذي تعرفت عليه فيه. واندلعت الحرب، وقُتل ملايين الرجال وتغير وجه العالم. وكانت تلك فترة سيئة وقاسية بالنسبة (لفيردي). كان أكبر سنّاً من أن يتطوع في الجيش، منزعجاً من اسمه الألماني، ومع ذلك فقد عرف كيف يتحاشى الإهانة والإساءات، ولم يتخلّ عنه أصدقاؤه القدامى، فعاش في عزلة كريمة

ولائقة، دون أن تكون مزعجة أو قاسية. وبعد الحرب حاول بكل جرأة وشجاعة التكيّف قدر المستطاع مع الشروط والأوضاع الجديدة في الحياة. ففي ذلك الحين كان المجتمع قد أصبح مختلطاً، وجوّ الاجتماعات صاخباً، ولكنه نجح في جعل الآخرين يتقبّلونه. وكان كما في السابق، يروي القصص اليهوديّة، ويعزف بصورة جذّابة مقطوعات (الفالس) الراقصة التي ألّفها (ستراوس) ويتابع عمليات البيع. وأخذ يسدي النصيحة والمشورة لأغنياء الحرب من أجل مشترياتهم. وأقمت فترة طويلة في الخارج، ولكنّي في كل مرة أحضر فيها إلى لندن، كان شباب فيردي يحظى بإعجابي. ولم يستطع المرض أو التعب أن ينالاه بسوء. وظلّ كما في السابق يعتني ويتأنّق بملبسه، ويهتم بكل شيء، متوقّد الذهن أكثر من أي وقت مضى، وكان يَدعى إلى حفلات العشاء، ليس بدافع العادة، بل من أجل البهجة التي كان يضفيها على جو الحفلة. وكان لا يزال يقيم في قصره الكائن في شارع (كورزون) حفلات موسيقية لنخبة من الشخصيات التي كان يختارها بعناية.

وفي إحدى هذه الأمسيات، توصلت إلى الاكتشاف الذي دفعني إلى سرد هذه الذكريات.

كنّا نحضر حفل عشاء فخم في شارع (هيل) كانت السيدات قد غادرن القاعة. وكنت أجلس بجانب (فيردي) فقال لي:

(ستحضر (ليّاماكار) لتعزف في منزلي يوم الجمعة، ويسعدني أن تستطيع الحضور).

فأجبته: (إني آسف لعدم تمكّني من الحضور لأني على موعد مع (آل بلاند) وسأذهب لزيارتهم.

- أي (آل بلاند)؟

- أولئك الذين يقيمون في منطقة الـ(سوسيكس) في مكان يدعى (تيلبي).

- آه! أنت تعرفهم؟

ووجّه لي نظرات غريبة، ثم ابتسم.

فتساءلت: (ما الذي يجعله يهتم بذلك؟ وأجبته:

- أوه! نعم، ومنذ سنوات عديدة، إنها أسرة ظريفة.

- (أدولف) هو ابن أختي.

- السّير (أدولفوس)؟

- اسم أنيق جداً، أليس كذلك؟ ولكني لا أكتمك أنه بكل بساطة، يدعى (أدولف) وهذا هو اسمه الحقيقي.

- ولكنّ الجميع ينادونه (فريدّي)

- أعرف ذلك، وعلى ما سمعت، فإنّ (ميريام) زوجته لا تردّ إلاّ إذا نوديت باسم (موريل)

- كيف أصبح (فريدّي) ابن أختك؟

- لأنّ (حنّه ربنشتاين) أختي تزوجت (ألفونس بليكوجيل) الذي تحوّل في أواخر حياته إلى السّير (ألفريد بلاند) أول (بارون) بالاسم، و(أدولف) ابنهم الوحيد أصبح في نهاية الأمر (السّير أدولفوس)، ثاني بارون في العائلة.

- إذن، والدة (فريدّي بلاند) الليدي (بلاند) التي تقيم في (بورتلاندبلاس) هي أختك؟

- نعم، إنها أختي (حنّه) وهي كبرى أبناء الأسرة، وقد بلغت الثمانين من العمر، ولكنها تحتفظ بكامل وعيها وعقلها، وأقول هذا على مسؤوليتي فهي بالحقيقة امرأة عظيمة.

- لم يسبق لي أن التقيت بها

- لابدّ أنّ أصدقاءك (آل بلاند) لا يأسفون لهذا، فهي لم تتخلص من لكنتها الألمانية.

- إذن أنت لم تعد تراهم أبداً؟

- إننا لم نتكلم مع بعضنا منذ عشرين سنة: أنا مفرق في يهوديتي، وهم مفرقون في إنكليزيتهم. وابتسم، ثم أضاف:

(أني لا أستطيع أن أدخل إلى ذهني مثل هذه الأسماء: (فريدّي) و(موريل) وهم لا يحبون حكاياتي، ولذلك أصبح من الأفضل ألاّ نرى بعضنا. وفي زمن الحرب، عندما رفضت تغيير اسمي، كانت الطامة الكبرى، كان قد فات أوان ذلك، فماذا أعمل؟!

إذ إنّ أصدقائي لن يعتادوا أبداً على اعتباري والتفكير بي إلاّ على أساس أني _فيردي ربنشتاين) وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ فكرة تحولي إلى شخص آخر يدعى (سميث) أو (براون) أو (روبنسون) لم تكن تغريني أو تخطر على بالي.

كان في لهجته الخفيفة سخرية خفية، واعتقدت أني تبينت، هذه المرة أيضاً، أنه يكن في أعماق قلبه احتقاراً شديداً للمسيحيين الذين اكتسب ودهم.

وقلت له: إذن، فأنت لا تعرف الشابين؟

- كلاّ

- الكبير، كما تعلم يدعى (جورج) وأنا لا أعتقد أنه بمثل ذكاء الآخر: (هاري) ولكنه لطيف وجذاب، وأظنّ أنه سيعجبك.

- وأين هو الآن؟

- الواقع أنه على ما يبدو تصرف بشكل استدعى طرده من (أكسفورد) وأعتقد أنه اليوم في المنزل عند ذويه و(هاري) لا يزال في كلية (ايتون)

- لماذا لا تحضر لي (جورج) ذات يوم ليتناول معنا طعام الغداء؟

- سأقترح عليه ذلك وهذا سيسره بالتأكيد.

- إنه، على ما يبدو يزعج أهله ويسبب لهم المتاعب.

- علينا ألاّ نبالغ: فهو لم يشأ أن يدخل في الجيش، كما كان

يرغب أهله الذين كان (الحرس الملكي) حلمهم الذهبي.

وبدلاً من ذلك، ذهب إلى (أكسفورد) وهناك لم يعمل شيئاً وأنفق مبالغ طائلة، وقلب المدينة رأساً على عقب، وهذا أمر طبيعي تماماً.

- ولماذا طردوه؟

- لا أدري، ربما بسبب بعض الأخطاء البسيطة.

وفي تلك اللحظة نهض صاحب المنزل، فغادرنا القاعة وصعدنا إلى الصالون.

وعندما ودعني (فيردي) متمنياً لي ليلة سعيدة أوصاني ألاّ أنسى ابن أخته الصغير، وأضاف، قائلاً:

(أرجو أن تتصل بي هاتفياً، يوم الأربعاء يناسبني، وكذلك يوم الجمعة.

وفي اليوم التالي، سافرت إلى (تيلبي) كان ذلك قصراً من قصور القرن السادس عشر، يقع في وسط حديقة كبيرة، ترتع فيها الظباء. وتبدو من نوافذه مناظر الوديان المخضرة. وعلى مدى النظر، يخيّل للمرء أنّ تلك المنطقة كلها تعود ملكيتها لآل (بلاند).

ولابدّ أنّ مزارعي (السير أدلفوس) يعتبرونه ملاكاً مثالياً:

فأنا لم أرَ في حياتي مزارع أكثر أناقة وأشد عناية من مزارعه، فمستودعاتها واسطبلاتها نظيفة زاهية، وحظائر الخنازير نموذجية، ومنشأتها تذكر باللوحات الغنية الإنكليزية القديمة، والبيوت الريفية التي بناها فيها تجمع بين جمال المظهر ووسائل الراحة والرفاهية.

ولابدّ أن إنشاء هذه الملكية قد كلف مبالغ ضخمة، ولحسن الحظ، فإنّ إمكانية آل (بلاند) ومواردهم تسمح لهم بتحقيق هذه

الرغبة وهذا الحلم. كانت الحديقة، بل ذلك المنتزه الواسع بأشجاره الضخمة، وملعب (الجولف) الكبير، يلقيان عناية كبيرة. كما أن منظر الكروم والبساتين الزاهية يعتبر زينة وثروة، وهما موضع فخر الناحية كلها. والمنزل الفخم بأسطحته المنحدرة ونوافذه المقطّعة والمنمقة، أشرف على ترميمه أشهر مهندس معماري في إنكلترا، وتولت الليدي (بلاند) فرشه وتزويده بأثاث من طراز مثالي لا تشوبه شائبة.

وكثيراً ما كانت تردد: (أوه! الأمر في غاية البساطة: إنه البيت الريفي الإنكليزي، على حقيقته).

كانت بعض الصور الرياضية القديمة تزين جدران قاعة الطعام، والكراسي من طراز (شيّبندال): (Chippendale)[1] التي كانت في تلك القاعة، لا تقدر بثمن. وجدران الصالون كانت مزدانة بأجمل اللوحات الرائعة، لمشاهير فناني ذلك العصر. حتى أنّ غرفتي، بسريرها ذي الأعمدة كانت تحتوي على لوحات مائية من عمل الفنان (بيركيت فوستير). وباختصار فإنّ الإقامة في (تيلبي) كانت متعة عظيمة، ولكن - ولكم ستتزعج الليدي (موريل) بلاند لو عرفت ذلك - كان واضحاً أنّ الغاية المرجوة لم تتحقق أبداً. إذ إنّ المرء لا يشعر لحظة واحدة أنه في بيت إنكليزي، فكل شيء كان يبدو وكأنه انتقي باهتمام لينسجم مع المجموع. وعبثاً يبحث الزائر عن الصور الأكاديمية التقليدية، التي تثير الشجن في قاعة الطعام عندما تثير ذكرى أصحابها الذين رحلوا عن هذا العالم.

وبدلاً منها، يرى إحدى الصور التي أحضرها أحد الأجداد من

---

[1] Thomos Chippendale: (١٧١٨ - ١٧٧٩) من أشهر مصممي وصانعي المفروشات وقطع الأثاث، في بريطانيا، نشر مؤلفاً، سنة ١٧٥٤ عن هذه الصناعة ونماذجها. وكيف أنه يجمع في طراز واحد، ملامح من نماذج مختلفة. (المترجم)

إيطاليا عندما قام برحلة إلى هناك. وكان الصالون خلواً من تلك اللوحات الشعبية المألوفة والمؤثرة، التي كانت ترسمها إحدى القريبات، من الهاويات لهذا الفن. ولا وجود هنالك للديوان (الفيكتوري) الضخم، الذي كان عادةً يظلّ هناك دون أن يجرؤ أحد على زحزحته من مكانه، ولا للكراسي المغطاة بالسجاد الذي حاكته إحدى العذارى التي نسيها الراغبون في الزواج، في زمن المعرض الكبير. إنه، حقاً مسكن جميل، ولكنه يفتقر إلى الروح.

ومع ذلك، فيا لها من راحة ورفاهية! ويا لها من مودة يبديها لك (آل بلاند) لدرجة أنك تؤمن أنهم يحبونك حقاً.

ويجب أن ترى فرحتهم في الأيام التي يقيمون فيها حفلة لأبناء المنطقة، ومع أنه لم يمض سوى عشرين سنة على شرائهم هذه الملكية.

ولكنهم، مع ذلك فقد اكتسبوا مودّة جيرانهم، وفيما عدا أناقتهم وترفهم، وحسن إدارتهم لأملاكهم، ليس هنالك ما يدلّ على أنهم لا يقيمون هناك منذ قرون عديدة.

كان (فريدّي) قد تابع دراسته في كلية (ايتون) وفي جامعة (أكسفورد) وقد بلغ آنذاك الخمسين من عمره، بل ربما تجاوز ذلك قليلاً. وهو هادئ، ظريف، متحفظ، وأتصور أنه ذكي جداً. أناقته لم تكن إنكليزية. مربوع القامة، أبرش الشعر، لحيته صغيرة ومدببة، عيناه داكنتان جميلتان وأنفه أقنى. لا يمكن أن يظن أحد أنه يهودي، بل ربما يظنّ أنه دبلوماسي أجنبي متميّز. ورغم النجاح الذي حققه هذا الرجل، فقد كانت تعتريه كآبة لم يستطع أحد معرفة أسبابها. وإذا كان قد حظي بنجاحات سياسية ومالية، فإنه لم يتوصل إلى النجاح في المجال الرياضي. وقد مارس رياضة الصيد بمساعدة الكلاب خلال عدة سنوات، ولكنه لم يكن خيالاً ماهراً، ولا شك أنه شعر بالارتياح، عندما أتاح له تقدمه في السنّ، وانهماكه بالعمل، إقلاعه عن تلك

الرياضة. ورغم وجود ملعب للجولف في حديقته، فقد كان لاعباً عادياً، يقوم ببعض الجولات الموفقة، ولكنه لا يجيد تصويب الكرة نحو الهدف. وكان يعلم حق العلم أهمية هذه الأمور في إنكلترا، ولم يكن يتعزى على فشله فيها، وأخيراً فإن (جورج) سيأخذ له بالثأر عن ذلك.

كان (جورج) لاعب (جولف) بادي القوة، وفي كرة المضرب كان يبدو أفضل من اللاعب المتوسط، دون أن يكون مع ذلك، مولعاً بهذه اللعبة. ومنذ أن أصبح يقوى على حمل السلاح، أخذ أهله يدربونه على الرمي وإطلاق النار، وبدا عليه أنه سيصبح رامياً ماهراً. وقد أركبوه على حصان صغير، وهو لم يتجاوز الثانية من العمر. وفيما بعد كان (فريدّي) يرى أنّ ابنه في الصيد، يقتحم الحواجز ويقفز بحصانه عنها. بكل حماسة ومرح. أما هو، فياللأسف! إنه لم يستطع أن يتخلص، رغم مطارداته الكثيرة للثعالب، من ذلك التقلص في معدته، الذي يثير لديه الغثيان، ويحول تلك الجولات بالنسبة له، إلى عذاب أليم.

وابنه (جورج) الشاب الطويل المشوق القامة، الشجاع والجريء جداً، ذو الشعر المتموج بين الأسمر والذهبي والعينين الزرقاوين، كان يمثل النموذج الحقيقي والتام للشاب الإنكليزي.

وكان يتمتع بطبيعة وظرف الناس الرفيعي التهذيب. وربما كان أنفه المستقيم ضخماً بعض الشيء، وشفتاه غليظتين وشهوانيتين ولكنّ أسنانه الجميلة، ولون بشرته الزاهي، كل ذلك، جعل والده يحبه لدرجة العبادة. ولم يكن يحبّ (هارّي) ابنه الثاني، إلى هذه الدرجة، فهو يبدو متين البنية، وأكثر قوة مما ينبغي بالنسبة لسنه. ولكنّ عينيه السوداويين اللتين تنمان عن الذكاء، وشعره الأجعد القاسي وأنفه الكبير، كل هذا كان يدل على أصله اليهودي. وكان والده يعامله بقسوة، وخشونة وعنف في معظم الأحيان. بينما كان يوجه كل ملاطفاته وتسامحه إلى (جورج). كان على (هاري) أن يعمل في التجارة، فهو

مؤهل لذلك ويجيد إدارة الأعمال. ولكنّ (جورج) هو الوريث، وهو الذي سيصبح (الجنتلمان) الإنكليزي.

وكان (جورج) قد اقترح عليّ أن يوصلني بالسيارة المكشوفة الجديدة التي أهداه إياها أبوه، في عيد ميلاده. وكان يقودها بسرعة كبيرة. وكنّا أول من وصل إلى هناك. وكان (آل بلاند) ينتظرون، جالسين في المرجة التي تكسوها الحشائش الخضراء، تحت شجرة أرز رائعة وبقربهما الشاي الجاهز.

وبالمناسبة، قلت لهم إني رأيت، منذ بضعة أيام (فيردي ربنشتاين) فطلب مني أن اصطحب معي (جورج) ليتناول طعام الغداء معه.

ولم أكن قد ذكرت هذه الدعوة لجورج، لأنه إذا كان هنالك فتور في العلاقات بين أفراد العائلة، فمن المناسب أن أتحدث عنها مع الوالدين أولاً.

فسألني جورج:

(ومن هو، بحق السماء، فيردي ربنشتاين)؟

إنه غرور الشهرة والمجدّ إذ إنّ الجيل السابق كان يمكن أن يجد هذا السؤال سخيفاً وفظاً.

فأجبته:

(إنه خالك الكبير، منذ مدة لا تقل عن عشرين سنة).

فتبادل الوالدان النظرات فيما بينهما.

وقالت (موريل) (إنه عجوز شنيع)

وقال (فريدّي) بلهجة حاسمة لا تقبل رداً:

- أرى أنّ ليس هنالك أية جدوى من أن يعيد (جورج) ربط علاقات، انقطعت قبل مولده.

فقلت أخيراً، بشيء من اللامبالاة:

(على أية حال، لقد قمت بمهمتي، وهذا كل شيء.

وصرّح (جورج):

(لا أريد أن أرى هنا الأحمق العجوز!)

وقطع هذا الحديث، في الوقت المناسب تماماً، وصول بقية المدعوين، فذهب الشاب، بعد قليل ليلعب (الجولف) مع أحد رفاقه في جامعة (أكسفورد)

ولم يطرح الموضوع ثانية على بساط البحث إلاّ في اليوم التالي.

ففي الصباح، لعبت (الجولف) مع (فريدّي بلاند) دون حماس يذكر، وبعد تناول الإفطار، لعبنا أيضاً بكرة المضرب، وأجرينا ما يمكن أن تسمى مباراة ودية أو عائلية، ثم جلست لأرتاح على الشرفة، مع (موريل). وفي إنكلترا، الطقس يكون سيئاً في معظم الأحيان، بحيث أنّ اليوم الذي يكون طقسه حسناً، يبدو أكثر جمالاً، منه في أي بلاد أخرى. وبعد ظهر ذلك اليوم من شهر حزيران (يونيو) كان رائعاً: فما من سحابة في الجو، والهواء لطيف ومعطر. وأمامنا تمتد الوديان المخضرة والغابات، وبعيداً تبدو أبراج الكنيسة، الداكنة والأسطحة القرميدية الحمراء، التي تغطي منازل إحدى القرى. أي أن ذلك اليوم كان من الأيام التي يكفي أن يكون المرء فيها حياً، ليكون سعيداً جداً. وكانت بعض أبيات الشعر تغرد في ذهني، وكنا نتحدث في مواضيع مختلفة.

وفجأة، قالت لي الليدي موريل:

(آمل ألاّ نكون قد أغضبناك برفضنا السماح لجورج أن يذهب ليتناول الغداء مع (فيردي) إنه مغرور لا يطاق.

- أتعتقدين ذلك، على أية حال، لقد كان يبدي اللطف والمودّة نحوي.

- لقد اختلفنا منذ عشرين سنة. و(فريدّي) لم يغفر له موقفه

الذي لا يتسم بالوطنية أثناء الحرب. وكما تعلم، فإن لكل شيء حدود، وقد أصرّ بعناد على الاحتفاظ باسمه الألماني الفظيع. مع وجود (فريدّي) في مجلس النواب، ومعمل الذخيرة الذي نملكه، وبقية الأمور، كان يبدو أموقفه غير مقبول. والآن ما الذي يدفعه لمحاولة رؤية (جورج). وبماذا يمكن أن يفيده؟

- إنه أصبح عجوزاً، و(جورج) و(هاري) هما ابنا أخته الصغار. ولابدّ أن يترك أمواله لأحد ما.

فحسمت (موريل) الأمر بجفاء:

- إننا لا نهتم بأمواله.

ولم يكن يهمني كثيراً، على أية حال، أن يتغدى (جورج) مع (فيردي ربنشتاين) أو لا يتغدى معه، ولم أكن أريد سوى تغيير موضوع الحديث، ولكن يبدو أنّ الزوجين قد تحدثا فيما بينهما عن هذا الأمر، ولذلك كانت (موريل) تشعر بالحاجة لتوضيحه لي، لأنها قالت:

(أنت تعرف ولا شك أنّ (فريدّي) يسري في عروقه دم إسرائيلي). وعند ذلك بدت القسوة في نظراتها.

والشقراء (موريل) كانت فيما مضى جميلة جداً، أمّا اليوم، فإنها تكاد تصاب بالسمنة والبدانة، لكنها تدافع عن نفسها بقوة، ويمكن أنها لا تزال مرغوبة، وعيناها الزرقاوان الواسعتان، أنفها العريض، شكل وجهها وعنقها، وحيويتها المفرطة كلها تدل على أصلها. فأية إنكليزية، حتى وأن كانت شقراء، لا يمكن أن تكون لها هذه الهيئة.

ومع ذلك، فإنّ ملاحظتها لم يكن لها غاية سوى إقناعي بأنها مسيحيّة.

فأجبت بتعقّل وروّية:

(كثير من الناس لديهم من هذا الدم، في أيامنا هذه).

- أعرف ذلك، ولكن ليس هنالك مبّرر للتباهي به، أليس كذلك؟

وبعد كل شيء، نحن إنكليزيون تماماً، ومن هو الذي يمكن أن يكون إنكليزياً أكثر من (جورج) من حيث المظهر، والأساليب، وكل شيء؟ وهو شاب رياضي مطبوع. ولا أدري لماذا يجب عليه أن يضيع وقته مع أحد، أو بعض اليهود، بحجة قرابة بعيدة وغامضة

- إنه لأمر بالغ الصعوبة، في هذه الأيام، عدم الالتقاء باليهود في إنكلترا.

- يمكنك أن تقول ذلك، ففي لندن يعيثون فساداً، ويشعر الناس أنّ اليهود يغزونهم، ولكني أعترف أنّ بينهم بعض الظرفاء، فنّانين جداً. ولن أذهب إلى حدّ القول أني و(فريدّي) نتحاشاهم بدافع المبدأ - فهذا أمر لن أفعله - ولكن الواقع هو أنّ لا علاقة لنا بأيّ واحد منهم. وهنا، في منطقتنا، لا ترى لهم أثراً على الإطلاق.

لم استطع الامتناع عن الإعجاب بتلك اللهجة التي تنم عن الاقتناع. وربما كانت تؤمن، إجمالاً بكل ما روته.

(لقد قلت انّ (فريدّي) يمكن أن يورّث أمواله لجورج، ولكن على أية حال، لابدّ أنها غير ذات أهمية. لقد كانت تشكل ثروة مرموقة قبل الحرب، ولكنها اليوم لم يعد يحسب لها حساب. وبالإضافة إلى ذلك فإننا نأمل أن يعمل جورج في السياسة، بعد مرور بعض الوقت، ولن يكون من مصلحته ولا تزكية له عند الناخبين، أن يكون وريثاً لسيّد اسمه: (ربنشتاين).

فسألتها، لتغيير مجرى الحديث:

- وهل يهتم (جورج) بالسياسة؟

- أوه! إني آمل ذلك تماماً، وعلى أية حال، فإنّ مقعد العائلة الانتخابي ينتظره، وهو مقعد مضمون للمحافظين، ولا يمكن أن يطلب من (فريدّي) أن يبقى إلى ما لا نهاية في مجلس النواب.

وبدت (موريل) رائعة وطموحة، فهي تتحدث عن المقعد

الانتخابي كما لو أنّ عشرين جيلاً من (آل بلاند) سبق لهم أن شغلوه في البرلمان، ومع ذلك، فإنّ ملاحظتها جعلتني أتبيّن للمرة الأولى أنّ طموحات (فريدّي) لم تتحقّق جميعها.

(أفترض أنّ (فريديّ) سيدخل إلى مجلس اللوردات، عندما يصبح (جورج) في السنّ التي تؤهله ليحلّ محلّه في مجلس النواب.

- لقد عملنا الكثير من أجل الحزب.

(موريل) كانت كاثوليكية، وتسرد بطيب خاطر ذكرياتها عن الدير: (إنهنّ نساء ممتازات، تلك الراهبات، ولو أني رزقت ابنة، لأدخلتها، هي أيضاً إلى الدير) ولكنها تحب أن يكون لديها خدم ينتمون للكنيسة الأنجليكانية، ويوم الأحد يسمون (le diner) (un souper) وجبة المساء عشاءً لأنّ السمك آنذاك يقدّم بارداً، وتقدم أيضاً المرطبات المثلجة، ويقوم بالخدمة خادم بدلاً من أربعة. وفي ذلك المساء، كنّا قد تركنا المائدة لتوّنا، وكان لا يزال الوقت نهاراً، فأخذنا نتمشّى أنا و (فريدّي) على الشرفة ونحن ندخن السيجار. ولابدّ أنّ (موريل) قد نقلت له حديثنا، ولذلك فإن رفضهم السماح لجورج بالذهاب لتلبية دعوة خاله العجوز ما زال يشغل باله، ولكن، لكونه أكثر لباقة من زوجته، فقد تطرق للموضوع بصورة غير مباشرة، فحدّثني عن المتاعب التي يسبّبها له جورج، وقال إنّ رفضه الدخول في الجيش سبب لهما خيبة أمل شديدة. وأضاف: (كنت واثقاً أنّ تلك الحياة ستستهويه وتخلب لبه).

- وكم كان سيبدو جميلاً بملابس الحرس الملكي!

- نعم، أليس كذلك؟ وأنا لا أستطيع أن أفهم لماذا لم يغره هذا العرض.

هذا ما علّق به (فريدّي) أخيراً، بكل سذاجة:

وفي (أكسفورد) حيث أبدى كسلاً مشيناً، فقد وجد طريقة، رغم

كرم ذويه، للاستدانة كثيراً من جميع الناس، وفي كل مكان، وارتكب أخيراً الأخطاء التي أدّت إلى طرده!

ولكن وراء كل لهجة (فريدّي) التي تنمّ عن الغيظ، كان يتبيّن لي كم هو مزهو به، رغم سيئاته، كان يحبه لدرجة العبادة، أوه!

ليس بالشكل الذي يحب به الإنكليز أبناءهم، ورغم كل أعماله الجنونية كان فخوراً به. وقلت له:

(ولماذا تقلق بهذا الشكل؟ وماذا يعني بالنسبة لك أن يحصل جورج على إحدى الشهادات أو لا يحصل عليها؟)

فضحك قليلاً، وقال:

(على أية حال، هذا صحيح تماماً، وبرأيي، أن أهمية أكسفورد تكمن في معرفة الناس، وأنت كنت فيها، وجورج ليس أكثر طيشاً من شباب محيطه، الآخرين. ولكنّ المستقبل هو الذي يقلقني، إذ إنّ (جورج) كسول جداً. ولا يفكر سوى باللهو والتسلية.

- إنه ما يزال شاباً، حديث السنّ.

- والسياسة لا تعنيه، فهو يسخر منها، أمّا الرياضة، فرغم مهارته فيها، فهو لا يهتم بها بشكل جدّي وحقيقي، وهو يمضي معظم وقته، يعزف على البيانو.

- لا بأس بذلك، فهو غير ضارّ، أبداً!

- أوه! نعم، هذا سيّان بالنسبة لي، ولكنه لا يمكن أن يستمر بالتسكّع إلى ما لانهاية. انظر، كل هذا سيؤول إليه في يوم من الأيام!

وأبدي (فريدّي) إشارة بدت وكأنها تشمل كل المنطقة، ولكني كنت أعلم أنه، حتى ذلك الحين، لم يكن يملكها كلها.

وتابع قائلاً: (كم كنت أودّ أن أراه جديراً بتحمل مسؤولياته. ويضني أمه طموحها إلى ما يمكن أن يقوم به من أعمال وتحثه على ذلك، وأنا لا أطلب منه سوى أن يكون (جنتلماناً) إنكليزياً.

ووجّه لي (فريدّي) نظرة جانبية، كما لو كان يتردد بالكلام، متسائلاً: (هل سأعتبره سخيفاً، مضحكاً؟ ولكنّ مهنة الأديب لها هذه الميزة الحسنة وهي أن الناس يتحدثون إليك بدون أن يولوك أهمية كبيرة، ويقولون لك أشياءَ لا يجرؤون على أن يبوحوا بها إلى الآخرين.

وجازف بالقول:

(إني أرى أنّ لا أحد يحقق اليوم المثل الأعلى اليوناني للعيش والحياة، بالشكل التام والكامل الذي يحققه النبيل الريفي الإنكليزي، فحياته تتسم بجمال الأعمال الفنيّة).

لم أستطع أن أمتنع عن الابتسام، لأنّ النبيل الريفي الإنكليزي في أيامنا هذه، لم يعد يستطيع تحقيق شيئاً من هذا القبيل، دون أن يكون لديه أموال كثيرة موظفة في مشاريع والتزامات أميركية، ولكني أيدت رأيه بمودة وتعاطف. فالحلم الرومانسي الذي يحلم به هذا المتمول اليهودي بدا لي مؤثراً.

وتابع حديثه:

(أطلب منه أن يكون ملاكاً صالحاً، أن يهتم بقضايا المنطقة وأن يكون رياضياً لامعاً).

فتبادر إلى ذهني: (يا له من ساذج مسكين!)

ولكني سألته:

ما هي إذن مشاريعك الحالية بالنسبة له؟

- أعتقد أن العمل الدبلوماسي سيعجبه، وقد اقترح أن يذهب إلى ألمانيا ليدرس لغتها.

- فكرة ممتازة!

- وهو يفكر بالذهاب إلى (ميونيخ)

- إنها مدينة جميلة.

وفي اليوم التالي، عدت إلى لندن، وبعد وصولي بقليل اتصلت بـ(فيردي)!

إني أسف، فجورج لا يستطيع الحضور لتناول طعام الغداء يوم الأربعاء.

- ويوم الجمعة؟

- ولا يوم الجمعة، أيضاً. وبدا لي أنّ لا جدوى من التكتّم:

(أقول لك الحقيقة وهي أنّ والديه لا يرغبان كثيراً بأن يأتي ليراك).

فران الصمت لحظة، ثم: (فهمت، إيه، حسن، أتريد، مع ذلك أني تأتي، أنت، يوم الأربعاء؟

- بكل سرور).

وهكذا، فقد توجهت، يوم الأربعاء، الساعة الواحدة والنصف نحو شارع (كورزون) فاستقبلني (فيردي) بترحيب متكلف بعض الشيء. دون أية إشارة أو ذكر (لآل بلاند). كنا نجلس في الصالون وبدا لي أنّ كل شيء فيه يدلّ على حس فني مرهف. ولكن حسب نمط وذوق هذه الأيام، ربما تبين للزائر أنه مثقل بالأشياء الكثيرة التي تزدحم فيه: الكثير من العلب الذهبية في الفيترينات، وأكثر مما ينبغي أواني (البورسلين) الفرنسية، ولكن كل شيء كان يبدو وكأنه قد انتقي بعناية، والأثاث وحده، وهو من طراز (لويس الخامس عشر)، يساوي ثروة طائلة. أما اللوحات الفنية فهي عديدة ولرسّامين مشهورين، مثل: (لانكريت)، (باتير) و(واتو) وهي وإن كانت تبدو مملّة وقديمة العهد، ولكنّ الحصول عليها كلّف مبالغ أستطيع تقدير أهميتها. وباختصار فإنّ ذلك كان يشكل إطاراً مناسباً لهذا العجوز الاجتماعي.

وفجأة فَتح الباب، وأعلن عن وصول جورج، فوجه لي (فيردي) الذي لا حظ دهشتي، ابتسامة تنم عن الظفر والزهو.

وقال وهو يصافح (جورج): (يسرني أنك استطعت الحضور، على أية حال).

وألقى نظرة تفحّص فيها ابن أخته: كان هندام (جورج) يلفت النظر: سترة سوداء قصيرة جداً، بنطال مقلّم، وصدريه رمادية متصالبة، من الزيّ الدارج آنذاك. ولارتداء هذه الملابس بأناقة، يجب أن يكون الشخص طويلاً، نحيفاً، وألاّ يكون بطنه كبيراً. وأنا واثق أنّ (فيردي) عرف بالضبط، عند أي خياط كان (جورج) يخيط ملابسه، ومن عند أي تاجر كان يشتري قمصانه، وقد حبذ اختياره. وجورج هذا، بهيئته الناعمة، اللطيفة واللائقة، كان بالحقيقة شاباً جميلاً وظريفاً.

وجلسنا إلى المائدة، و(فيردي) الذي يتحلى بكل دقائق وخفايا الحسّ الاجتماعي، أتاح للشاب جواً جعله يشعر بالارتياح، ولكنه كان يتفحّصه ويدرسه. وفجأة بدأ يروي حكاياته اليهودية بكل مهارة وحماسة، وبالإيماء وتقليد الحركات... فاحمرّ وجه (جورج) ورغم ضحكاته القوية، كنت أتبيّن ارتباكه. فكيف أمكن لـ فيردي أن يتخلّى عن فطنته وحسه السليم، هكذا وإلى هذه الدرجة. ولكنه ظل يتابع مراقبة جورج ويروي الحكاية تلو الحكاية. حتى خيّل لنا أنه لن يتوقّف عن ذلك أبداً. فهل كان يجد، بالمصادفة، متعة خبيثة، في ارتباك ابن أخته، الواضح؟

وأخيراً، غادرنا المائدة، وصعدنا إلى الصالون، ولتبديد الضيق والارتباك، رجوت (فريدي) أن يجلس إلى البيانو، فعزف لنا ثلاث أو أربع معزوفات (فالس). وطريقته في العزف لم تفقد خفتها المنسابة، وإحساسه بالإيقاع ما زال حياً وقوياً.

وأخيراً، التفت نحو جورج: (أتجيد العزف أنت أيضاً؟

- قليلاً

- وهل تريد أن تعزف لي شيئاً ما؟

- أخشى ألاّ أكون أعزف سوى الموسيقا الكلاسيكية، ولا أعتقد أنها ستسرّكم كثيراً)

فابتسم (فيردي) دون أن يلحّ عليه.

فنهضت لأنصرف ورافقني (جورج)، وفي الشارع، قال: (يا له من يهودي عجوز وقذر! إني أكره حكاياته.

- إنها اختصاصه الذي يزهو به، وهو يرويها دائماً.

- وهل تفعل ذلك لو كنت يهودياً؟

فهززت كتفي، وسألته:

(ومع ذلك، كيف أتيت؟

لقد ذهب وقابل جدّتي. أنت لا تعرفها، أليس كذلك؟

- كلاّ

- إنها تعامل أبي وكأنه مازال تلميذاً، وقالت إني يجب أن أذهب لتناول طعام الغداء مع خالي (فريدي) وما تقوله جدّتي، لا يناقش أحد فيه.

- لقد فهمت).

وبعد ذلك بأسبوع أو أسبوعين، سافر (جورج) إلى (ميونيخ). وقمت أنا أيضاً برحلة لم أرجع منها إلى لندن إلاّ في الربيع. وبعد وصولي ببعض الوقت، التقيت في حفل للعشاء بـ(موريل بلاند) وكانت تجلس بجواري، فسألتها عن أخبار (جورج)

- إنه لا يزال في ألمانيا.

- لقد قرأت في الصحف أنكم ستقيمون في (تيلبي) احتفالاً كبيراً بمناسبة بلوغه سنّ الرشد.

- إننا ننوي استقبال المزارعين، وهم سيقدّمون هدية لجورج لم تكن تتكلّم معبرة عن أفكارها بحماسها المعتاد، ولكني لم أعر ذلك أيّ اهتمام. فربما كانت متعبة، بسبب طبيعة الحياة المرهقة التي تحياها. ولأني كنت أعلم أنها تحبّ كثيراً أن تتحدث عن ابنها، تابعت الحديث معها:

(لابدّ أنّ (جورج) يلهو كثيراً في ألمانيا؟

ولكنها لم تجب، والأمر الذي أدهشني هو أني لمحت الدموع تترقرق في عينيها. وأخيراً، قالت:

(جورج؟ إني لأخشى أن يكون قد أصبح مجنوناً).

- ماذا تعنين بذلك؟

- إننا منزعجون جداً. و(فريدّي) حانق غاضب، لا يتقبّل أية مناقشة بموضوع (جورج). ولا أدري ماذا سنفعل).

وأول فكرة تبادرت إلى ذهني، كانت بالطبع هي أن (جورج) وقد أرسل إلى منزل إحدى الأسر، ليتعلّم منها اللغة الألمانية، كما يحصل لمعظم الشبان الإنكليز، وهناك تولّه في حب إحدى بنات تلك الأسرة ويريد أن يتزوجها، دون موافقة ذويه، الذين لابد أنهم يطمحون له بزواج أفضل.

وأخيراً، سألتها: (ما الذي حدث؟

- إنه يريد أن يصبح عازف بيانو

- ماذا؟

- عازف بيانو محترف

- من أين، يالشيطان أتته هذه الفكرة؟

- اللّه وحده يعلم ذلك! لم نكن نشك بشيء، كنا نظن أنه منهمك بالتحضير للفحص. وذهبت لأراه، رغبة مني بمعرفة أحواله والاطمئنان على أنّ كل شيء على ما يرام. أوه! يا عزيزي، لقد كان في حالة مزرية، هو الذي كان يعتني كثيراً بنفسه وبهندامه، وقد أبكاني منظره. وأخيراً

أخبرني بأنه لن يتقدّم للفحص، وأنه لم يفكر حتى بالتحضير لهذا الفحص، ولم تكن فكرة العمل الدبلوماسي سوى ذريعة لكي يذهب إلى ألمانيا ويشتغل بالموسيقا.

- ولكن ألديه الموهبة التي تؤهله لذلك؟

- أوه! هذا أمر ثانوي، حتى لو كان يتمتع بعبقرية (بيدوروفسكي)[1]

هل يمكن أن نتقبل رؤيته متجولاً في البلاد لإقامة الحفلات الموسيقية؟

أنا أحب الفن ومولعة به، ولا أحد يمكنه أن ينكر ذلك، و(فريدّي) يحبه أيضاً، فنحن نعشق الموسيقا، وقد تعرّفنا على كثير من الموسيقيين، ولكنّ (جورج) له وضع خاص وهام جداً، ومستقبل باهر، فتلك المسألة ليست مطروحة بالنسبة له ولا مجال لبحثها، لأننا نحلم أن نراه في مجلس النواب. فمع حظه الموفور وثروته الطائلة، جميع الفرص والآمال متاحة له.

- وهل لفتّ نظره إلى كل هذا؟

- بالطبع، ولكنه سخر مني. فقلت له: (إنك ستحطم قلب أبيك. فأجابني أنّ ليس على أبيه سوى الالتفات إلى (هارّي) والاعتماد عليه. وأنا، بالطبع أحب (هارّي) كثيراً، فهو خبيث، كالسعدان، ولكننا متفقون، على الدوام، أنه سيدخل معترك التجارة والعمل الحرّ. ومع كوني أمه، فإني لا أرى لديه المواهب والمؤهلات التي يتمتع بها (جورج). أتعلم ماذا قال لي أيضاً؟

لقد قال إنه إذا أراد والده أن يؤمن له خمسة جنيهات كل

---

[1] موسيقي وسياسي بولوني مشهور (١٨٦٠ - ١٩٤١) ترأس الوزارة سنة ١٩١٩ - المترجم.

أسبوع، فإنه يتنازل عن كل شيء لصالح (هارّي) الذي يمكنه عند ذلك أن يرث الثروة و(البارونية) وكل ما تبقّى، إنه أمر سخيف ومضحك للغاية. وحضرته يرى أنّ الأمير الملكي، ولي عهد رومانيا إذا كان قد تنازل عن العرش، فإنه لا يرى لماذا لا يتنازل هو، عن (البارونية). ولكنّ هذا مستحيل، ولا يصدق، فلا شيء يمكن أن يمنعه من أن يصبح (البارون) الثالث في أسرة (آل بلاند)، وأن يصبح أحد (الأعيان) عند وفاة والده فيما إذا رفع والده إلى رتبة (عين) ودخل مجلس اللوردات. وتصوّر أيضاً أنه يريد حتى التخلّي عن اسم (بلاند) لينتحل اسماً ألمانياً كريهاً).

ولم أستطع الامتناع عن سؤالها عن هذا الاسم.

- (بليكوجيل) أو ما يشبه ذلك.

فتذكرت هذا الاسم وعرفته، وبناءً على ما رواه لي (فيردي) فإنّ (حنّه ربنشتاين) تزوّجت (ألفونس بليكوجيل) الذي أصبح فيما بعد (السّير ألفريد) أول (بارون) في أسرة (آل بلاند) وكل هذا بدا لي غريباً جداً. وماذا حدث إذن للشاب الظريف، المتشبّع بالروح والمظهر الإنكليزيين، الذي فارقته قبل بضعة أشهر؟

أنت لم ترَ حالة (فريدّي) عندما رويت له ذلك بعد عودتي:

فأنا لم يسبق لي أبداً أن رأيته بمثل تلك الثورة من السخط والغضب.

وأرسل برقية لجورج طلب فيها منه أن يعود على الفور، وجورج كانت لديه الوقاحة ليرد ببرقية مماثلة أنه يستحيل عليه أن يعود لانشغاله بالعمل.

- إذن، فهو يعمل؟

- من الصباح وحتى المساء، وهذا ما يدعو إلى الحيرة بل وإلى الجنون: فهو لم يقم بأي عمل طيلة حياته. وكان والده ينعته دائماً

بالكسلان، ويتعامل معه على هذا الأساس. وأبرق له، ثانية، وأبلغه أنه إذا لم يرجع، فسيقطع عنه ما يرسله له من نقود لتأمين معيشته. فردّ (جورج) قائلاً: (اقطعها) وكانت تلك نقطة الانتهاء. وأنت لا يمكنك أن تتصور كيف يصبح (فريدّي) عندما يستولي عليه الغضب).

كنت أعرف أنّ (فريدّي) ورث ثروة ضخمة، ولكني أعرف أيضاً أنه نمّاها كثيراً، فلابدّ أنّ السيد اللطيف، صاحب ملكية (تيلبي)، كان بالحقيقة رجل أعمال ماهر ومتمرّس، ولأنه لم يعتد على أن يلقى أية معارضة، فهو يصبح، دون شك، عندما يعارضه أحد، صلباً، بل وقاسياً جداً.

(كنّا قد خصّصنا معاشاً مغرياً لجورج من أجل نفقاته، وأنت تذكر كم كان مبذّراً. وكنا مقتنعين بأنه لن يستمرّ طويلاً، والواقع هو أنه بعد شهر واحد، كتب لفيردي وطلب منه أن يقرضه مائة جنيه، فذهب (فيردي) وقابل حماتي - فهي أخته، كما تعلم - وسألتها عن معنى ذلك. وإن كان هو و (فريدّي) لم يكلّم أحدهما الآخر منذ عشرين سنة، فقد توسّل إليه (فريدّي) بألاّ يرسل (بنساً) واحداً إلى (جورج). وحصل منه على وعدٍ بألاّ يفعل ذلك. وأنا لا أعرف كيف استطاع (جورج) تأمين معيشته. ومن المؤكّد أن (فريدّي) محق وعلى صواب. ولكن هذا لا يزيل عني القلق ولا يقيني من العذاب. ولو لم أكن قد أقسمتُ لفريدّي، وقطعتُ له عهداً على نفسي، بأن لا أفعل شيئاً لا يوافق عليه، كنت دسست له في الرسائل بعض الأوراق النقدية، لنفقاته الطارئة وغير المتوقّعة. فأنا لا أستطيع الصبر والتحمل عندما أفكر بأنه ربمّا يعاني من الجوع، ولا يجد ما يسدّ به رمقه.

- على أية حال، لن يضرّه بشيء أن يتذوّق قليلاً طعم الحرمان.

- والآن، ياله من مأزق! لقد قمنا بجميع الاستعدادات للاحتفال بعيد ميلاده، ووزّعنا مئات الدعوات، وها هو يعلن فجأة بأنه لن يأتي!

كنت عند ذلك كالمجنونة، فكتبت له وأرسلت له برقية. ولولا (فريدّي) كنت ذهبت إلى ألمانيا، وجثوت على ركبتيّ أمام جورج، وتوسّلت إليه أن يقينا شرّ مذلة كهذه. وكيف يمكننا أن نشرح هذه القضية ونفسّرها للغرباء؟

ولكنّ حماتي ظهرت على المسرح وتدخلت، وأنت، على ما أعتقد لا تعرفها؟ إنها امرأة مسنّة وعجيبة، لا مثيل لها، ولا يمكن أن يصدّق أحد أنها أم (فريدّي). وهي من أصل ألماني، ولكنها من أسرة عريقة جداً.

- آه!

- ولكي أصدقك القول، فإني أهمس في أذنك أننا جميعنا نخاف منها، وقد زجرت (فريدّي)، ثم أرسلت رسالة لجورج، وعدته فيها أنه إذا عاد بمناسبة بلوغه الحادية والعشرين، فإنها ستدفع كل ديونه في (ميونيخ) وأننا سنصغي بمزيد من الصبر والاهتمام إلى ما يريد أن يقوله. فقبل هذا العرض، ووافق على الحضور، ونحن ننتظر وصوله، الأسبوع المقبل. ولكني أؤكّد لك أني لست مرتاحة ولا واثقة من ذلك..!)

وأرسلت تنهيدة عميقة.

وبعد العشاء، اقترب مني (فريدّي):

(لاحظت أنّ (موريل) تتحدث إليك عن (جورج) يالله من مغفّل صغير! إنه يغيظني بهذا الهوس الذي يدفعه ليصبح عازف بيانو! إنها فكرة سوقية ومبتذلة تماماً.

فقلت، محاولاً مواساته:

- إنه غرّ، حديث السن.

- ذلك، على الخصوص، لأنه عاش حياة سهلة ومرفّهة، وكنت ضعيفاً أكثر ممّا ينبغي، حياله: ولم أستطع أن أرفض له طلباً، أو أحرمه من شيء. ولكني سوف أعلّمه ...).

لم يكن (آل بلاند) ضدّ الدعاية الهادئة والرصينة. وقد علمت بواسطة الصحف أنّ الاحتفال بعيد ميلاد (جورج) الحادي والعشرين، أقيم في (وتيلبي) حسب عادات وتقاليد الطبقة الأرستقراطية الإنكليزية: فقد كان هنالك حفل عشاء فاخر، حفل راقص لأصحاب وساكني القصور المجاورة، وعشاء ورقص على المرج الأخضر للمزارعين وللقرويين. وقد أحضروا من لندن أشهر الفرق الموسيقية.

ونشرت المجلات المصورة صوراً لجورج بين أفراد عائلته، وهو يتلقى طقماً ضخماً للشاي مصنوعاً من الفضة أهداه إياه المزارعون الذين كانوا قد اكتتبوا ليوصوا على رسم صورته، ولكن بسبب غيابه، فقد قرروا إهداءه طقم الشاي. والمخبرون الصحفيون المولعون بسرد التفاصيل أضافوا أنّ والده أهداه حصاناً للصيد، وأمّه قدمت له (جرامافون) فيه جهاز يغيّر الاسطوانات بطريقة آلية وجدته، السيدة المسنة (الليدي بلاند) أهدته نسخة من (الموسوعة البريطانية) وخال أبيه (فريديناندرا بنشتاين) قدم له لوحة (العذراء والطفل) هدايا كثيرة ونفيسة، يصعب تقدير ثمنها. وحضور (فيردي) في الاحتفال جعلني أظنّ أنّ ما فعله (جورج) أدّى إلى المصالحة بين الخال وابن أخته. ولم أكن مخطئاً في ذلك: إذ أنّ تفكير (فيردي) بأن يرى ابن أخته عازف بيانو محترفاً لم يكن يريحه ولا يرضيه أبداً. ومنذ أن أصبحت حظوته مهدّدة بالزوال أخذت الأسرة تتوحد لمقاومة مشاريع (جورج) ضمن جبهة واحدة. وقد سمعت فيما بعد بما حدث بعد الاحتفال بعيد ميلاد (جورج). فقد حدّثني عن ذلك (فيردي) و(موريل) كما وصلني ما رواه (جورج) بشأن هذا الموضوع. كان (آل بلاند) يأملون أنه بعد عودته وعندما يجد نفسه نجم تلك الأفراح الرائعة، سوف تتبيّن له فوائد وميّزات حيازة ملكية كبيرة. وكانوا يحيطونه بكل مظاهر العطف والمحبّة، ويصغون بمودّة واهتمام إلى كلّ ما يقوله، قائلين فيما بينهم،

كيف يمكن أن يسبب لهم المتاعب بعد أن قدّموا له كل هذه العناية والرعاية. ومن كان يستمع لأحاديثهم يعتقد أنّ المشكلة قد سويّت وانتهى الأمر، وأنه لن يعود إلى ألمانيا، وأخذوا يتحدثون عن مشاريعه التي يهيئونها له للمستقبل. أمّا هو فلم يكن يكثر من الكلام، ولكنه كان يبدو مسروراً، ولم يفتح البيانو أبداً، وخيّم الهدوء والسكينة على المنزل.

ولكن في أحد الأيام، أثناء تناول طعام الغداء، وكان الحديث يدور حول حفلة في أحد البساتين دعاهم جميعهم أحد الأصدقاء لحضورها، في عطلة نهاية الأسبوع، صرّح (جورج) بلهجة حاسمة:

(لا تحسبوا حسابي، فأنا لن أكون هنا).

فسألته أمه:

- أوه! يا جورج، وكيف ذلك؟

- إنّ عملي يناديني، وسأسافر إلى (مونيخ) يوم الأحد.

فخيّم الصمت الكئيب والمريب على الجوّ: وكل واحد من الحاضرين أخذ يبحث عما يقوله، ولكن، خوفاً من التفوه بكلمة غير مناسبة، لم يفتح أحد منهم فمه، وانتهت وجبة الغداء عبر الصمت المطبق. ثم ذهب (جورج) إلى الحديقة. ولجأ الآخرون:

(الليدي بلاند العجوز) (موريل) وسير (أدولفوس) و(فيردي) إلى قاعة التدخين. وهناك عقدوا اجتماعاً لمجلس العائلة. فأخذت (موريل) تبكي، واستبدّ الغضب بـ(فريدّي). وبعد قليل، سمعت بعض نغمات إحدى معزوفات (شوبان) صادرة من الصالون. وكان (جورج) هو الذي يعزفها. ويبدو أنه بعد أن أعلن عن قراره، عاد، وهو أكثر انفراجاً وقوة إلى المعزف العزيز على قلبه.

فقفز (فريدّي) صائحاً:

(أوقف هذه الأصوات، أنا أمنع عزف البيانو في منزلي.

واستدعت (موريل) أحد الخدم:

(أبلغ، من فضلك، السيد جورج أنّ السيدة البارونة تشعر بصداع شديد وترجوه أن يكفّ عن العزف).

وقَدم الرجاء لـ فيردي، وهو الرجل الاجتماعي الظريف أن يتكلم مع جورج، وخوّل بأن يعطيه بعض الوعود إذا تخلّى عن اهتمامه بالبيانو:

وإذا كان العمل الدبلوماسي لا يغريه، فإنّ والده لا يصر على ذلك، ولكن إذا أراد التقدم إلى البرلمان، فإنّ السير (أدولفوس) مستعد لتقديم نفقات الحملة الانتخابية، ولاستئجار منزل ليقيم فيه في لندن، وليعطيه خمسة آلاف جنيه كراتب سنوي لنفقاته، وهو، بالحقيقة، عرض مغر. وأنا أجهل ماذا قال (فيردي) لابن أخته، ولا شك أنه رسم له لوحة جميلة ومغرية جداً للحياة التي يمكن لشاب أن يمضيها في لندن، عندما تتوفر له مثل هذه الموارد. ولكن كل هذا لم يغره ولم يكن له أي تأثير عليه. وكل ما كان يطلبه (جورج) هو خمسة جنيهات بالأسبوع لكي يتابع دراسته، غير مبال بمشاريع المستقبل الواعدة وراضياً بأنه يترك وشأنه: فهو لا يرغب بالقيام بالصيد بمساعدة الكلاب، ولا بممارسة لعبة (الجولف) ولا بمقعد في البرلمان. ولا يريد أن يصبح مليونيراً، ولا (بارونا) ولا أحد أعيان إنكلترا. فنفد صبر (فيردي) وتركه مهزوماً، بعد أن غَلب على أمره..

وفي ذلك المساء بعد وجبة العشاء، حدثت مشاحنة مخيفة، إذ إنّ (فريدّي) الذي لم يكن يقبل أن يخالفه أو يتحداه أحد، تكلم مع (جورج) بصراحة وعنف وبكل قسوة. والنساء اللواتي حاولن تهدئته، طلب منهن بجفاء أن يلزمن الصمت. وربما للمرة الأولى، رفض الإصغاء لأمه، وظل (جورج) يبدي العناد: لقد اتخذ قراره، وإذا كان هذا القرار لا يناسب أباه ولا يوافقه، فهذا مما يؤسف له ولكنّ الأمر سيّان!

وقال له أبوه إنه يمنعه منعاً قاطعاً من العودة إلى ألمانيا. فردّ بقوله: (لقد بلغت الحادية والعشرين وأستطيع الذهاب إلى حيث يحلو لي).

فأقسم (فريدّي) أنه سيقطع عنه مرتّبه.

- وهذا مفهوم، سأعمل وأكسب معيشتي).

- أنت الذي لا تصلح لشيء، ماذا تريد أن تعمل لتكسب معيشتك؟

فقال الوارث ساخراً:

- سأبيع الملابس العتيقة.

فذهل الجميع، وبدر من (موريل) هذا التعليق:

- كأحد اليهود؟

- إيه، ألست يهودياً، وأنت ألست يهودية، وأبي أليس يهودياً؟ كلنا يهود ولا أحد يجهل ذلك، فيا للشيطان، لماذا ننكر أصلنا؟)

عند ذلك حدث أمر مخيف ومحزن: فقد أجهش (فريدّي) في البكاء. ولم يعد يشبه أبداً السير (أدولفوس) عضو مجلس النواب، ولا النبيل الإنكليزي، كما كان يرغب أن يكون، بل أحدهم الذي يدعى (أدولف بليكوجيل) متباكياً لانهيار أحلامه وآماله التي علقها على ابنه المحبوب، كان يتنهّد ويزفر مرهقاً كالحطاب وينتزع شعر لحيته ويدقّ على صدره، متأرجحاً من الأمام إلى الوراء. وفي نهاية الأمر، أخذ الجميع يبكون: الليدي (بلاند) العجوز، (موريل) وكذلك (فيردي) الذي كان ينخر ويمخط، ويجفّف دموعه. كما أنّ (جورج) أخذ يبكي أيضاً، حقاً لقد كان المشهد أليماً ومحزناً، ولكن بالنسبة للإنكليزي الحقيقي والأصيل، فهو يبدو مضحكاً. ولم يكن أحد يحاول مواساة الآخرين، كان الجميع منصرفين إلى البكاء، وإلى المزيد من البكاء.

ولكن الوضع لم يتغير، ولم ينفرج رغم كل ذلك: فقد ظل (جورج)

مصراً على قراره، لا يتزحزح عنه. ولم يعد والده يوجه له الكلام. وحدثت أيضاً بعض الصيحات والتفجّرات. وأخذت (موريل) تحاول تليين ابنها الذي كان يصمّ أذنيه عن سماع توسلاتها، مبدياً اللامبالاة حيال كل شيء، حتى حيال المجازفة بجعل والده يموت حزناً.

عند ذلك، أخذ (فيردي) يحاول إقناعه، مستنهضاً لديه الروح الرياضية والاجتماعية، فكان (جورج) يردّ بالمزاح والسخرية وبتلميحات جارحة موجّهة إلى خاله، والجدة العجوز حاولت بلكنتها الألمانية وحسّها السليم، أن تسمعه صوت العقل وتردّه إلى جادّة الصواب. ولكنه لم يصغ لها أيضاً أكثر ممّا أصغى إلى الآخرين. ومع ذلك، فقد كانت هي التي وجدت، في نهاية الأمر، حلاً للمشكلة. إذ إنها قالت: لماذا يتخلّى عن كل امتيازات الثروة والمنشأ قبل أن يعرف فيما إذا كانت موهبته تبرر هذه التضحية؟ هو يعتقد أنّ لديه هذه الموهبة، ولكن ماذا لو كان، بالمصادفة، مخطئاً في تقديره؟ وإذا كان يضحّي بكل ذلك، لكي يصبح عازف بيانو من الدرجة الثانية، فهذا لا يستحق هذه التضحية. ولكنّ العبقرية تبررّ كل شيء، فإذا كان يتمتّع بالعبقرية فإنّ الأسرة ستوافق وتنحني أمام رغبته.

فقال (جورج):

لا يمكنكم أن تطلبوا مني منذ الآن تقديم الدليل على العبقرية، يجب أن أعمل خلال عدّة سنوات

- وهل تعتقد أنك تستطيع أن تفعل ذلك؟

- إنّ هذه هي رغبتي الوحيدة، وسأجدّ وأكدّ، على الدوام كما يفعل أيّ زنجي، فهذه فرصتي أريد أن أستغلها وأن أجرب حظي).

وقد اقترحت (الليدي العجوز) ما يلي:

الأب مصرّ على قطع المرتب عن ابنه، ولكن لا يمكن أن ندع هذا الشاب يموت من الجوع. وقد طلب خمسة جنيهات بالأسبوع، هذا

حسن، فهي مستعدة لإعطائه إياها. ويمكنه أن يعود إلى ألمانيا، حيث يتابع الدراسة لمدة سنتين، وبعد ذلك، عليه أن يرجع إلى لندن، وستدعو أسرته شخصاً مختصاً وكفوءاً ليستمع لعزفه، فإذا تبين لهذا الشخص أنه يتمتع بالموهبة التي تؤهّله لأن يصبح عازفاً عظيماً، فسوف تسمح له أسرته أن يتابع عمله في هذا المجال، وستقدم له جميع التسهيلات، بل والدعم والتأييد أيضاً. ولكن إذا بدا أنّ استعداده لهذا غير كاف، عليه أن يتخلى عنه بصدق وإخلاص، وأن يعمل على تحقيق رغبات والده بكل دقة.

فلم يصدق (جورج) أذنيه، وسأل جدته:

(أتتكلمين بجدّ، يا جدتي؟

- بكل جدّ

- وهل يقبل أبي بذلك؟

- سأتدبّر الأمر، وأجعله يقبله.

فضمّها جورج بين ذراعيه، وقبّلها بحماسة شديدة على الخدّين:

(آه، يا جدّتي العزيزة.

- آه، ولكن، أين وعدك؟)

فأقسم لها بشرفه أنه سيحترم هذا الاتّفاق وبعد ذلك بيومين، عاد إلى ألمانيا. وخضع أبوه، وهل كان بإمكانه أن يفعل شيئاً سوى هذا؟ ومع ذلك فإنه لم يتصالح معه، ورفض أن يودّعه، وأعتقدَ أنّ لا شيء كان أشدّ صعوبة وإيلاماً من ذلك بالنسبة للسير (أدولفوس).

أعتقد (جورج) أنّ أهله سيتركونه وشأنه طيلة هذين العامين، ليتفرّغ للدراسة. وهكذا عندما علمت (موريل) قبل عودة ابنها ببضعة أشهر، أني سأمر بميونيخ في طريقي إلى (فيينّا) لمتابعة بعض أعمالي

هناك، طلبت مني أن أذهب لأراه. وأعطتني عنوانه، فأرسلت له رسالة. وتوقفت، ذات يوم، في ميونيخ، ودعوته ليتناول طعام الغداء معي. ووجدت جوابه ينتظرني في الفندق:

إنه يشتغل طيلة النهار، وليس لديه الوقت لتناول طعام الغداء في المدينة، ولكن إذا أردت أن أمرّ عليه في مشغله حوالي الساعة السادسة، ويسعده أن يرافقني لتمضية الأمسية معي، إذا لم يكن لديّ ما هو أفضل من ذلك لتمضيتها. وبعد الساعة السادسة، بقليل ذهبت لمقابلته: كان يقيم في الطابق الثاني من بناء ضخم يشبه الثكنة، وعبر الباب، سمعت بعض نغمات البيانو. وهو الذي فتح لي: فوجدت صعوبة في معرفته، فقد ازداد سمنة، وشعره الطويل منسدل حول رأسه في فوضى غريبة، وبالتأكيد لم يكن قد حلق شعر ذقنه منذ ثلاثة أيام.

كان يرتدي بنطالاً وسخاً، قميصاً رياضياً وحذاءً من القماش، ويحيط بأظافره شريط أسود. فأين أصبح الشاب الغندور المتأنّق الذي فارقته في إنكلترا؟ ولو رآه (فيردي) لذهل لدى رؤيته إياه في هذه الحالة. كان (المشغل) واسعاً وأثاثه في حالة بائسة. وعلى الجدران، علّقت ثلاث أو أربع لوحات من النمط التكعيبي، بدون إطارات. وفي المكان بعض الأرائك التي كانت بحاجة للصيانة والتغطية، وبيانو صغير. وكانت الكتب والجرائد والمجلات مكدّسة كيفما اتفق: فيالها من فوضى ويالها من قذارة وكانت تنتشر في الجو رائحة البيرة التي مضى عليها وقت طويل ورائحة التبغ البارد.

فسألته: (أهنا تقيم؟)

- نعم، وهنالك امرأة تأتي مرتين في الأسبوع للعناية بالمنزل، ولكني، أنا أحضّر لنفسي طعام الإفطار والغداء.

- إذن أنت تجيد الطبخ؟

- أوه أنا لا أتناول عند الظهر سوى الخبز والجبن وزجاجة بيرة،

وأتناول طعام العشاء، في إحدى الحانات التي تقدم البيرة.

وقد سرتني كثيراً فرحته بلقائي، كان يبدو سعيداً، رائق المزاج.

وسألني عن أخبار أهله، وتحدثنا بعد ذلك عن كل شيء. كان يأخذ درسين في الأسبوع، وفي بقية الوقت كان يعمل ويتدرّب عشر ساعات في اليوم.

وقلت له: (لقد تغيّرت كثيراً)

فأخذ يضحك، ثم قال:

(يدّعي أبي أني ولدت كسولاً، وأنّ هذه طبيعتي، وهذا غير صحيح، ولكن لماذا أرهق نفسي من أجل أمور لا تروق لي، بل وتزعجني؟)

فسألته فيما إذا كان يحقّق بعض التقدم، فبدا راضياً عن ذلك، وحاولت دفعه للجلوس إلى البيانو، فقال:

(أوه ليس الآن، فأنا منهك، لقد عزفت بصورة متواصلة طيلة النهار. هيا بنا لنتعشّى، ثم نعود إلى هنا، فأعزف لك بعض المقطوعات. إني أذهب دائماً إلى المكان نفسه، لأني أعرف فيه عدة طلاّب، وهم فكهون تماماً، كما سترى).

فلبس جوارب وحذاء، وارتدى سترة قديمة جداً كالتي يرتديها لاعبو (الجولف) وسرنا سوية في الشوارع العريضة والهادئة. كان البرد قارساً، وجورج يسير بخطوات رشيقة ويلقي هنا وهناك نظرات تنمّ عن الغبطة والسرور:

(إني أحبّ (ميونيخ) حبّ العبادة، فهي المدينة الوحيدة في العالم التي ينتشر فيها الفن حتى في الهواء الذي نستنشقه وعلى أية حال، فإنّ الفن هو الشيء الوحيد الذي يحسب له حساب، ألا ترى ذلك؟ إنّ فكرة العودة إلى منزل الأسرة تثير غيظي وترعبني.

- أخشى، أن تكون مع ذلك، مضطراً لهذه العودة.

- أعرف هذا، ولكني أفضّل عدم التفكير فيه.

- وفي الوقت الحاضر، اسمح لي أن أقول لك إنّ عليك أن تذهب إلى صالون المزين، لأنّ مظهرك يزيد (فنّية) عن الحاجة.

- يالكم من محافظين بَلداء، أنتم أيها الإنكليز!

واقتادني إلى مطعم كبير، في شارع جانبي، مفروش على الطراز (القوطي) الألماني، الذي يتّصف بالضخامة والثقل. وكان المطعم يغص في تلك السّاعة بالرواد الذين يتناولون طعام العشاء. وهنالك مائدة مغطاة بستارة حمراء، بعيدة عن تيار الهواء، محجوزة لجورج وأصدقائه.

كانوا أربعة أو خمسة شباب، ونهضوا عند وصولي: بولوني يدرس اللغات الشرقية، طالب فلسفة ورسّام - ولاشك أنه هو الذي رسم لجورج اللوحات التكعيبية - وشاب سويدي، وآخر، قدم لي نفسه وهو يضرب الأرض بكعبيه، قائلاً باللغة الألمانية: (هانس ريّتنغ) شاعر. وأكبرهم سنّاً لم يكن قد تجاوز الثانية والعشرين، لذلك وجدت نفسي غريباً بينهم.

كان الجميع يتحدّثون مع جورج، دون كلفة، ولاحظت أنه يتكلم الألمانية بطلاقة. وأنا كانت تنقصني ممارسة التكلم بهذه اللغة، ولذلك لم أكن أستطيع، رغم رغبتي بذلك، المشاركة في أحاديثهم المرحة. ومع ذلك، فقد كنت ألهو، وقد سرني ذلك. لم يكونوا يأكلون شيئاً، بل يكثرون من احتساء البيرة، ويتحدثون في الفن والأدب، عن الأخلاق والنساء، والأكواب في أيديهم. ولأنهم ثوريون جداً، فهم رغم مرحهم الواضح كانوا يتناولون المواضيع بجدية تامة، ويعلنون احتقارهم للمتبجّحين من رجال الدين. ولكنّهم كانوا يتفقون على الاعتراف، أنه في هذا العالم الذي يسير بالمقلوب، فإن الابتذال والسوقية وحدهما، هما اللذان يؤمّنان النجاح. وكانوا يناقشون بحماسة واضحة بعض

المواضيع التقنية، ويختلفون، يصرخون ويتلفّظون بكلمات نابية وحوالي الساعة الحادية عشرة، ذهبت أنا وجورج إلى (مشغله) وميونيخ مدينة يمرح الناس فيها ويقيمون الحفلات، باعتدال وانتظام. وفيما عدا ميدان (المارينبلاز)، كانت الشوارع قد أصبحت مقفرة، وخلت من المارّة.

وعند دخول (جورج) نزع قبعته، وقال:

(الآن سأعزف لك)

فجلست على إحدى الأرائك الخربة ووخزني في مؤخرتي نابض مكسور. ولكني جلست كأحسن ما استطعت. وعزف (جورج) بعض مقطوعات (شوبان). وأنا معرفتي بالموسيقا ضئيلة. وهذا هو أحد الأسباب التي جعلتني أتردّد في سرد هذا الجانب من القصة.

وعندما كنت أذهب إلى حفلة موسيقية في (صالة الملكات) وأقرأ البرنامج في فترات الاستراحة، كنت لا أفهم منه شيئاً، وكان بالنسبة لي كأنه كتب باللغة الصينيّة. فأنا أجهل كل شيء عن انسجام وتناغم الألحان وإيقاعها ولن أنسى ما حييت المذلّة التي شعرت بها ذات يوم في ميونيخ، حيث ذهبت لحضور مهرجان موسيقي أقيم احتفالاً بذكرى مولد (فاغنر) فشهدت عرضاً رائعاً لأوبرا (تريستان)، دون أن أسمع منها لحناً واحداً. فمنذ البداية، شردت وأخذت أفكر بمسرحية كنت أكتبها، ونشطت شخصياتها، وصرت أستمع إلى حواراتهم وأحاديثهم المطوّلة.

كنت أشاطرها آلامها وأفراحها. وكانت السنوات تمر حاملة أحداثها الكثيرة، والربيع يحمل لي بهجته، وفي الشتاء كنت أرتجف من البرد، وأعاني من الجوع، أحبّ، أكره وأموت. ولا شك أنه كان هنالك فواصل للاستراحة، كنت أتجوّل خلالها في الحديقة حيث أحتسي البيرة وأتناول بعض المأكولات الخفيفة، ولكني لم أحتفظ من ذلك بأية ذكرى. وعندما أسدلت الستارة لآخر مرّة، استيقظت مذعوراً. ولقد

قضيت وقتاً ممتعاً لا مثيل له، ولكن أن أكون أتيت من مكان بعيد، وأنفقت كثيراً من النقود، لكي أبدو غير قادر على الانتباه إلى تلك الدرجة؟

كنت أعرف معظم مقطوعات (جورج) فهي تَعزف كثيراً في الحفلات الموسيقية. وعزف بحميّة وحماسة. ثم أخذ يعزف مقطوعة (L'Appassionata) (الشغف) التي كنت أنا أعزفها في فترة شبابي، ومازلت أذكرها نغمة نغمة، والحقيقة أنها تحفة خالدة ولكنها، في ذلك الوقت، عند منتصف الليل، فهي لم تثر شغفي، واستمعت إليها ببرود. مثلها في ذلك مثل مقطوعة (Le Paradis perdu): (الفردوس المفقود) الرائعة، ولكنها تبدو لي ثقيلة، عسيرة على الهضم. وهذه (السوناتا) عزفها أيضاً (جورج) بقوة وحماسة. كان وجهه يتصبب عرقاً. وقد أثار اهتمامي شيء مّا في عزفه، ولكن ما هو؟ لقد لاحظت فجأة أن يديه لا تعملان معاً في آن واحد، وأنّ هنالك على الدوام فترة قصيرة بين عمل اليد اليسرى وعمل اليمنى، ولكني أعود فأقول اني لست خبيراً بالموسيقا. وهذا الأمر الذي أثار اهتمامي وحيرني ربما كان سببه تأثير زجاجات البيرة العديدة التي احتساها في تلك الأمسية، أو أنه من نسج خيالي.

وأثنيت عليه كثيراً، فقال:

(أوه! مازال عليّ أن أعمل كثيراً، لست إلاّ مبتدئاً، ولكنني سأتوصّل.

فهذا أحسّه في دمي. ولا يزال أمامي عشر سنوات لأصبح عازف بيانو، **وعازفاً حقيقياً**.

وترك البيانو، وهو منهك القوى، فنهضت لكي أنصرف، ولكنه استبقاني وفتح زجاجتي بيرة، فهو يريد التحدث إليّ وسألته: (هل أنت سعيد هنا؟

فأجابني بلهجة جادّة

- جداً، كم أودّ أن أمضي حياتي كلها هنا، فلم يسبق لي أن شعرت بمثل هذه السعادة في أي مكان آخر. وهذه الأمسية، مثلاً، ألم تكن رائعة؟

- مرحة جداً، ولكن لا يمكن أن يعيش المرء على الدوام حياة الطالب. وأصدقاؤك هؤلاء سيتقدمون في السن ويرحلون.

- وسيأتي غيرهم، فهنا يوجد كثير من الطلاب، بشكل دائم.

- نعم، ولكن أنت أيضاً ستتقدم بك السنّ، وليس هنا لك من يثير الأسى والحزن أكثر من الرجل الذي تقدّمت به السنّ، ومع ذلك يظل يعتقد أنه مازال في الزمن الذي كان يحضّر فيه فحوصه. والعجوز الذي يريد أن يكون شاباً مع الشباب ويحاول الاطمئنان إلى أنهم يتقبلونه ويعتبرونه واحداً منهم، ولكنه كم يبدو سخيفاً ومضحكاً!

- إني أشعر هنا أني في بيتي تماماً! وأبي المسكين يريد أن أصبح (جنتلماناً) نبيلاً إنكليزياً وهذه الفكرة تجعل بدني يقشعرّ، فأنا لست رياضياً، ولا أهتم بالصيد، ولا بلعبة الكريكيت، كنت أتظاهر بغير ما أضمر، ساخراً من كل ذلك.

- كنت تقوم إذن بذلك بشكل ناجح وطبيعي.

- وفي (ميونيخ) فقط أدركت كل هذا، كنت أحب كلية (ايتون) وأكسفورد كانت عبارة عن ملهاة جميلة، ومع ذلك لم أكن أشعر أني مرتاح ومسرور فيها، كنت أحافظ على المظاهر، لأنّ ميزة القدرة على التكيف تسري في دمائي، ولكن كان هنالك شيء في نفسي، لم يرتو، ولم يكن راضياً. والفندق الكائن في ميدان (جروسفنور) تعود ملكيته لنا، وأبي دفع ثمن ملكية (تيلبي) مائة وثمانين ألف جنيه، ولا أدري إن كنت تفهمني أم لا: فأنا لديّ انطباع بأن (تيلبي) والفندق ليسا سوى منازل مفروشة استأجرناها لموسم معيّن، وأنّ أصحابها الحقيقيين

سيعودون، في يوم من الأيام، ولن يكون علينا عند ذلك، سوى أن نحزم حقائبنا وننصرف.

كنت أصغي إليه بانتباه شديد، فهل كان يصف ما كان قد تصوّره بصورة غامضة ومشوّشة، أم أنه شعر حقاً بذلك، وهو يعيش حياته في ظروف وأوضاع جديدة؟

وكنت أشعر بالغيظ من الحكايات اليهودية التي يرويها خالي (فيردي) وأجدها تثير الاشمئزاز والآن، أدركت الواقع الذي كان يحثه ليرويها: كانت صمّام الأمان بالنسبة له. يا إلهي، أي توتر، وأي جهد مستمر لكي يبدو على الدوام رجلاً اجتماعياً! بالنسبة لأبي، الأمر سهل، فهو يقوم بدور السيد الإنكليزي القديم، في (تيلبي) ولكنه في المدينة، ينطلق على سجيته، وهو محق في ذلك. وأنا ألقيت قناعي جانباً، ونزعت عني ملابس التنكّر، وأخيراً، أنا أيضاً وجدت ذاتي، وأصبحت أنا نفسي بالذات، وقد انفرجت وارتحت بذلك! أتعلم أني لا أحب الإنكليز؟ فمعكم، أيها الإنكليز، لا أعرف كيف أتصرّف، فأنتم تقليديون جداً، باهتون، تعتريكم كآبة لا تفارقكم، وتجهلون العفوية الطبيعية، وكم أنتم هلعون جبناء تعانون على الدوام من هذا الخوف المرضي من الخطأ والزلل!

فقلت له بهدوء، متمتماً:

- لا تنسَ أنك، أنت نفسك، إنكليزي، يا جورج.

فقهقه ضاحكاً:

(إنكليزي؟ أنا؟ هيهات! كلا، على الإطلاق فليس لديّ قطرة من الدم الإنكليزي في أوردتي. أنا يهودي، وأنت تعرف ذلك، بل ويهودي ألماني أيضاً. وعلاوة على ذلك فإني لا أريد أن أكون إنكليزياً، أريد أن أكون يهودياً، فأصدقائي كلهم يهود، وأنت لا تدري إلى أي درجة أشعر أني على طبيعتي وفي بيئتي، عندما أكون معهم، وأتصرف على سجيتي.

وفي بيتنا، كنا نفعل كل شيء لكي نتهرب من اليهود. وأمي، لأنها شقراء، تتصور بأنها تستطيع إقناع الناس بأن يعتبروها مسيحية، فياله من وهم! تصوّر أني أسرّ كثيراً وألهو، في (الغيتو) (حي اليهود) وأنا أراقب الناس هناك. وقد ذهبت مرّة إلى (فرنكفورت) - حيث يوجد الكثير من اليهود - وتجولت بين البؤساء والمقمّلين، ذوي الأنوف المعقوفة، والنساء السمسارات والقوادات ذوات الشعر المستعار. وكم كنت أشعر بالمودة نحوهم! كنت أنتمي إليهم وأستطيع تقبيلهم. وعندما كانوا ينظرون إليّ، كنت أتساءل عمّا إذا كانوا يعرفون أني من جماعتهم. وكم كنت أودّ معرفة لغتهم: (اليدّيش)! (اللغة العبرية الألمانية) كنت أرغب بالاتصال بهم، والدخول إلى بيوتهم، لآكل (الكوشر) وأعيش حياتهم. وشعرت برغبة ملحة للذهاب إلى الكنيس، ولكني خشيت من عدم معرفتي كيف يجب أن أتصرف هناك، ومن أنهم سيطردونني عند ذلك، أحب رائحة (الغيتو) وازدحامه، أسراره وخفاياه ورومانسيته، والغبار والأقذار التي تكتنفه. والآن أشعر على الدوام، بالحنين نحوه، فهو الشيء الوحيد الحقيقي، وكل ما تبقى ليس سوى زيف وتصنع.

- إنك ستحطم قلب أبيك.

- سيكون قلبه أو قلبي الذي سيتحطّم، لماذا لا يدعني وشأني فلديه (هارّي) وهارّي يتمنى أن يصبح سيد (تيلبي) فهو يصبو إلى ذلك، وأنا أتصوره ناجحاً جداً في دوره كجنتلمان إنكليزي. وتحلم أمي بتزويجي بإحدى المسيحيات، و(هارّي) من جهته لا يرغب إلاّ بذلك. فهو سيصبح كالسمكة في الماء وهو في أحضان أسرة إنكليزية عريقة. وبعد كل شيء، فماذا أطلب؟ إني أطلب خمسة جنيهات بالأسبوع، ويمكنهم الاحتفاظ باللقب، بالحديقة، وبلوحات (غينسبوروج) وما تمثله من أملاك، وبكل بقية الأشياء المتراكمة.

- هذا لا يمنع من القول أنك قطعت وعداً بالعودة بعد سنتين وأقسمت بشرفك على ذلك.

فقال بلهجة تنم عن الغمّ:

- إني أنوي تنفيذ هذا الوعد تماماً، وقد وعدت (ليليا ماكارت) أن تأتي لتسمعني.

- وماذا لو أنها رأت أنّ ليس لديك الموهبة الموسيقية؟

فقال بمرح: (سأقتل نفسي، وبهذا ينتهي كل شيء!

فأجبته باللهجة نفسها: (يا لها من كذبة مضحكة!)

- وأنت، هل تشعر وأنت في إنكلترا، أنك في بيتك؟

- كلا، ولكني لا أشعر أني في بيتي، في أي بلد كان).

وهذا، بالطبع، أمر لم يكن يهمه، ولا يعنيه أبداً.

(إنّ هذه العودة تخرجني عن طوري، والآن، بعد أن عرفت ماذا يمكن أن تقدم الحياة، فأنا لا أريد مقابل أي شيء في العالم أن أصبح سيداً إنكليزياً ريفياً، فياله من برنامج، يا إلهي!

- إن للثروة فوائدها وميزاتها، ولا يمكنك إقناعي أنّ السيد الملاك في إنكلترا، يعيش في حالة يرثى لها.

- إني أهزأ بالمال، ولا يعنيني أي شيء مما تيبحه، وأنا لست من المغرورين الذين يحبون التبيّن والظهور).

كان الوقت قد تأخر، وعلي أن أنهض من فراشي في اليوم التالي، في الصباح الباكر. ولم أعلّق أهمية كبيرة على أحاديث (جورج) فهي ليست سوى هذيان وثرثرة شاب، وجد نفسه فجأة وسط ناظمي الشعر الرديء وتلامذة الرسم الفاشلين. والفن خمر ثقيل ومسكر، يتطلب رأساً قوياً وصلباً لكي يتحملّه. والنفحة الإلهية تصبح أكثر خصباً وعطاءً لدى أولئك الذين يخفف الحسّ السليم من نزقهم وحدتهم. ولم يكن (جورج) قد بلغ الثالثة والعشرين، والزمن معلّم

ماهر، وعلى أية حال، فإنّ مستقبله لا يعنيني. لذلك تمنيت له ليلة سعيدة، وعدت إلى فندقي، وكانت النجوم تتلألأ، بلا مبالاة، في السماء الصافية وفي صباح اليوم التالي، غادرت ميونيخ.

وبعد عودتي، لم أرو لـ (موريل) ما باح لي به (جورج) ولم أحدثها عن انطباعاتي عنه، واكتفيت بطمأنتها أنه سعيد وبصحة جيدة وأنه يعمل كثيراً، ويبدو أنه يعيش حياة بسيطة ومتزنة، وبعد انقضاء ستة أشهر، عاد إلى إنكلترا، فدعتني (موريل) لتمضية عطلة نهاية الأسبوع في (تيلبي) وكان على (فيردي) أن يَحضر (لياماكارت) لكي تستمع إلى عزف (جورج) وهو يرغب كثيراً بحضوري أيضاً، فقبلت الدعوة. وأتت (موريل) لتصطحبني من المحطة، عند ذلك سألتها: (كيف وجدت (جورج)؟

- لقد أصبح بديناً جداً، ولكنه يتمتع بمزاج رائع، وأعتقد أنه مسرور جداً لعودته إلى هنا، وقد بدا لطيفاً جداً مع والده.

- إنّ هذا يسرني كثيراً.

- أوه! يا عزيزي، المهم أن تثنيه (لياماكارت) عن عزمه.

عند ذلك أي انفراج سنشعر به جميعنا!

- ولكني أخشى أن يسبب له ذلك خيبة أمل شديدة.

فقالت (موريل) بلهجة تشوبها المرارة.

- الحياة طافحة بخيبات الأمل، ولكننا نتعلّم تحملها ونعتاد على ذلك)

وأخذت أنظر إليها بابتسامة لاهية، كانت تَنقلّنا سيارة (رولز) ويرافقنا خادم يجلس بجانب السائق. وقد طوّقت (موريل) عنقها بعقد من اللؤلؤ، لابدّ أنه يساوي قرابة أربعين ألف جنيه. وتذكرت أنّ السير (أدلفوس بلاند) لم يكن أحد السّادة الثلاثة، التي رأى صاحب الجلالة

الكريمة، الملك، أن يمنحهم، بمناسبة عيد ميلاده الأخير، لقب النبالة وعضوية مجلس اللوردات.

لم تكن (ليياماركارت) تستطيع إطالة زيارتها لتبلبي، فقد كان عليها أن تعزف، مساء اليوم نفسه في (بريتون) وهي ستأتي لتتناول طعام الغداء يوم الأحد، قادمة بالسيارة، ثم تعود إلى لندن، لأنّ لديها حفلة موسيقية في (مانشستر) يوم الاثنين. ولذلك فهي ستستمع لجورج، بعد الظهر.

وقالت لي أمه: (إنه يعمل بشكل حثيث على الدوام، ولذلك فإنه لم يأت معي لاستقبالك).

ووصلنا إلى مدخل الحديقة. وكان هنالك طريق رائع تظلّله أشجار الدردار، يتجه صعوداً نحو القصر. وكنت المدعوّ الوحيد.

كان الفضول يدفعني على الدوام للتعرف على الجدة العجوز (الليدي بلاند) كنت أتصورها امرأة طاعنة في السنّ، عجوز يهودية، ذات طابع خاص جداً، تقيم في مسكنها الجميل الكائن في ميدان (بورتلاند) ومن هناك تدسّ أنفها، وتتدخل في كل شيء، مسيّرة بالعصا العائلة كلها. ولم أكن مخطئاً. فقد بدت لي امرأة ضخمة، طويلة القامة، قوية البنية، دون أن تكون بدينة، تدل ملامحها بوضوح إلى أصلها اليهودي. وكان شارب ظاهر يعلو شفتها. وتضع على رأسها (باروكة) من الشعر المستعار الأسمر المحمر، تبدر منه تموجات معدنية خاصة جداً، وكانت ترتدي فستاناً فخماً من (البروكار) الأسود، وعلى صدرها يتلألأ مشبك تزينه ماسات كبيرة ويطوّق عنقها عقد من الماس أيضاً، وكذلك خواتم مرصعة بالماس تزين أصابع يديها الذابلتين.

وكانت تتكلم بصوت أجشّ، وبلكنة ألمانية واضحة: وعندما قُدمت لها، تفرست بي بعينيها اليقظتين، واتخذت قرارها بشأني في الحال، ولم تبذل أيّ جهد لتخفي عني أني لم أعجبها.

وقالت، بلهجتها الألمانية الحلقية:

(أنت تعرف أخي (فريديناند) منذ زمن طويل، أليس كذلك؟

فهو يعيش على الدوام في أفضل مجتمع، أين السير (أدلفوس) يا موريل؟ هل قال له أحد أنّ صديقه هنا؟ وجورج؟ إذا كان لا يجيد عزف مقطوعاته الآن، فإنه لن يجيد عزفها غداً.

فشرحت لها (موريل) أنّ (فريدّي) يلعب (الجولف) مع سكرتيره، وأنه سينهي اللعبة في الحال، وأنها أخبرت (جورج) أيضاً. فبدت الجدة غير راضية تماماً عن هذه الإجابة، والتفتت نحوي:

قالت لي كنّتي إنك كنت في إيطاليا

- نعم، يا سيدتي، أنا عائد، للتو، من هناك

- إنها بلاد جميلة، كيف حال الملك؟

فقلت لها بأني لا أعرف عنه شيئاً.

(لقد عرفته طفلاً صغيراً، ولم يكن قوي البنية آنذاك. وكانت أمه الملكة (مرغريت) إحدى أعز صديقاتي. وكان أكثر الناس يظنون أنه لن يتزوج أبداً. وقد غضبت دوقة (آوست) أشدّ الغضب، عندما وقع في حبّ تلك الفتاة القادمة من (مونت نيجرو) (الجبل الأسود) إحدى جمهوريات الاتحاد اليوغسلافي، سابقاً.

كانت تبدو كأنها تنتمي إلى عصر انقضى منذ زمن بعيد، ولكنها كانت يقظة جداً، وعيناها المكوّرتان لا يفوتهما شيء ودخل (فريدّي) بعد قليل، فبدا أنيقاً في ملابس (الجولف) التي كان يرتديها. كانت مسلية، بل ومؤثرة رؤية ذلك الرجل ذي اللحية البيضاء، المتسلط جداً، في الأحوال العادية، وهو يقف كالطفل الصغير أمام أمه العجوز. وأخيراً انضمّ (جورج) إلينا. كان قد ازداد بدانة، ولكنه عمل بنصيحتي وقص شعره، وفقدَ شكله كفتى يافع وبدا قوياً عريض المنكبين. وقد سررت لفرحته وهو يتناول الشاي ويلتهم الشطائر والكاتو.

فما زالت لديه شهية الطفل الصغير، وكان والده ينظر إليه بابتسامة تنم عن المحبة والحنان. وقد بدا لي أن التعلّق الذي يظهره الجميع نحوه، هو طبيعي جداً، إذ إنّ أريحيته، صدقه ومودته، كانت تغزو القلوب وتجذبها نحوه، فهل كان ذلك بناءً على نصيحة جدته أو بمحض اللطف من جانبه، أنه أخذ يلاطف والده بهذا الشكل؟

فبرؤية عيني (فريدّي) المتأثرتين، ومن الطريقة التي كان يتذوق بها كلامه، ومن تعابيره التي تنم عن الزهو والسعادة، يشعر المرء كم كانت ثقيلة عليه وطأة ذلك الفراق الذي دام سنتين، فهو يحب (جورج) حب العبادة.

وفي الصباح، لعبنا (الجولف) وكنا ثلاثة لاعبين فقط، لأنّ (موريل) ذهبت إلى القداس، وعند الساعة الواحدة وصل (فيردي) في سيارة (ليياماركات) فَهَيء طعام الغداء. وكنت على إطّلاع تام بشهرة (ليياماركات): فهي تعتبر أعظم عازفة بيانو في أوروبا.

و(فيردي) هو أحد المعجبين بها، سبق له أن ساعدها ودعمها في بداياتها، وهي تأتي للحكم على استعداد وموهبة (جورج) بناء على طلبه.

وفي فترة معينة، لم تكن تفوتني فرصة للذهاب والاستماع إليها: فقد كانت تعزف كالعصفور وهو يغرّد، دون جهد ظاهر، وكانت الألحان الشفّافة تنبعث من أصابعها الرشيقة بعفوية أخّاذة. وكل شيء كان يبدو مرتجلاً وعفوياً حتى تناغم الهارمونيّات والإيقاعات الأكثر تعقيداً.

وقد حدثني الكثيرون عن سرّ طريقتها في العزف، وهي طريقة عجيبة ومذهلة، ومع ذلك فإني كنت أتساءل على الدوام إلى أي حدّ كان سحر عزفها يعود إلى سحر شخصها: لقد كانت آنذاك أكثر المخلوقات أثيرية وشفافيّة. فكيف تستطيع هذه المرأة الخفيفة

والرشيقة أن تملك هذا القدر الكبير من الطاقة والقوة؟ كانت نحيلة، شاحبة، عيناها واسعتان، شعرها أسود ورائع، تعزف بحماسة الشباب الشديدة التي لا تقاوم. وجمالها كان أثيرياً روحياً لا جسدياً، وعندما تجلس إلى البيانو، تطوف على شفتيها المطبقتين إلى النصف، ابتسامة عذبة: فتبدو كأنها تتذكر أموراً سمعتها في عالم آخر. واليوم وقد تجاوزت الأربعين من عمرها. لم تعد تشبه أبداً تلك المرأة الرقيقة الأثيرية. فقد أصبحت قوية، ملامحها بارزة في وجهها المنتفخ، وبدت عليها السّطوة التي أتيحت لها خلال فترة طويلة من النجاحات المتتالية. كانت متمرّسة بالأعمال، ولكنها كانت تشع بالحياة القوية كما يشع بالقدسية جبين أحد الأنبياء.

ولم يكن يعنيها، أساساً، شيء سوى نفسها وذاتها، ولكن لأنها تتمتّع بروح الدعابة، وتحب الحياة الاجتماعية، فكانت تدير مصالحها وتعتني بها دون أن يبدو عليها أنها مهتمة بها أو قلقة عليها.

وكثيراً ما تشارك بالأحاديث دون أن تحتكرها.

لم يتكلم (جورج) كثيراً. ومن وقت لآخر كانت تلقي عليه نظرة، ومع ذلك فإنها لم تكن تحاول أن تجذب انتباهه إليها.

كنت المسيحي الوحيد، وكان الجميع، ما عدا الليدي (بلاند) العجوز، يتكلمون جيداً باللغة الإنكليزية، ولكن بلهجة خاصة. وأعتقد أنهم يشدّدون أكثر منا على الأحرف الصوتية، وبصوت أقوى، وتبدو الكلمات وكأنها تتدفّق، ولا تنساب انسياباً من بين شفاههم. ومن إحدى الغرف المجاورة حيث كان يمكنني أن أسمع حديثهم دون أن أتبيّن أو أفهم الكلمات؟ تولّد لدي انطباع بأنهم يتكلمون بلغة أجنبية. وكان هذا التأثير محيّراً.

ولأنّ (ليياماكارت) كانت تنوي السفر إلى لندن، حوالي الساعة السادسة، فقد تم الاتفاق على أن يعزف (جورج) عند الساعة الرابعة.

وأياً كانت نتيجة سماعها للعزف، فإني سأجد نفسي وكأنّ لا حاجة لوجودي بين أفراد تلك الأسرة، بعد رحيل هذه الفنانة، ولذلك فإني طلبت منها أن تصطحبني معها، بحجة أنّ لدي موعداً مهماً، في لندن صبيحة اليوم التالي.

وقبل الساعة الرابعة بقليل، توجهنا نحو الصالون. فجلست الليدي (بلاند) العجوز على الديوان بجانب (فيردي) وجلسنا، (فريدّي) (موريل) وأنا، على الأرائك، وجلست الفنانة في الجانب الآخر، بعيداً عنا، بعد أن اختارت، بالغريزة، كرسياً مسنده عال ومستقيم، شبيها بالعرش، وقد بدت فجأة جميلة جداً بفستانها الأصفر، ولون بشرتها، الأسمر الزاهي. وكانت عيناها الواسعتان تتوهجان كالجمر. وفي وجهها المخضب كان يبدو فمها الأحمر القاني.

وكان (جورج) هادئاً للغاية. وعندما دخلنا، أنا وأبوه وأمه، كان جالساً إلى البيانو، فنظر إلينا ونحن نأخذ أماكننا ونجلس ووجّه لي ابتسامة سريعة، وحالما رآنا نجلس بدأ بالعزف: فقد عزف بعض مقطوعات (شوبان) ومقطوعتين من إيقاع (الفالس) كنت معتاداً على سماعهما، ومقطوعة بولونية، وأخرى من نوع (الدراسة) وقد نفذ ذلك بمزيد من الحمية والحماسة. وكم كنت أود أن أكون موسيقياً كي أستطيع إعطاء فكرة صحيحة عن عزفه. كان يتمتع بالقوة والاندفاع، ولكن كان ينقصه، ما أعتبره أنا، السحر الآسر الوحيد لدى (شوبان) أي الحنان والكآبة المرضيّة، الفتنة الحالمة، والطابع الرومانسي القديم بعض الشيء، الذي يجعلني دائماً أفكر بأحد تلك الألبومات التي تحوي الذكريات، والتي كانت كثيرة الرواج في عصر شباب الملكة فكتوريا. وفي هذه المرة أيضاً، كان لديّ إحساس غامض، ودقيق جداً، بحيث أنه يكاد لا يَدرك، بأنّ يديه لا تعملان ولا تدقّان سوية وبالوقت نفسه. ولاحظت فجأة نظرة تنمّ عن الدهشة، وجهها (فيردي) إلى أخته. كانت، منذ

البداية، عينا (موريل) لا تتحولان عن ابنها، ولكنها، بعد قليل أطرقت وخفضت بصرها، وظلّت تنظر إلى الأرض، حتى آخر الوقت. وكان والده، وهو بادي الاهتمام والوقار، يراقبه أيضاً. وشيئاً فشيئاً، لاحظت أنه أخذ يشحب، وبدت على وجهه تعابير تنم عن شيء من اليأس. كانت الموسيقا في دم جميع أفراد هذه الأسرة، وقد استمعوا إلى عزف أشهر عازفي البيانو في العالم، ويتذوّقون الموسيقا ويقيّمونها بثقة غريزية. أمّا (ليياماكارت) فكانت الوحيدة التي لم يبد عليها أي تأثّر. كانت ساكنة كالتمثال على قاعدته، تصغي بانتباه شديد وبجميع جوارحها.

وأخيراً توقف (جورج) عن العزف، والتفت نحوها. فسألته، وقد حدّق أحدهما بالآخر:

ماذا تريد أن أقول لك؟

(أريد أن تقولي لي، فيما إذا كنت، بعد مرور بعض الوقت، أستطيع أن آمل بأن أصبح عازف بيانو من الطراز الأول.

- كلا، ولا حتى بعد مرور ألف سنة..)

فخيّم على الجو صمت ثقيل كصمت القبور. وانقبض قلب (فريدّي) وأخذ ينظر إلى السجّادة، فأمسكت زوجته بيده. ولكنّ (جورج) ظل صامداً أمام نظرات (ليياماكارت) التي استأنفت الكلام، أخيراً:

(لقد شرح لي خالك الوضع، ولا تعتقد أني أتأثر برأي أحد، فكل هذا ليس له أهمية كبيرة).

وبحركة من يدها، بدت وكأنها تكنس وتلقي جانباً الصالون الرائع، والأشياء الجميلة التي يحتويها، ونحن جميعنا أيضاً.

(ولو أني شعرت أنّ لديك موهبة وكفاءة الفنان، لما تردّدت بأن أنصحك بالتخلي عن كل شيء، من أجل الفنّ، فليس هنالك سوى الفنّ

وإزاء الفن، الثروة، الطبقة والمكانة، والسلطة، كل هذا لا يزن ثقل قشة).

وألقت علينا نظرة كادت تكون جارحة بصدقها وصراحتها:

وقالت: (نحن وحدنا الذين يحسب لنا حساب والذين نتمتع بأهمية كبيرة، ونحن الذين نعطي للعالم معناه الحقيقي. وأنتم لستم سوى مخلوقات نستخدمكم في تجاربنا).

وقد دستني في الكيس نفسه الذي وضعت فيه الآخرين، ولكن ماذا أستطيع أن أفعل حيال ذلك؟

(أنت، بالطبع اشتغلت كثيراً، ولا تظنّ أنك أضعت وقتك في عملك هذا، فستشعر دائماً بالمتعة عندما تعزف، وسيتيح هذا لك أن تقدّر مزايا العازفين الماهرين، التي لا يستطيع الجهلة تقديرها. ولكن انظر إلى يديك: فهما ليستا يدي عازف بيانو).

وأخذت أتفحص يدي (جورج) لم أكن قد تبينت فيهما شيئاً فيما مضى، وقد أثار انتباهي عند ذلك منظرهما اللين، الطّري، وكذلك أصابعهما القصيرة والمبرومة.

(إنك لا تجيد الإصغاء بنفسك لما تعزف. ولا يمكنك أن تأمل بأن تصبح أكثر من هاو ممتاز. ولكنّ الحال هي أنّ في الفنّ، هوة سحيقة تفصل بين الهاوي والمحترف).

ولم يجب جورج، ولكن كان شحوبه يكفي للدلالة على أنه أخذ يشهد انهيار جميع آماله. ورزح الجميع تحت وطأة صمت رهيب.

وفجأة ترقرقت الدموع في عيني (ليياماركات) وقالت:

(ولكن، لا تكتف بتقييمي وحده فقط، فأنا لست تلك المرأة التي لا تخطئ، ولا أدّعي العصمة. أطلب ذلك من أحد آخر.. وأنت تعلم أنّ (بيدرويسكي) أريحيّ وطيب جداً. وأنا سأكتب له، وإني واثقة أنه سيوافق على الاستماع إلى عزفك).

فاستطاع (جورج) أن يبتسم. فهو مهذب جداً، ورغم كما كان يشعر به ويعانيه، ظل يحاول تلطيف الجو وعدم جعل الوضع أكثر صعوبة وكآبة:

(ليس ذلك ضرورياً، فأنا أكتفي بحكمك ومقتنع به، ولكي أقول لك الحقيقة فهو ليس مختلفاً جداً عن حكم أستاذي الذي كنت أدرس عليه في (ميونيخ).

وترك البيانو وأشعل سيجارة. فتبدّد عند ذلك بعض الضيق والارتباك. وتحرك الآخرون قليلاً على أرائكهم. وابتسمت (ليبا ماركارت) لجورج وقالت له:

(أتريد أن أعزف لك شيئاً؟

- نعم، أرجوك أن تفعلي ذلك)

فجلست إلى البيانو ونزعت الخواتم التي كانت أصابعها محمّلة بها. وعزفت بعض مقطوعات (باخ) ولا أعرف عناوين تلك المقطوعات، ولكني عرفت فيها المراسم الاحتفالية في القصور الصغيرة وحاشياتها والميادين الألمانية التي تتبع التقاليد والأساليب الفرنسية، وازدهار البرجوازيين المقتصدين، المرضى، والرقصات القروية على العشب الأخضر، وأشجار الصنوبر القاتمة التي تشبه أشجار عيد الميلاد، وشروق الشمس على البراري الألمانية الواسعة. ورائحة الدبال والتربة العضوية، الحارة، وهي تنتشر في الجو. وكانت طاقة حيوية قوية تبدو وكأنها تتصاعد من أعماق الأرض. وهذا العزف الشفاف والمضيء يحمل على التفكير بالقمر المشرق في غسق يوم من أيام الصيف.. وفي الوقت نفسه كنت أراقب الآخرين، وأرى التأثير الشديد الذي كانت تحدثه هذه التجربة: كانوا متهيجين، يحلقون في عالم آخر. فلماذا، وياحسرتاه لا تمنحني الموسيقا هذه النشوة الساحرة؟

وكفّت (ليياماركارت) عن العزف، وعلى شفتيها ابتسامة عذبة

وأعادت الخواتم إلى أصابعها.

فضحك (جورج) قليلاً، وقال:

(إنّ هذا يحسم المسألة).

فأتى الخدم بالشاي، وبعد أن تناولنا بعض الحلوى، سافرت برفقة (ليياماركارت) إلى لندن. فأخذت تتحدث طيلة مدة الرحلة، وإن لم يكن بظرف ودعابة، فعلى الأقل كان ذلك يدل على ذكاء نادر: فقد حدثتني عن طفولتها في (مانشستر)، وعن الكفاح الذي مارسته في بداياتها. وقد أثارت اهتمامي بحديثها الممتع. دون أن تتلفّظ بكلمة واحدة عن (جورج). فما حدث آنذاك لم تكن تبدو له أية أهمية بالنسبة لها، ولذلك لم تعد تفكر فيه.

وكنا أبعد ما نكون عن معرفة ما كان يحصل في (تيلبي).

فبعد سفرنا، خرج (جورج) إلى الشرفة، حيث لحق به والده بعد قليل، وهو الرابح والفائز في ذلك اليوم، ومع ذلك فإنه لم يكن سعيداً، إذ إنه بإحساسه المرهف كان يشعر بكل معاناة (جورج) وكان غمه يمزق قلب هذا الأب الحنون، الذي بدا يحبه أكثر من أي وقت مضى. فاستقبله (جورج) بابتسامة عذبة.

فتقطع صوت (فريدّي). واستولى عليه انفعال شديد رفعه فجأة للتخلي عن ثمرة فوزه وانتصاره، وقال:

(أصغ إليّ، يا صغيري جورج: إني لا أستطيع تحمّل التفكير بأنك حزين، فهل تريد العودة إلى (ميونيخ) وتبقى هناك سنة أخرى، وبعد ذلك نقرر ما تريد؟)

فهز جورج رأسه، وقال:

(كلا، لا جدوى من ذلك، لقد جرّبت حظي وانتهى الأمر، وعلينا ألاّ نتحدّث عنه بعد الآن.

- لا تقلق، وتحزن أكثر مما ينبغي.

- الشيء الوحيد في العالم الذي كنت أرغبه وأتمناه هو أن أصبح عازف بيانو. ولا مجال لذلك، فهذا قاس بعض الشيء، على أية حال)

وكان لدى جورج بعض الشجاعة ليبتسم ابتسامة خفيفة، مرة أخرى.

(هل تريد القيام برحلة حول العالم؟ يمكنك أن تصطحب أحد رفاقك في (أكسفورد) وسأدفع كل النفقات فقد بذلت جهداً كبيراً خلال السنتين الماضيتين، وينبغي أن ترفّه عن نفسك.

- أشكرك كثيراً، يا أبي، سنتحدث في هذا الأمر فيما بعد، أما الآن، فإني ذاهب للنزهة.

- أتريد أن أرافقك؟

- أفضل الذهاب بمفردي).

عند ذلك بدرت من (جورج) حركة غريبة: فقد ألقى بنفسه بين ذراعي أبيه وعانقه بشدة. ثم ابتعد وهو يخفي تأثره وانفعاله بضحكة خفيفة. فرجع (فريدّي) إلى الصالون. ووجد هناك أمه، (فيردي) و(موريل).

فقالت الليدي العجوز:

(لماذا لا تزوّج هذا الشاب، يا (فريدّي)؟ لقد بلغ الثالثة والعشرين من العمر، والزواج سيغير له أفكاره، وعندما يصبح عنده زوجة وأطفال، سيحزم أمره ويعيش كبقية الناس.فسألها السير (أدلفوس):

- ومن تريدين أن يتزوّج؟ يا أمي

- ليس في هذا الأمر أية صعوبة: فالليدي (فريكلنغوزين) أتت لزيارتي منذ بضعة أيام مع ابنتها (فيوليت)، وهي فتاة ظريفة سوف تحصل على الكثير من الأموال. وقد لمحت لي (الليدي) أنّ السير

(جاكوب) سيكون كريماً جداً إذا تقدم خاطب مناسب وطلب يد (فيوليت).

فاحمرّ وجه (موريل) غيظاً، وقالت:

(إني أكره الليدي (فريكلنغوزين) وجورج مازال أحدث سناً من أن يتزوج. وفيما بعد، يستطيع الزواج بمن يريد).

وحدجت الليدي (بلاند) العجوز، كنتها بنظرة غريبة، وقالت وهي تطلق عليها الاسم الذي تخلّت عنه منذ زمن طويل:

(أنت غبيّة، بلهاء، يا (مريام) وطالما أنا هنا، فلن أسمح بارتكاب أية حماقة).

فهي كانت تعلم أيضاً رغبة (موريل) كما لو أنها عبرت عنها بصراحة ووضوح، وهي أن ترى جورج يتزوج فتاة مسيحية، ولكنها تعلم كذلك، أنها طالما هي على قيد الحياة، فلا (فريدّي) ولا زوجته، يجرؤ أحد منهما على اقتراح ذلك.

لم يذهب (جورج) للقيام بنزهة، فهل كان اقتراب موعد افتتاح موسم الصّيد هو الذي أوحى له بفكرة الدخول إلى قاعة الأسلحة؟ على أية حال فقد أخذ ينظف البندقية التي أهدتها له أمه بمناسبة عيد ميلاده العشرين. ولم يكن أحد قد استعملها منذ سفره إلى ألمانيا.

وفجأة سمع الخدم صوت طلق ناريّ، وعندما دخلوا، كان (جورج) ملقى على الأرض، وقد اخترقت قلبه رصاصة. فالسلاح كان معبأً، وعندما حرّكه وأخذ يعالجه، قتل نفسه. وكثيراً ما نقرأ في الصحف قصصاً لحوادث مماثلة.

الحسناء (جين)

احتفظت بذكرى واضحة جداً من لقائي الأول مع (جين فولير). ولو أني كنت لا أستطيع استعادة كل دقائق تلك المقابلة لاعتقدت أني ضحية لعملية غش وخداع. كنت قد عدت للتوّ من رحلة إلى الصّين، وذهبت لأتناول الشاي مع السيدة (تويز) كانت حمى الزخرفة والتزيين قد أصابتها، وبما يعرف عن جنسها من عقوق، فقد ضحّت بالأرائك التي حملت جسمها وتطابقت مع أشكاله طيلة سنوات عديدة، وبالطاولات وبالخزائن التي شهدت أيام زواجها الأولى، وضحّت أيضاً باللوحات العائلية، لكي تعهد بزخرفة وتزيين بيتها إلى أحد المختصّين. فلم يبق في صالونها أي أثر لذكرى خاصة وشخصية. وقد دعتني في ذلك اليوم لكي تجعلني أعجب بأبهة (آخر صرعة) التي كانت تعيش فيها آنذاك. كانت جميع الألوان مجتمعة فيها. لم يكن هنالك شيء قد اختير بشكل شخصي، ولكنّ كل شيء بدا منسجماً ومنسّقاً.

وسألتني السيدة (تويز)

(أتذكر ذلك الأثاث التافه الذي كان عندي في الصالون؟ وبدت لي السّتائر الفخمة، قاسية وثقيلة، وكان غطاء الديوان من الحرير الإيطالي. والأريكة التي أجلس عليها مغطّاة بسجادة دقيقة الصنع: صالون أنيق، ينم عن الثراء، دون حبّ بالتبيّن والظهور، وعن الأصالة دون وجود أشياء غريبة. ولكني كنت أتساءل، وأنا أحبّذ كل ذلك من طرف شفتي، لماذا كنت آسفاً، وأفتقد الكريتون السابق الذي كان يغطي

قطع الأثاث، التي ازدرت بها صاحبة المنزل. واللوحات المائية المألوفة التي تعود إلى العصر الفيكتوري. والمكمّلات القديمة التي كانت تزيّن المدفأة. وبقيت أتساءل، ما الذي ينقص إذن في كل هذه القطع التي حولها مهندس الديكور، لقاء نفقات باهظة؟ ربّما كانت الحميمية، هي التي فقدت. وأخذت السيدة (توير) تنظر حولها، راضية، مسرورة، ثم سألتني:

(ما رأيك بمصابيحي المرمرية؟ إنها تعطي ضوءاً خفيفاً وهادئاً جداً

- أنا أعترف أن لدّي نقطة ضعف حيال الضوء القوي الذي ينير

- أخشى، في هذه الحالة، من أن يصبح مزعجاً.

في الفترة التي كنت لا أزال فيها شاباً صغيراً، كانت السيدة (توير) قد تزوّجت منذ زمن بعيد. ولكنّها اليوم تعاملني كمعاصر لها. وهي تردد على الدوام بأنها لا تتكتّم بشأن سنّها، فهي قد بلغت الأربعين، وتضيف وهي تبتسم بأنّ جميع النساء تحسم من أعمارهن خمس سنوات، على الأقل. ولا تحاول أن تنفي أنها تصبغ شعرها، الذي كان لونه أسمر ظريفاً تتخلّله تموّجات محمرّة.

(إنه لأمر بشع أن يشيب شعر المرأة)

ومع ذلك، فإنها حالما يصبح شعرها أبيض تماماً، لن تلمسه بعد ذلك.

(وحينئذ، يبدأ الناس بالحديث عن شباب وجهي الجميل).

وخلال ذلك كانت تتزّين - بعض المساحيق، وقليل جداً من الحمرة - وعيناها مدينتان للفن بالكثير من بريقهما. وهي سيدة جميلة تدعو إلى الإعجاب بملابسها الأنيقة. وعبر غبش مصابيحها المرمرية، لا يمكن أن تعطى زيادة في عمرها، يوماً واحداً، على الأربعين سنة التي تعترف بها.

وكثيراً ما تضيف، متهكّمة: (في غرفة زينتي فقط، أتحمل الضوء القوي المنبعث من مصباح قوته أكثر من ثلاثين شمعة، فهناك أنا بحاجة إليه لأتبيّن الحقيقة المزعجة، وأحاول أن أجد لها علاجاً).

وبعد قليل أخذنا نتحدّث عن أصدقائنا المشتركين، ونتفحصهم بدقة، وأطلعتني السيدة (توير) على أخبار لندن وما يدور فيها من أقاويل وإشاعات. إذ إنه بعد سفر طويل، يحلو للمرء أن يجلس قرب المدفأة، وأمامه الشاي الجيد، مع هذه المرأة النشيطة والمغرية. كانت تعتبرني كثريّ مبذر، عائد من إحدى رحلات البذخ والطيش، وكان تبدو على استعداد لأن تبذل قصارى جهدها من أجلي وهي تبدو فخورة على الدوام بحفلات العشاء التي تقيمها، حيث كانت نوعية المدعوين الجيدة، تتساوى مع نوعية المأكل. وكان المرء يستطيع أن يفخر ويزهو فيما إذا دعي لتلك الحفلات. وبعد أن اقترحت عليّ يوماً معيناً، سألتني عمنّ أحب أن ألتقي بهم هناك، وأضافت:

(ولكني يجب أن أوضح لك، أني ألغي اقتراحي فيما إذا كانت (جين فويلر) مازالت هنا.

- ومن تكون (جين فويلر) هذه؟

فبدت على شفتي السيدة (توير) ابتسامة عابرة، وقالت

- (جين فويلر) بلوتي ومعذبتي

- أوه

- لابد أنك تتذكر صورة، كانت موضوعة، فيما مضى، على البيانو؟

امرأة ترتدي فستاناً مناسباً بأكمام ضيقة ولاصقة، وتضع قلادة ذهبية، أذناها كبيرتان، وتضع نظارة على أنفها الضخم؟

إيه، تلك هي (جين)

فقلت، وأنا أحاول أن أتذكّر:

- كان لديك كثير من الصور، قبل أن تقومي بعملية التنظيف الكبيرة

- إنه ليقشعر بدني عندما أفكر بها، فقد عملت رزماً كبيرة غلفتها بالورق الأسود وألقيتها كلها في مستودع المهملات.

فسألتها، ملحاً:

- وأخيراً، من هي (جين فويلر) هذه؟

- ابنة عمي، إحدى أخوات زوجي، وكانت قد تزوجت برجل يعمل في الصناعة، في منطقة الشمال، وقد ترملّت منذ سنوات عديدة، وهي تعيش في بحبوحة، وكما يحلو لها

- ولماذا تكون معذّبتك وبلوتك؟

- إنها ريفية متكبرة، معتادة على الثرثرة والكلام الشّنيع. وهي تبدو وكأنها تكبرني بعشرين سنة، وأعتقد أنها جديرة بأن تروي بأننا كنا سوية في إحدى المدارس الداخلية. ولديها، إلى درجة لا تصدّق الشعور بالانتماء العائلي، وبما أني قريبتها الوحيدة، فهي تتلبسني وتدعي أنها تحبني حتى العبادة. وعندما تأتي إلى لندن، لا تراودها حتى فكرة النزول في مكان آخر، غير منزلي - فهي تتصور أنها لو فعلت ذلك لسببت لي الحزن والألم - وكثيراً ما تستمر زياراتها لي ثلاثة أو أربعة أسابيع.

فنجلس هنا، متقابلتين، وهي تطرّز أو تقرأ. وتقودني أحياناً إلى فندق (كلاريدج) لنتناول طعام العشاء، وهناك نرى جميع الناس الذين لم أكن أرغب بالالتقاء بهم آنذاك بسبب شكلها الذي يشبه شكل الخادمة العجوز، وقد جلسوا كما لو كان بمصادفة سيئة، إلى الموائد المجاورة. وعند عودتنا في العربة، تقول لي إنها مسرورة جداً لأنها تقيم لي، من وقت لآخر، حفلة كهذه. وهي تعمل بالحياكة والتطريز وتصنع لي بعض الستائر والزينات لأواني الشاي وللمصابيح وللمائدة، فاضطر لاستعمالها في كل مرة تحضر إلى هنا.

وكفّت السيدة (توير) عن الكلام لكي تلتقط أنفاسها، فقلت لها:

(إنّ امرأة حاذقة مثلك، لابدّ من أن تجد، مع ذلك، وسيلة للتخلص من هذه الدخيلة الملحاحة).

- آه وهل تعتقد أنّ هذا أمر سهل؟ فهي طيبة القلب، إنه من الذهب. وهي تبعث على الملل الشديد، ولكن لا شيء في العالم يجعلني أبدي لها أني أشعر بذلك أو أتذمّر منه.

- ومتى ستأتي؟

- غداً.)

ولكن لم تكد هذه الكلمة تخرج من فمها، حتى قرع الجرس. وحصلت جلبة في غرفة الانتظار، وبعد قليل، أدخل رئيس الخدم سيدة مهيبة، وقال:

(السيدة (فويلر)

فصاحت السيدة (توير) وهي تقفز واقفة:

- جين لم أكن أتوقع وصولك اليوم.

- وهذا ما قاله لي رئيس خدمك. ومع ذلك فإني تحدثت عن قدومي اليوم، في رسالتي).

وعادت السيدة (توير) فجلست وقالت:

ليس لهذا، مع ذلك، أية أهمية. فأنا أرحّب بك في أي وقت وعلى الدوام. ولحسن الحظ، فإني لا أخرج هذا المساء.

- وعلى الخصوص، لا تَحدثي أيّ تغيير بسبب حضوري، ومن أجلي. إذ إنّ بيضة مسلوقة تكفي لعشائي، وهذا هو كل ما يلزمني).

فعبست السيدة (توير) بازدراء وتقلّصت ملامحها الجميلة، وقالت: بيضة مسلوقة على أية حال، نستطيع أن نقدم لك ما هو أفضل من هذا.

وشعرت برغبة بالضحك عندما تذكرت أنّ السيدتين متساويتان

بالعمر تقريباً. ومن المؤكد أن السيدة (فويلر) قد تجاوزت الخامسة والخمسين. وهي طويلة القامة. وكان إطار من الدنتيلا السوداء يحيط بقبعتها المصنوعة من القش الأسود، ذات الجوانب العريضة، وينسدل على كتفيها كالوشاح، ومعطفها الفخم ينسجم مع قامتها الطويلة، كما أن فستانها الأسود الطويل الذي تدعمه من الداخل عدة تنورات، كان يكشف عن حذاء ضخم، مربع الجوانب. ويبدو أنها قصيرة النظر، لأنها كانت تنظر عبر نظارة ذهبية ضخمة.

واقترحت عليها السيدة (توير) تناول فنجان شاي

- بكل سرور، إذا كان ذلك لا يسبب لك إزعاجاً. وأنا سأنزع معطفي.

وبدأت بإخراج يديها من القفاز الكثيف الأسود، ثم نزعت معطفها. وحول عنقها التفّت سلسلة ذهبية، تدلت منها ميدالية كبيرة، أستطيع أن أقسم إنها تضم صورة المرحوم زوجها. وبمزيد من العناية، وضعت قبعتها في زاوية الديوان، إلى جانب قفازها ومعطفها. فزمّت السيدة (توير) شفتيها. حقاً هذه الملابس الغريبة لم تكن تنسجم تماماً مع الديكور التقليدي الجديد والفخم لذلك الصالون فأين استطاعت السيدة (فويلر) العثور على هذه الملابس العجيبة؟ علماً بأنها جديدة ومن نوعية جيدة. إذن لا يزال يوجد خياطات وصانعات قبعات، يصنعن موديلات ونماذج من الملابس والقبعات التي كانت شائعة قبل خمسة وعشرين سنة؟ وكان شعر السيدة (فويلر) الأشهب مفروقاً ببساطة عند وسط رأسها، ويكشف عن جبينها وأذنيها. دون أن يكون عرف قصات وتسريحات المزين الشهير (مارسيل).

ووجّهت السيدة (فويلر) نظراتها إلى إبريق الشاي الفضي الضخم الذي يعود إلى عصر الملك جورج وإلى الفناجين المصنوعة في (وورسستر) من البورسلين القديم.

(والستارة التي أهديتك إياها في زيارتي الأخيرة، أنت لا تستعملينها إذن؟)

- بالعكس، يا عزيزتي، إني أستعملها كل يوم، ولكن لسوء الحظ فقد حدثت كارثة، تصوري أنها احترقت.

- الأخيرة، التي أهديتك إياها، احترقت؟

- سوف تعتبرينا قليلي العناية، ومهملين، دون شك.

فقالت السيدة (فويلر) الطيّبة:

- ليس لهذا أية أهمية، ومما يسرني ويسليني أن أصنع لك ستارة أخرى. وسأذهب غداً لشراء القماش والخيطان الحريرية من محل (الحرّية).

فاستجمعت السيدة (توير) شجاعتها وقالت:

(الحقيقة هي أني لا أستحقها، ألا يمكن أن تكون زوجة القسّ بحاجة لها؟

فصرحّت السيدة (فويلر) وهي فرحة متهلّلة:

- أوه اني بالضبط، قد صنعت لها للتوّ، ستارة مثلها.

وعندما ابتسمت - وابتسامتها حلوة جداً - كشفت عن أسنان صغيرة منتظمة وفاتنة.

ولكني شعرت أنّ الوقت قد حان لأترك السيدتين تتحدثان بحرية لوحدهما، ونهضت.

وفي صباح اليوم التالي، اتصلت بي السيدة (توير)، ومن نبرة صوتها عرفت أنها رائقة المزاج، مسرورة، وقالت:

لديّ خبر هام أريد أن أبلغك إياه: (جين ستتزوّج)

- أية أكذوبة مضحكة، هذه؟

- سيأتي خطيبها لتناول طعام العشاء، هذا المساء، لكي يتعرف عليّ، وأرجوا أن تحضر أنت أيضاً

- ولكني أخشى أن أزعجكم

- أبداً، وعلى الإطلاق، إذ إن (جين) هي التي طلبت مني أن أدعوك، يجب أن تحضر من كل بدّ).

كانت تقهقه ضاحكة

- وبمن ستتزوج؟

- لا أدري، بمهندس معماري، على ما أعتقد، أيمكنك أن تتصور زوج جين؟

لم يكن لدي أية مواعيد في تلك الأمسية، وتذكرت مائدة السيدة (توير) العامرة والشهيّة..

وعندما وصلت، كانت بمفردها، رائعة في فستان الشاي المنزلي الذي جعلها تبدو أكثر شباباً.

(جين تضع اللمسات الأخيرة على زينتها، لقد أطار صوابها، إنها تقول إنه يعبدها. اسمه (جيلبير) وعندما تتحدث عنه، يصبح صوتها غريب النبرات، مثيراً للضحك.

- إني أتساءل كيف شكله، وكيف يكون؟

- أوه! إني أراه من هنا: طويل، بدين، رأسه كالبيضة، وعلى بطنه تتدلى سلسلة ذهبية. محتقن الوجه، حليق الذقن تماماً، جهوري الصوت).

ودخلت السيدة (فويلر) وهي ترتدي فستاناً حريرياً أسود بادي القسوة، واسع جداً وله ذيل طويل، فتحته تكشف عن عنقها وأكمامه تصل إلى المرفقين وعقدها الماسي محلّى بالفضة. وفي يدها، قفاز أسود طويل ومروحة من ريش النعام الأسود كذلك. وكانت تبدو، بشكل غريب، ونادراً ما يحدث ذلك، أنها تماماً: الأرملة التي لا مأخذ عليها، لأحد رجال الصناعة الأغنياء في منطقة الشمال.

وقالت لها السيدة (توير) بتعاطف ومودة:

(عنقك جميل جداً، بالحقيقة، يا جين) أبيض، أملس وناعم، خال من التجاعيد، كان يتناقض، فعلاً مع وجهها الذابل. وكان للسيدة (فويلر) أيضاً عنق جميل جداً.

وسألتني، وهي تبتسم بعذوبة كما لو كنت أحد أصدقائها القدامى:

- هل أبلغتك (ماريون) الخبر؟

- اسمحي لي أن أهنئك.

- انتظر، على الأقل، حتى ترى (صيد غزوتي)

فقالت السيدة (توير) وهي تبتسم:

- إنّه لطف عظيم منك أن نسمعك تتحدثين عن (صيد غزوتك)

فبرقت عينا السيدة (فويلر) من خلال نظارتها المضحكة:

(لا تتوقع شخصاً كبير السنّ، فأنت لا تريد مني) على أية حال أن أتزوج عجوزاً خرفاً، إحدى رجليه أصبحت في القبر؟

وهذا كل ما قالته لنا عنه، ولكن في تلك اللحظة، فتح رئيس الخدم الباب، وأعلن بصوت جهوري:

(السيد (جيلبير نابّيي)

فدخل شاب يرتدي لباساً رسمياً (سموكنغ) حسن التفصيل، كان نحيلاً، حليق الذقن، متوسط القامة، شعره أشقر ومتموّج، عيناه زرقاوان، جذاب، ولكنه ليس شاباً جميلاً بالتحديد: وهو في عنفوان الشباب إنه بالتأكيد لم يتجاوز الرابعة والعشرين.

وأول ما تبادر لذهني أنه ابن الخطيب - الأرمل بالطبع - وقد أتى ليعتذر عن والده الذي أصابته أزمة طارئة من الآلام العصبية. ولكنه عندما رأى السيدة (فويلر) انبسطت أسارير وجهه، وتقدم نحوها ماداً يديه ومدت له يديها وهي تبتسم بحياء، والتفتت نحو ابنة عمها:

(هذا هو صيد غزوتي، يا (ماريون)

- فقال:

آمل أن تمنحيني صداقتك، يا سيدتي، فقد قالت لي (جين) إنك قريبتها الوحيدة)

كانت تعابير السيدة (توير) تستحق الملاحظة والاهتمام، فقد أعجبت بالنضال البطولي بين التربية الحسنة وقواعد المجتمع وبين الغرائز الطبيعية لدى المرأة: فالدهشة والحيرة، اللتان لم تستطع إخفاءهما لأول وهلة، تلاشيا بسرعة، وبدت ودودة، كأكثر ما تستطيع ولكنها لم تجد شيئاً تقوله. والارتباك الذي بدا على (جيلبير) يمكن تفهمه، وله عذره على ذلك، أما أنا فكانت رغبتي بالضحك أقوى من أن أجرؤ على فتح فمي. وكانت السيدة (فويلر) وحدها تحتفظ بهدوئها التام:

(بل إنه لأمر مؤكد أنكما ستصبحان صديقين حميمين، يا (ماريون)، فلا أحد يقدّر مثله قيمة الطعام الجيد:

والتفتت نحو (جيلبير):

(إنّ حفلات العشاء التي تقيمها (ماريون) مشهورة جداً.

فقال (جيلبير) بحماس ظاهر:

- أعرف ذلك.

واستعادت أخيراً السيدة (توير) قدرتها على الكلام، فدعتنا إلى النزول. ولن أنسى ذلك العشاء. ولم تكن السيدة (توير) تستطيع أن تتبيّن فيما إذا كانت حيال فرحة ثقيلة ومضحكة، أو هل كانت (جين) كتمت عنها سنّ خطيبها عمداً، لكي تضعها في موقف حرج ومضحك. ولكنّ (جين) لم تكن تمزح أبداً، وليس من طبعها الخبث. وبعد حيرة السيدة (توير) ونفاد صبرها، فقد استعادت روعها ورباطة جأشها، وكربة بيت ممتازة، حاولت المشاركة في الحديث: فهل كان (جيلبير نابيي) يلاحظ نظراتها القاسية، خلف القناع المرحّب والباسم؟

كانت تتفرس فيه، دارسة ومتفحّصة، وتحاول اكتشاف سره الدفين. ورغم المساحيق، كان خداها يتوهجان حمرة وحرارة.

وقالت (جين) الطيبة وهي تنظر إليها عبر نظارتها الكثيفة: (ما أجمل هيئتك ولونك، يا (ماريون)!)

- لقد ارتديت ملابسي وتزينت بمزيد من السرعة، ويبدو أني وضعت كثيراً من الحمرة)

- آه! هذا خضاب أحمر، كنت أظن أنه لونك الطبيعي، ولولا ذلك لما قلت شيئاً).

ووجّهت لجيلبير ابتسامة خجولة:

(درسنا سوية، أنا و(ماريون) في المدرسة الداخلية واليوم، لا أحد يصدق هذا، فما رأيك؟ ولكني، أنا، عشت حياة هادئة جداً).

فماذا كانت تعني؟ هل كانت حقاً تلقي هذا الكلام المثير ببراءة وبكل سلامة نية؟ وعلى أية حال فإنّ السيدة (توير) قد انزعجت قليلاً، ولكنها تجاهلت الأمر، وابتسمت بمرارة:

(يمكننا أن نعلن الحداد، نحن الاثنتين، بمناسبة بلوغنا الخمسين، يا عزيزتي المسكينة (جين)

ولكن الأرملة لم تضطرب بسبب هذا الكلام البسيط، بل أجابت بعذوبة ولطف:

(يقول (جيلبير) إني، بسببه لا ينبغي أن أعترف بأكثر من تسعة وأربعين).

فارتجفت يدا السيدة (توير) قليلاً، ولكنها وجدت رداً مناسباً:

(حقاً، هنالك بعض الفرق بين عمريكما).

فأوضحت ذلك (جين) بقولها:

- سبعة وعشرون سنة، هل هذا كثير؟ (جيلبير) يجدني شابة بالنسبة لسنيّ، وكما قلت لك، فأنا لا أريد رجلاً مسكيناً يهم بوضع إحدى رجليه في القبر).

لم أستطع الامتناع عن الضحك، كما أن (جيلبير) ضحك أيضاً، كما يضحك الشاب بصدق ومن كل قلبه، ويبدو أنّ ما كانت تقوله (جين) يعجبه ويسعده. ولكنّ السيدة (توير) التي نفد صبرها، بدت وكأنها تكاد تنسى أنها امرأة اجتماعية، لذلك بادرت بمساعدتها، موجهة الكلام للسيدة (جين) لتغيير مجرى الحديث:

(لابد أنّ تحضير جهاز العرس والزواج يشغلكما كثيراً، هذه الأيام؟!

- كلاّ، أردت أن أوصي على كل شيء خياطة (ليفيربول) التي ظلت على الدوام تحضر لي ملابسي منذ زواجي الأول، ولكنّ (جيلبير) منعني من ذلك، أنت لا تدري كم هو متسلّط، ولكنه بالحقيقة يتمتع بذوق مدهش).

ونظرت إليه بحبّ وحنان وقد احمر وجهها حياءً، كأنها فتاة في السابعة عشرة من عمرها.

ورغم الخضاب الذي يغطي وجه السيدة (توير) فقد بدت شاحبة جداً.

(سوف نقوم برحلة شهر العسل إلى إيطاليا. إذ إنّ (جيلبير) لم تتح له الفرصة ليدرس في المكان وعلى الطبيعة هندسة عصر النهضة، المعمارية، والمهندس المعماري بحاجة لأن يرى ويتحقق بنفسه من كل شيء. وفي طريقنا، سوف نتوقف في باريس من أجل فساتيني.

- وهل ستتغيّبان فترة طويلة؟

- لقد طلب (جيلبير) إجازة مدتها ستة أشهر، وأنت تدرك كم هو سعيد! فحتى الآن، لم يحصل إلى إجازة تزيد مدتها على خمسة عشر يوماً.

فسألتها السيدة (توير) بلهجة شديدة البرودة، رغم كل جهدها:

- ولماذا؟

- لم يكن يستطيع أن يمنح نفسه أكثر من ذلك، حبيبي المسكين.

فقالت السيدة (تويز):

- آه!

وهي تضع عالماً زاخراً بالمعاني والتعابير في هذه الـ(آه!)

وقدمت القهوة، وصعدت السيدتان، فأخذت أتحدث مع (جيلبير) في مواضع مختلفة لا رابط بينها، كما يفعل الناس الذين لا يكون لديهم ما يقولونه، ولكن بعد دقيقتين، قدّم لي رئيس الخدم بطاقة، وكانت من السيدة (تويز) وهاكم ما كانت تحوي:

(اصعد بسرعة وانصرف بأسرع ما يمكن. اصطحبه معك. وإذا لم أعط لجين حقيبتها وأصرفها، فإني سأصاب بسكتة قلبية).

فرويت كذبة معتادة وسهلة:

(السيدة (تويز) مصابة بصداع شديد، وترغب بأن تأوي إلى فراشها، وأعتقد أنه من الأفضل أن ننصرف)

- حسن، هذا مفهوم.

ولحقنا بهما، وبعد خمس دقائق كنا ننزل درجات المدخل. فأوقفت سيارة أجرة، ودعوت الشاب ليصعد معي، ولكنه قال:

(كلا، شكراً، سأمشي حتى زاوية الشارع، وهناك سأقفز إلى أحد الحافلات العامّة.

وحالما سمعت السيدة (تويز) صوت الباب وهو يغلق، صاحت:

(أمجنونة أنت، يا (جين)؟

- لست أكثر جنوناً من كثير من الناس الذين ليسوا محتجزين في زنزانات المجانين)

بهذا أجابتها (جين) وهي في غاية الهدوء.

فتابعت السيدة (توير) بلهجة مهذبة ولكنها ساخرة:

- هل أستطيع أن أسألك ما الذي يحملك على الزواج بهذا الشاب المتحذلق؟

- أولاً، لأنه لم يعد يقبل أن أرفض هذا الزواج. فقد طلب يدي خمس مرات. وقد مللت وتعبت في النهاية، من الرفض والقول (كلا) دائماً.

- ولماذا، برأيك، هذه الرغبة الملحّة والتي لا تقاوم، بالزواج بك؟

- لأني أعجبه.

فانفجرت السيدة (توير) غاضبة:

(إنه نصّاب حقير، عديم الذمة، كدت أقول له هذا علانية، وأقذفه به في وجهه).

- لو فعلت ذلك لارتكبت خطأً جسيماً، ولكان تصرّفك غير ودّي أبداً.

- هو لا يملك درهماً وأنت غنية، ومع ذلك فلست مغفلة إلى درجة أنك لا تدركين أنه يريد الحصول على أموالك.

وظلّت (جين) محتفظة بهدوئها، وأخذت تراقب بترفع وبلا مبالاة ثورة ابنة عمها. وأخيراً، ردّت بهدوء:

- لا أعتقد ذلك، فهو متمسك بي شخصياً.

- أنت تنسين سنّك، يا جين.

- سنّي مساوية لسنّك يا ماريون.

- ولكني، أنا، لم أهمل نفسي وأتصرف كيفما اتفق، وقد حافظت على شبابي، ولا أحد يقدر عمري بأكثر من أربعين سنة، ومع ذلك فلا يمكن أن يخطر على بالي الزواج من فتى يصغرني بعشرين سنة.

فقالت (جين) مصحّحة:

- بسبعة وعشرين

- أنت، لا يمكن، مع ذلك أن تصدقي أنّ شاباً يمكن أن يتمسك بامرأة يمكنها أن تكون أمه.

- لقد أمضيت كثيراً من السنين وأنا أعيش في الريف، وأعرف بدون شك خفايا الطبيعة البشرية. وقد قيل لي، مع ذلك إنّ أحدهم ويدعى (فرويد) وهو نمساوي على ما أعتقد...

ولكن السيدة توير) قاطعتها، دون مجاملة:

(جين، لا تكوني سخيفة. إنّ هدرك لكرامتك بهذا الشكل، أمر مشين وجارح! أنت التي كنت على الدوام أجدك عاقلة، تندفعين بحماسة وراء أول فتى قادم!

- ولكني لم أندفع وراءه أبداً، وقد قلت له ذلك، وبالطبع فإني أحبه كثيراً، ولولا ذلك لما قبلت الزواج به. وقد أطلعته على مشاعري وعواطفي الحقيقية).

كانت السيدة (توير) تلهث وتحاول التقاط أنفاسها، والدم يدوّي في أذنيها. فتناولت جريدة المساء وأخذت تهوي بها بعصبية:

(إذا كنت لا تحبينه، فلماذا تتزوجينه؟)

- إنّ حياة الأرملة رتيبة ومملّة، وأشعر برغبة للتغيير.

- إذا كنت تريدين أن تتزوجي لمجرد الزواج، تزوّجي، على الأقل رجلاً في مثل سنّك.

- لم يطلب يدي رجل في مثل سنّي خمس مرات، ولكي أصدقك القول فإن أحداً غيره لم يطلب يدي، أبداً).

وكتمت (جين) ضحكتها، فأثار ذلك غضب السيدة (توير):

(لا تضحكي يا جين، أرجوك، يبدو أنّ دماغك معطل. إنه لأمر فظيع!).

ولأنها لم تعد تقوى على التحمّل، فقد أجهشت بالبكاء. وكان

هذا بمثابة كارثة، بالنسبة لها في هذه السنّ. إذ إنّ عينيها ستظلان متورّمتين لمدة أربع وعشرين ساعة، وسيتشوه شكل وجهها، ولكنّ هذا لم يمنعها من الاستمرار في النحيب.

ومع ذلك فقد ظلت (جين) هادئة، رابطة الجأش، تنظر إلى (ماريون) عبر نظارتها الكثيفة، وتداعب وهي تفكر، طرف فستانها الأسود.

وقالت السيدة (توير) وهي تجهش بالبكاء وتجفف دموعها بعناية لكي لا يسيل خضاب جفونها:

(إنّ هذا الزواج سيسبب لك التعاسة والشقاء)

فأجابتها (جين) بلهجة متزنة وعذبة، وكأنّ ابتسامة حلوة قد تسللت تحت كلماتها:

(ولكني لا أظن ذلك أبداً. لقد درسنا الموضوع بصورة جدية، واستعرضنا بدقة الجوانب السلبية والإيجابية. وأنا بطبيعتي، متساهلة على الدوام. وسيحظى (جيلبير) معي بحياة عذبة ومريحة جداً. فهو لم يسبق له أن اعتنى به أحد. ونحن لا نستخفّ بأمر الزواج، فإذا رغب أحدنا أن يستردّ حريته، فإن الآخر لن يعارض في ذلك، هذا أمر متفق عليه).

فتمالكت السيدة (توير) نفسها لترشقها بعبارة مسمومة:

(ما هو المبلغ الذي طلب منك أن تؤمنيه له، كل سنة؟

- كنت أنوي إعطاءه ألف فرنك، ولكنه لم يشأ أن يسمع مني أيّ حديث بهذا الخصوص. بل إنّ هذه الفكرة أثارت غضبه وقال بأنه يستطيع أن يكسب من المال، ما يكفيه لسدّ حاجاته كلها.

فقالت السيدة (توير) وهي تكزّ على أسنانها:

- إنه أكثر خبثاً مما كنت أعتقد..

وتأخرت (جين) بالردّ على ابنة عمها، وألقت عليها نظرة حانية،

ولكنها حاسمة، وأخيراً قالت:

(ألا ترين، يا عزيزتي، أنّ الأمر مختلف، بالنسبة لك، فالترمّل لم يزعجك كثيراً، أليس كذلك؟

فاحمرّ وجه السيدة (تويـر) وشعرت بالانزعاج. ولكنّ (جين) الطيبة كانت أبسط من أن تقصد بما قالته، الغدر أو الإهانة.

وقالت السيدة (تويـر) وهي بادية الجدية والوقار:

(إني متعبة بعض الشيء، وذاهبة لأنام، وسنعود إلى حديثنا هذا، غداً، صباحاً.

- غداً؟ لن يكون هـذا متيسـراً. لأننـا سـنذهب أنـا و(جيلبـير) صباح الغد، بالضبط للتسجيل من أجل نشر إعلانات الزواج).

فرفعت السيدة (تويـر) ذراعيها نحو السماء، ولكنها لم تجد شيئاً تقوله.

وتم عقد القران أمام ضابط الأحوال المدنية، وكنت أنا والسيدة (تويـر) الشاهدين وبدا (جيلبـير) الأنيق ببزّته الزرقاء، شديد التـأثر، وحديث السنّ بشكل يثير الضحك. وهذه اللحظة تبعث القلق لـدى الرجل. ولكنّ (جين) ظلت محافظة على السكينة وراحة البال. وبدت وكأنها معتادة على الزواج كأية امرأة من بنات العصر الحديث، فلم يكد يزداد تورّد خديها إلا قليلاً، إذ إنّ هذه اللحظة بالنسبة للمـرأة، تمثل فوزاً وانتصاراً على الدوام. وكان فستانها الواسع، المصنوع من المخمل الفضي اللون، ينم عن الزيّ الذي تتبعه في التفصيل خياطـة (ليفربـول) - وهـي، لاشـك في ذلـك، أرملـة لا مـأخذ عليـها أيضـاً - وتخيط لها ملابسها منذ سنوات عديدة. ولم تستطع الامتناع، في هذه المناسبة السعيدة، من أن تضع على رأسها قبعة كبيرة مزدانة بريش النعامة الأزرق. وكانت نظارتها الذهبية الضخمة تجعلها تبدو مضحكة وغريبة الشكل. وبعد انتهاء الحفل، قام ضابط الأحوال المدنية، الذي فوجئ وأدهشه على مـا أعتقـد، الزوجـان اللـذان عقـد قرانـهما،

بمصافحة (جين) وقدّم لها تهنئة شكلية. وجيلبير، الذي احمرّ وجهه حياءً، طبع قبلة على جبين زوجته. والسيدة (تويـر) التي بدت مستسلمة، ولكنها ضمناً مصرة على عنادها، مستها أيضاً بشفتيها على خديها. والتفتت العروس نحوي، وكان من المناسب بالطبع أن أقبلها، ففعلت ذلك. ولكني، عند خروجي، شعرت بالانزعاج من النظرات الساخرة التي ألقاها علينا الفضوليون المتسكعون الذين تجمعوا ليروا الأسرة الجديدة، ولذلك شعرت بالراحة والانفراج عندما صعدت إلى عربة السيدة (تويـر). وذهبنا إلى محطة (فيكتوريا) لأنّ (جين) كانت ترغب أن يستقل (العاشقان) قطار الساعة الثانية إلى باريس على أن تقام وليمة العرس في المحطة. ومما قالته بهذا الشأن: (الأمر الذي يزعجني دائماً، هو عدم وجودي جالسة في مكاني في إحدى حافلات القطار، قبل موعد انطلاقه بنصف ساعة)

ورغم شعور السيدة (تويـر) بالواجب العائلي، فإنها لم تكن تبدي أية مجاملة تدل على رضاها وسرورها. وهي لم تأكل شيئاً)

وكانت تتكلم بلهجة مغتصبة، وعلاوة على ذلك، فإن الطعام كان سيئاً، وأنا أكره تناول الشمبانيا مع وجبة الغداء ولكنّ (جين) أكلت بشهية من جميع الأطباق، وصرحت بقولها:

(من الحكمة أن يملأ المرء بطنه قبل السّفر).

وبعد رحيلهما، رافقتَ السيدة (تويـر) فسألتني:

(كم من الوقت تعطيهما لهذا الزواج؟ ستة أشهر؟

- ربما ستسير الأمور بشكل يكون أفضل ممّا تظنين.

- كفاك حماقات، إنّ هذا الزواج لا يمكن أن يدوم طويلاً. ولماذا تريد أن يكون قد تزوجها، إن لم يكن من أجل أموالها؟

ومن المؤكد أنه لن يستمر، وكل ما يمكن أن نأمله هو ألاّ تصبح تعيسة إلى الدرجة التي تستحقها).

فأخذت أضحك، كانت لهجة هذا الكلام الرحيم والمتسامح لا تدع مجالاً للشك بشأن مشاعر وعواطف السيدة (توير) فقلت لها:

(أخيراً، إذا حصل الانفصال، فسيكون عزاؤك أنك تستطيعين القول: (لقد سبق لي أن قلت لك ذلك).

- كلا، إني لن أفعل هذا أبداً، وأنا مسؤولة عنه أمامك).

- إذن سوف تهنئين نفسك من أجل حسّك السليم، ولعدم قولك لها: (لقد حذرتك تماماً من هذا).

- إنها عجوز، مملّة، لا تتمتع بأي ظرف أو خفة.

- مملّة؟ هل أنت متأكدة من ذلك؟ إنها لا تتكلم كثيراً، هذا صحيح، ولكنها عندما تقرر أن تفتح فمها، فإن كلامها يكون في الوقت والموضوع المناسبين.

- إني لم أسمعها في حياتي تقول شيئاً فكهاً ومسلياً.

عندما عاد (جيلبير) و(جين) كنت، مرة أخرى، في رحلة إلى الشرق الأقصى استمرت سنتين.

ولم تكن السيدة (توير) تهتم بالمراسلة. كنت أرسل لها بطاقات بريدية في بعض المناسبات، ولكن دون أن أتلقى رداً يأتيني بأخبارها. وخلال أقل من أسبوع بعد عودتي التقيت بها في حفل عشاء. كانت جارتي على المائدة، ولأني وصلت متأخراً بعض الشيء، وبسبب كثرة المدعوّين - كنا أربعة وعشرين - فإني لم أنتبه لأحد عند دخولي. ولكني ما أن جلست، وألقيت نظرة حول المائدة، حتى تبيّن لي أنّ معظم المدعوّين كانوا ممن تنشر الصحف صورهم. إذ إنّ صاحبة البيت كان لديها نقطة ضعف حيال الشخصيات المشهورة. وقد بدا لي هذا الجمع في تلك الأمسية، متألقاً جداً. وبعد أن تبادلت مع السيدة (بوير) الأحاديث المختلفة التي يجري تبادلها بعد فراق طويل الأمد، سألتها عن (جين).

فأجابتني بلهجة فيها شيء من الحدّة:

(إنها بخير)

- وذلك الزواج، كيف يسير؟

فتأخرت السيدة (توير) بالإجابة، وتناولت لوزة مملّحة:

(بنجاح كبير).

- إذن، تكونين قد أخطأت؟

- لقد قلت إنه لن يدوم طويلاً، ومازلت أقول ذلك، إنه تحد للطبيعية البشرية.

- وهل هي سعيدة؟

- إنهما سعيدان كلاهما.

- أعتقد أنك لا ترينهما كثيراً.

- في البداية، نعم، ولكن الآن.... - وزمت شفتيها - لقد أصبحت (جين) شخصية هامة جداً!

فسألتها ضاحكاً:

- ماذا تعنين بهذا؟

- يجب أن أحذّرك: إنها هنا هذا المساء.

- هنا؟

لقد أذهلني ذلك، ومن جديد أخذت أتفحّص المائدة. ولم أتصور أنّ صديقتنا الجميلة، اللطيفة والمرهفة الحسّ، يمكن أن تدعو إلى العشاء ريفية عجوزاً ذابلة، متزوجة بمهندس مغمور.

ولاحظت السيدة (توير) استغرابي وارتباكي، وأدركت ما يدور في خلدي، فابتسمت بمرارة:

(وهي على يسار مضيفتنا؟)

كانت المرأة العجيبة التي تجلس هناك قد استرعت انتباهي عند دخولي إلى القاعة المزدحمة بالمدعوين، واعتقدت أني لاحظت في

عينيها بريقاً لنظرات ودّية، ولكن كان بإمكاني أن أقسم بأني لم أعرفها.

كان شعرها الأشيب القصير تحيط خصلاته المتلاصقة برأسها الجميل. لم تكن تحاول إخفاء عمرها، لأنها كانت الوحيدة بين السيدات الموجودات في ذلك الحفل، التي لم تستعمل لا خضاب ولا مساحيق، حتى ولا أحمر الشفاه. وكان وجهها وهو عادي تماماً، أحمر وذابلاً، ولكن عدم وجود مواد التجميل (الماكياج) عليه جعل منظره يبدو طبيعياً وظريفاً. وكان يتناقض مع بياض كتفيها اللذين كانا بالحقيقة، رائعين، تحسدها عليهما المرأة التي لم تتجاوز الثلاثين من العمر. ولكن أي فستان!؟ لم يسبق لي أن رأيت فساتين كثيرة، بمثل جرأته وتسامحه: أسود وأصفر، قصير جداً - كان آنذاك هو الزي الدارج - واسع الفتحات على الصدر وعلى الظهر، يكاد يكون من الملابس التذكّرية. ولو لبسته امرأة أخرى، لأثارت فضيحة، ولكنه عليها كان ينسجم مع بساطة شؤون الطبيعة، الحتمية والتي لا جدال فيهاولإبراز تأثير الغرابة دون قصد بالتبيّن والشذوذ دون أي تصنّع، كانت تضع (مونوكل) نظّارة بزجاجة واحدة، تحملها شريطة عريضة سوداء.

فتمتمتَ متردّداً:

(إنك، على أية حال، لن تحاولي إقناعي بأنّ هذه السيدة هي ابنة عمّك).

فأجابتني السيدة (توير) بكل برود:

- إنّ هذه السيدة هي (جين نابيي).

وفي تلك اللحظة كانت (جين) تتكلم، وقد التفت صاحب المنزل نحوها، مبتسماً. وجارها الذي يجلس إلى يسارها، وهو رجل أصلع، أبيض الصدغين، نحيل الوجه كان ينحني إلى الأمام وهو بادي الاهتمام، وقد صمت الآخرون وأخذوا يصغون. وفجأة انقلب الجميع

على كراسيهم وانفجروا ضاحكين. وعبر المائدة، خاطب أحدهم السيدة (توير) وعرفته فهو أحد رجال الدولة المشهورين، وقال لها:

(لقد روت ابنة عمك طرفة أخرى، يا سيدتي).

فابتسمت السيدة (توير) وقالت:

(إنها مدهشة، أليس كذلك؟

وقلت أنا: دعيني أحتسي كأساً كبيرة من الشّمبانيا، وحباً بالسماء، حدّثيني عن كل شيء.

إليك ما حدث: في بداية رحلتهما لتمضية شهر العسل، اصطحب (جيلبير) (جين) لدى عدة خياطين في باريس وسمح لها أن تختار حسب ذوقها عدداً معيّناً من الفساتين. ثم اقترح أن يرسم لها (طقماً) أو (طقمين) لأنه على ما يبدو كان يتمتع بموهبة خاصة لهذا النوع من العمل. واستخدم، من أجلها، وصيفةً فرنسية معروفة جداً. وهو أمر لم يسبق لجين أن حظيت بمثله: فهي كانت توصي على حاجياتها بنفسها، ولمساعدتها على ارتداء ملابسها في المناسبات الهامة، كانت تستدعي الطباخة. والفساتين التي اشتراها لها (جيلبير) لم تكن تشبه ملابسها المعتادة، ولكنه كان يتصرف بهدوء، ولم يذهب بعيداً دفعة واحدة، وهي، لكي ترضيه، كانت ترتديها دون تردد، وتفضلها على ملابسها السابقة. وكانت التنانير الواسعة لم تعد مناسبة، وبعد أن تردّدت بشأنها وساورها شيء من القلق، تخلّت عنها.

وقالت السيدة (توير) وهي تبدي حركة تنمّ عن الاستنكار والاشمئزاز: (واليوم لم تعد (السيدة) ترتدي سوى السراويل الحريرية القصيرة فكيف لم تمت بسبب ذلك، بعد أن بلغت هذه السنّ؟)

وكان (جيلبير) والفرنسية يعلمان (جين) ويدرّبانها على طريقة ارتداء فساتينها وملابسها الجديدة، وقد دهشا لسرعة تعلّمها واعتيادها على ذلك. وكانت الوصيفة شديدة الإعجاب بذراعيها

وبكتفيها، وترى أنه لأمر يؤسف له، عدم إظهار هذه المفاتن الجميلة.

فكان (جيلبير) يقول لها:

(مهلاً، تذرّعي بالصبر، يا (ألفونسين) سوف نَبرز ذلك ونستغلّه في المرة القادمة).

كانت النظّارة بشعة ومنفرّة. وهل يمكن الحصول على شيء من الأناقة بواسطة نظارة ذهبية؟

وجرّب (جيلبير) نظارة مصنوعة من الصّدف، ولكنه هزّ رأسه، وقال: (من أجل فتاة شابة، لا بأس، يمكن أن تناسبها، ولكن أنت، يا جين، تجاوزت السن التي كانت تناسبك فيه النظارة).

وخطرت له فكرة، فقال لها:

(ستضعين (مونوكل) نظّارة بعدسة واحدة

- ماذا تقول يا (جيلبير) لا أظن أنك جادّ).

وأخذت تتأمله، وابتسمت لحماسة الفنّان التي يتمتع بها. لقد كان لطيفاً جداً، بحيث أنها لا تحاول سوى إرضائه وإدخال السرور إلى قلبه، ولذلك قالت:

(وعلى أية حال، لماذا لا أضع مونوكل؟

وأخيراً، عند بائع النظّارات، بعد أن جرّبت بعض العدسات، ووضعت (مونوكل) بفرح وابتهاج، على إحدى عينيها. صفّق (جيلبير) إعجاباً، وصاح: (رائع)

وسافرا إلى إيطاليا، حيث أمضيا عدة أشهر ينعمان خلالها بالسعادة، بينما كان (جيلبير) يدرس الهندسة المعمارية في عصر النهضة وعصر (الباروك) (القرن السابع عشر). وأخذت (جين) تعتاد على التحوّلات التي طرأت عليها، وبدأت تألفها. فقد كانت في البداية، عند عودتها إلى قاعة الطعام، في الفندق، تشعر بالحرج والخجل، لأنّ لا أحد كان ينتبه لها أو يعيرها أي اهتمام، ولكن فيما بعد أصبحت

بعض السيدات تأتي لتسألها من أين حصلتَ على فستانها، وهذا ما جعلها تشعر بالسعادة والسرور، وتسألهنّ بشيء من التواضع المصطنع:

(وهل يعجبكنّ؟ إنّ زوجي هو الذي رسمه.

- وهل يزعجك أن تسمحي لي بأن أنقل رسمته؟)

لقد عاشت (جين) حياة هادئة جداً، ولكنّ ذلك لا يعني أنها لم تكن امرأة، بكل ما تعنيه الكلمة، ولذلك فإنها لم تكن تتردّد بالإجابة:

إني آسفة جداً، لأنّ زوجي لا يريد أبداً أن ينقل أحد رسمات وتفصيلات فساتيني. فهو يرغب أن أكون وحيدة في هذا الزيّ.

وكانت تظن أنّ الناس سيعترضون ساخرين، ولكنهم، على العكس، كانوا يؤيدون الفكرة:

(أوه! إني أتفهّم ذلك، حقاً إنك (وحيدة) وفريدة.

ولكنها كانت تلاحظ أنهنّ يبذلن جهداً كبيراً في تفحص تفاصيل ودقائق زينتها، في محاولة منهنّ لتذكرها وتقليدها. وكان هذا الأمر يدهشها.

فطالما أنها لا ترتدي ملابس تشبه ملابس جميع الناس، لماذا يريد هؤلاء أن يصبحوا مشابهين لها في ملابسهم؟

وكانت تقول بلهجة، تعتبرها حاسمة:

(في المرة المقبلة، عندما ترسم لي بعض الفساتين، حاول يا (جيلبير) أن ترسمها بشكل يستحيل نسخه أو تقليده.

- في هذه الحالة ينبغي إذن عمل نماذج و(موديلات) تكونين أنت وحدك من يستطيع ارتداءها.

- وهل تتوصل إلى عمل ذلك؟

- نعم، إذ كنت تنفّذين ما سأطلبه منك.

- وماذا ستطلب مني؟

- أن تقصي شعرك).

فكانت تلك، على ما أعتقد، أول مرة تغضب فيها (جين) وتثور: كان شعرها طويلاً وكثيفاً، وكانت فخورة جداً به، عندما كانت شابة، وفكرة قصه بدت لها أنها تشكل قراراً حاسماً ومصيرياً. وكان يعني أنها تحرق مراكبها ولا سبيل للرجوع بعد ذلك.

وفي حالتها هذه، فإنّ الخطوة الأولى تكون قد كلّفتها أقل من الخطوة الأخيرة. ومع ذلك، فقد حزمت أمرها، ووافقت على قصّ شعرها، قائلة في سرها: (سوف تجدني (ماريون) مضحكة جداً، ولن أستطيع أبداً بعد الآن، الظهور في ليفربول...).

وفي طريق العودة، عند مرورهما بباريس، اصطحبها (جيلبير) إلى صالون المزين (كالو) وهناك شعرت بأنّ قواها قد خارت وكادت تنهار، وكان قلبها يخفق بشدة. وخرجت من هناك، برأس عار ومشوّه، تحيط به بعض الخصل الرمادية والشهباء. وهكذا فقد أنجز (بيغماليون) رائعته العجيبة، وها هي (غالاتي)[1] قد ولدت للتوّ.

فقلت:

(حسن، ولكن كل هذا لا يفسّر لي أبداً مبرّر وجود (جين) هنا، في هذه الأمسية، وسط كل هؤلاء الوزراء والدوقات، ولا لماذا تجلس بين صاحب البيت وأحد كبار القادة.

- (جين) فكهة، صاحبة نكتة. ألم تلاحظ أنهم يتلوّون ويغربون في الضحك عندما تفتح فمها؟

لم تعد السيدة (توير) تخفي غيظها.

(وعندما أخبرتني بعودتهما من رحلة شهر العسل، رأيت أنه من الضروري دعوتهما لتناول طعام العشاء. وكنت أعرف أنّ ذلك سيكون

---

[1] (pygmalion) , (Galatee) : من شخصيات الأساطير اليونانية القديمة. (المترجم).

مرهقاً ومضجراً، ولم أشأ أن أفرض هذا الحضور، بل هذا العمل المرهق على أناس ذوي أهمية حقيقية. ومن جهة أخرى، لا أريد أن أخلق انطباعاً لدى (جين) بأني لا أعرف سوى التافهين والثقلاء. وأنا من عادتي، كما تعلم، لا أدعو أكثر من ثمانية أشخاص.

ولكني فكرت أنّ الأمور، في هذه المناسبة ستسير بشكل أفضل لو كان عدد المدعوّين اثني عشر. وكنت مشغولة جداً، فلم أستطيع رؤية (جين) قبل موعد حفل العشاء. وقد تأخرت قليلاً، وجعلتنا ننتظرها - لأن (جيلبير) يرتب لها الأمور بشكل جيد - وأخيراً ظهرت، فكدت أسقط مغشياً علي. وكانت تبدو كل النساء الحاضرات، إلى جانبها، عتيقات، قديمات الزّي. وأنا نفسي كنت أبدو حيالها كصورة كاريكاتورية لإحدى العجائز.

واحتست السيدة (توير) جرعة من الشمبانيا.

(وكيف أصف لك فستانها؟ كان من المستحيل تصوره على أية امرأة كانت، ولكنه، عليها، كان رائعاً. والمونوكول!

أنا أعرف (جين) منذ خمس وثلاثين سنة، ولم يسبق لي أبداً أن رأيتها بدون نظارة.

- ولكنك تعلمين جداً أنّ قامتها جميلة.

- وكيف يمكنني معرفة ذلك؟ لقد كنت أراها دائماً، كما رأيتها أنت لأول مرة، متدثرة بملابس زريّة. فهل لاحظت أنت آنذاك أنّ قامتها جميلة. كان يبدو عليها أنها تشعر بالتأثير الذي تحدثه ولكن على ما يظهر، كانت تعتبر ذلك أمراً طبيعياً جداً. وأرسلت تنهيدة الارتياح والانفراج. حتى وإن كانت صعبة الانقياد، بسبب هذه العقلية، فإنّ هذا لم يعد له كبير أهمية. كانت في الطرف الآخر من المائدة وكنت أسمع القريبين منها يضحكون كثيراً، فقلت لنفسي:

(هيّا، لا بأس، فعلى الأقل يبدو أنّ الآخرين يجدون وسيلة لطرد

الملل وللتسلية). ولكن بعد الانتهاء من تناول العشاء، ذهلت عندما أتى ثلاثة أو أربعة رجال وقالوا لي إنّ ابنة عمي مدهشة وسألوني فيما إذا كنت أظنّ أنها توافق على استقبالهم. فاعتقدت أني كنت أحلم! وبعد ذلك بأربعة وعشرين ساعة، رنّ الهاتف: كانت المتكلمة مضيفتنا هذا المساء. لقد علمت أنّ ابنة عمي الرائعة موجودة في لندن، وأنها يسعدها كثيراً إذا أقنعتها بالحضور لتناول طعام الغداء معها. وغريزة هذه المرأة لا يتطرق إليها الخطأ. فبعد مرور شهر من الزمن، كانت (جين) قد انطلقت واشتهرت. وأنا موجودة هنا هذا المساء ليس لأني أعرف صديقتنا منذ عشرين سنة، ولا لأني دعوتها إلى العشاء مائة مرة، بل لأني ابنة عم (جين).

مسكينة السيدة (توير)! لقد هَزمت بأسلحتها الخاصة بها! فهي تستحق كل مودّتي وتعاطفي: فقلت لمواساتها:

(الناس لا يستطيعون المقاومة حيال من يعمل على إضحاكهم).

- أمّا أنا، فإنها لم تستطع إضحاكي.

ومرّة أخرى، تعالت الضحكات من الجانب الآخر في المائدة، وهكذا ازدادت (جين) تألقاً ونجاحاً.

فتساءلت مبتسماً:

(إذن، أنت الوحيدة التي لا تجدينها ظريفة وفكهة؟

- وأنت، هل أعجبتك دعاباتها؟

- لابدّ لي من الاعتراف بأنها لم تعجبني.

- إنها تردّد الطرف والنوادر نفسها منذ خمسة وثلاثين سنة، وأنا أضحك مع جميع الآخرين لكي لا أبدو امرأة جامدة، ولكني أؤكد لك أني أفعل ذلك دون اقتناع.

- كما كانت تفعل الملكة فكتوريا.

وكانت هذه المقارنة غير موفقه، وكان للسيدة (توير) الحق ألاّ

تكتم رأيها فيها وأن تعترض عليها، ولذلك أسرعت بتغيير مجرى الحديث، فقلت، وأنا أجول بنظري حول المائدة:

(وجيلبير، أين هو، هل هو موجود أيضاً هنا؟

- لقد دعي جيلبير، بالطبع لحضور هذا الحفل، ولولا ذلك لرفضت (جين) أن تحضره، ولكنه يحضر هذا المساء اجتماعاً أو وليمة كبرى يقيمها اتحاد المهندسين المعماريين، أو شيئاً من هذا القبيل.

- إني أتحرّق شوقاً لتجديد تعارفي وعلاقتي بـ (جين)

- اذهب وتودّد إليها، بعد انتهاء حفل العشاء. وستدعوك إلى إحدى الحفلات التي تقيمها يوم الثلاثاء.

- وهل تقيم حفلات يوم الثلاثاء؟

- هي تبقى في المنزل مساء الثلاثاء. وسوف تجد هناك نخبة المجتمع. حيث تعقد أكثر الاجتماعات تألقاً في لندن. وقد حققت خلال سنة واحدة ما لم أستطع تحقيقه طيلة عشرين سنة.

- ولكنّ هذا يعتبر أعجوبة، فكيف حصل؟

فهزت السيدة (توير) كتفيها الجميلين الممتلئين، وقالت:

(أنا أسألك عن ذلك، عسى أن تجد له تفسيراً).

وبعد العشاء، أسرعت نحو (جين)، ولكن عند مروري أمسك بي أحدهم، ولم يحدث إلاّ قليلاً بعد ذلك أن قالت لي صاحبة البيت:

(تعال لأعرّفك على نجم أمسيتي، ألا تعرف (جين نابيي) إنها امرأة مدهشة، وهي أكثر مدعاة للتسلية وللضحك من كل مسرحياتك الهزلية).

واقتادتني إلى قرب الديوان الذي كانت تجلس عليه. وكان الأميرال، جارها على المائدة، لا يزال معها، ويبدو أنه كان مرتاحاً ومسروراً وهو بجوارها، وعرفتني (جين) عليه، وهي تمد لي يدها:

(أتعرف السّير ريجنالدفروبيشير؟)

كانت هي (جين) نفسها التي عرفتها سابقاً، بسيطة جداً، دون أية طموحات تذكر، ولكنّ مظهرها الغريب والذي لا يمكن أن يصدقه من لا يراه، كان يضفي طابعاً خاصاً ولاذعاً على كل ما تقوله. وفجأة أخذت أقهقه ضاحكاً، فقد أبدت ملاحظة حصيفة وفي وقتها المناسبة تماماً، ولم تكن شديدة الذكاء أو خفيفة الروح، ولكنّ طريقتها في التكلم وعينها الصريحة والصادقة خلف (المونوكل) تجعلان سحرها لا يقاوم. كان حضور هذه المرأة يثير الحميّة في النفوس ويجعل المرء في حالة من توقّد القريحة. وعندما هممت بالانصراف قالت لي:

(إذا لم يكن لديك شيء أفضل تعمله، تعال لزيارتنا مساء الثلاثاء و(جيلبير) سيسرّ كثيراً بلقائك مرة أخرى!)

فقال الأميرال:

- عندما يكون قد أمضى شهراً في لندن، فهو سيعرف أنه لن يجد شيئاً يعمله أفضل من حضوره لزيارتك.

وهكذا إذن، فقد ذهبت في وقت متأخر بعض الشيء إلى منزل (جين) وقد انبهرت بالفعل، فقد كان هنالك مجموعة لا مثيل لها: كتّاب، رسّامون، سياسيون، ممثلون، سيدات فاضلات ونساء باهرات الجمال. لقد كانت السيدة (تويز) على صواب: كان كل شيء في غاية الأناقة. ولم يكن الجو بحاجة لأية جاذبية أو فتنة خاصة. ومائدة المأدبة كانت مناسبة، ولكن دون ترف وأبهة: و(جين) وهي الهادئة على الدوام، كان يبدو عليها أنها تلهو وتتسلى. ولم تكن تهتم وتتشغل كثيراً بضيوفها، ولكنهم، من جهتهم كانوا مفتونين وفي منتهى السعادة، وطال أمد تلك الأمسية حتى الساعة الثانية صباحاً. وبعد تلك السهرة، التقيت كثيراً بـ(جين). ونادراً ما كنت أتناول طعام الغداء أو العشاء في المدينة دون أن ألتقي بها. وأنا أتذوق وأقدر الفكاهة وقد حاولت تحليل فكاهة ودعابة (جين) وكان من المستحيل نقل أحاديثها، لأنّ الفكاهة،

مثلها في ذلك مثل بعض أنواع الخمور، فهي لا تتحمل السفر والانتقال.

لم يكن لديها حسّ السخرية والهجاء، ولا الجواب الحاضر والرد السريع المتألق، ولا أي كلام جارح في ملاحظاتها، ولا أية إساءة في ردودها. ويرى البعض أنّ روح الدعابة تكمن في الخشونة والكلام البذيء، أكثر منها في الإيجاز والكلام اللطيف، ولكنّ أحاديث (جين) ما كانت لتجعل جبين أحد يحمر في تلك الأيام من سنة ١٨٨٠.

لم يكن في حسّ الدعابة لديها أي تصنّع أو تكلّف. فهو يتبع هواه، كالفراشة التي تطير متنقلة من زهرة إلى أخرى. وكانت طريقة جين بالتكلم وبارتداء الملابس، تزيد، بالحقيقة من رقة دعاباتها، وخفة روحها. ومع ذلك فإن ذلك الشذوذ وتلك الغرابة، وهما من عمل (جيلبير) لا يمثلان سوى واحد من عناصر نجاحها. إذ انّ (جين) كانت مطابقة لذوق العصر، والناس كانوا يضحكون حالما تفتح فمها. ولم يعودوا ينتقدون زواج (جيلبير) بل أصبحوا يقولون: إنّ (جين) هي إحدى النساء اللواتي لديهن لا يحسب أي حساب للسنّ. فهل كان ذلك من حظ هذا الشاب!.

وكان الأميرال، يقول لي، مستشهداً بما قاله (شكسبير) (لا تستطيع السنّ أن تصيبها بالذبول، ولا التعوّد يمكنه أن يزيل رونق جدتها التي تعود فتولد ثانية بشكل دائم).

كان (جيلبير) مبتهجاً جداً، بل مفتوناً بهذا النجاح، وبعد أن عرفتها بشكل أفضل أصبحت أجده أكثر ظرفاً وجاذبية، فلم يكن لديه شيء من صفات المغامر، أو ممّن همه السعي للحصول على البائنة وعلى المال. كان فخوراً جداً بزوجته ويحيطها بالرعاية والعناية بشكل يدعو إلى التأثر. فهو نقيض الشخص الأناني، وذو طبع لطيف، ساحر. وقد سألني ذات يوم، بلهجة تتسم بزهو الشباب بفوزهم وانتصارهم:

(حسن، ما رأيك بـ(جين) الآن؟

- إني أتساءل بمن يجب أن أعجب أكثر: بك أم بها.

- أوه! أنا، لا ينبغي أن يحسب لي أي حساب.

- يا لها من أكذوبة مضحكة! لا تظن أني مغفل جداً لدرجة أني لا أعرف أنك أنت، وأنت وحدك الذي صنعت منها، ما هي عليه الآن.

- مزيتي الوحيدة هي أني رأيت ما كان ظاهراً للعيان.

- أنا أفهم أيضاً أنك تبينت لديها إمكانية هذا المظهر العاطفي، والمؤثر، ولكن، بحق الشيطان، كيف استطعت أن تحولها إلى امرأة فكهة، تروي النوادر والملح؟

- ولكني من اليوم الأول، وجدت أنّ ما تقوله يبعث على الضحك الشديد، وهي كانت على الدوام ومازالت تتمتع بروح الدعابة وحسّ النكتة.

- لقد كنت الوحيد الذي لاحظ ذلك.

وكانت السيدة (توير) تعترف بأريحية أنها أخطأت وأساءت الحكم على (جيلبير) بل وكانت ترى أنه لطيف جداً.

ولكنها ظلت تتنبأ بأن هذا الزواج لن يستمر أو يدوم طويلاً، وانتهى بي الأمر أني أخذت أهزأ بها: (أخيراً، لم ير أحد زوجين أكثر اتحاداً)

- لقد بلغ (جيلبير) للتوّ، السابعة والعشرين من العمر، وهذا هو الوقت المتوقع تماماً لظهور فتاة جميلة على المسرح.

وهل لاحظت، ذلك المساء، في منزل (جين) ابنة أخت السير (ريجنالد) الشابة الجميلة؟ لقد بدا لي أنّ (جين) تنظر إليها وإلى (جيلبير) بكثير من الانتباه.

- لا يمكن أن تخشى (جين) منافسة أية فتاة في العالم.

- سوف نرى.

- لقد أعطيتها ستة أشهر.

- صحيح، ولكني الآن أعطيهما ثلاث سنوات.

عندما يكون أحدهم شديد الثقة بنفسه إلى هذه الدرجة، فمن الطبيعي التمني بأن تكذبه الأحداث. ولكني أنا لم أحصل على هذه المسرّة. فالزواج غير المتجانس كانت نهايته بالشكل الذي ما انفكت السيدة (توير) تتوقعه. ولكنّ توقعاتنا نادراً ما تتحقق بالشكل المرغوب تماماً، وإذا كانت تستطيع أن تفتخر وتزهو بأنها كانت محقة وعلى صواب، فهي مع ذلك قد أخطأت. إذ إنّ الأمور لم تحصل كما كانت تتوقع.

وذات صباح، استدعتني على عجل. فأسرعت بالذهاب إليها. فنهضت واقتربت مني وهي تمشي بخطوات هادئة وصامتة، كنمر يتحفّز للوثوب. كان انفعالها واضحاً، وقالت:

(جين وجيلبير انفصلا

- عجباً؟ إذن، كان تقديرك، مع ذلك، صحيحاً.

وقد فوجئت وشعرت بالدهشة والذهول عند سماعي عبارة السيدة (توير) فتمتمت: (مسكينة جين!)

فردّدت بلهجة ساخرة، حيّرتني: (مسكينة جين!)

وكان عليها أن تَجهد نفسها لكي تروي لي الحقيقة. إذ إنّ (جيلبير) كان لا يزال على الدرج، بينما كانت قد أسرعت للاتصال بي.

ومنذ أن دخل الزوج الشاب، أدركت، من سيمائه المتعبة أنّ أمراً خطيراً ومرعباً قد حصل. وقبل أن يفتح فمه، كانت تعرف مسبقاً ماذا سيقول.

(لقد هجرتني (جين) يا (ماريون)

فابتسمت وأمسكت بيده:

(حسن جداً يا جيلبير، أنت تتصرف كرجل نبيل (كجنتلمان) كان يمكن أن يبدو الأمر مرعباً بالنسبة لها لو شعرت أنها قد أصبحت منبوذة بعد أن تمّ التخلّي عنها.

- لقد أتيت لمقابلتك لأني أعرف أني أستطيع الاعتماد على عطفك ومودتك.

فقالت السيدة (توير) بكل طيبة قلب:

- أوه! أنا لا ألومك على أي شيء. فهذا كان ينبغي أن يحصل)

فتنهد، وقال:

(ربما. فأنا لم أكن آمل أن أحتفظ بها إلى الأبد، فهي مدهشة وأنا، لست سوى شخص مسكين وعادي تماماً).

وربّتت السيدة (توير) على يده، فهو بالتأكيد رجل طيب.

وماذا سيحصل الآن؟

- إيه، إنها تريد الطلاق

- لقد كانت (جين) تقول دائماً إنك إذا رغبت ذات يوم بالزواج بفتاة شابة، فهي لن تعارض في ذلك أبداً.

- إنك لن تريني، مع ذلك، أتزوج امرأة أخرى بعد أن كنت زوج (جين)!

فاعتقدت السيدة (توير) أنها أساءت فهمه:

- بالطبع، أنت الذي هجرت (جين)؟!

- أنا؟ هذا آخر شيء يمكن أن أعمله في حياتي!

- إذن لماذا هذا الطلاق؟

- لأنها ستتزوّج السير (ريجنالدفروبيشير)، حالما يصدر الحكم.

فصرخت السيدة (توير) بأعلى صوتها:

(بعد كل ما فعلته من أجلها؟

ثم كان لابدّ لها من تَسرع لاستخدام قارورة الأملاح التي تستنشقها.

- أنا لم أفعل شيئاً يذكر أبداً.

- ومع ذلك، فإنك لن تدعها تعاملك بهذه الطريقة؟!

- كنا قد اتفقنا، قبل أن نتزوج، إذا كان أحدنا يريد أن يسترد حريته، فإن الآخر لن يمنعه من ذلك.

- ولكن هذا كان من أجلك، فأنت تصغرها بسبع وعشرين سنة!.

- إيه، كما ترين، لقد انقلب هذا الشرط لصالحها.

قال ذلك وهو يتنهد.

فزمجرت السيدة (توير) وناقشت، وأدلت بالحجج والبراهين، ولكنّ (جيلبير) لم يشأ أن يسمع شيئاً، بل قال: لا يمكن أن يطبق أيّ اتفاق مدني أو اجتماعي على (جين) وأنه سيوافق على كل ما تريد. وانصرف تاركاً السيدة (توير) وهي منهكة.

وشعرت بالراحة والانفراج بعد أن روت لي كل شيء بالتفصيل وقد سرتها دهشتي التي لم تكن تقل عن دهشتها، وإذا كنت لم أبدَ مستاءً حانقاً مثلها، وكما تريد هي، فإنّ ذلك يعود - حسب رأيها - إلى ذلك الضعف السيء في الحسّ الأخلاقي، المشترك لدى جميع الرجال. ولم يكد اضطرابها يهدأ حتى فتح الباب، وأدخل رئيس الخدم (جين) نفسها. كانت ترتدي ملابس سوداء وبيضاء، وهما لونان يتناسبان تماماً مع وضع على هذه الدرجة من الزيف والغرابة، ولكن مع فستان مبتكر ونزويّ، وقبعة غريبة الشكل، الأمر الذي أصابني بالذهول التام. كانت وديعة وهادئة أكثر من أي وقت مضى. واقتربت من السيدة (توير) لتعانقها، ولكنّ هذه تراجعت، وقد استولى عليها برود شديد، وقالت:

(لقد خرج (جيلبير) للتوّ، من هنا)

فأجابت (جين) وهي تضحك

- نعم، أعرف ذلك، فأنا التي أرسلته. إني سأسافر هذا المساء إلى باريس، وأريد منك أن تدعوه إلى منزلك بضع مرات أثناء غيابي.

فهو ربما شعر بالوحدة في الأيام الأولى، وسأكون أكثر هدوءاً واطمئناناً إذا عرفت أنك ستهتمين به).

فضمت السيدة (توير) يديها في حركة تنم عن الشكوى والاستغراب، وقالت:

(لقد أخبرني (جيلبير) بأمر لم أستطع تصديقه، فقد قال لي إنك ترغبين بالطلاق منه لكي تتزوجي السير (ريجنالدفروبيشير).

- أنت تتذكرين أنك نصحتني قبل زواجي بجلبير، أني بدلاً من هذا الزوج، عليّ أن اختار زوجاً في مثل سني، ألا تتذكرين ذلك؟ والآن أعمل بنصيحتك، فالأميرال في الثالثة والخمسين من العمر.

فقالت لها السيدة (توير) غاضبةً:

- ولكن أنت مدينة بكل شيء لجيلبير، يا جين، فماذا سيحلّ بك إذا لم يكن بجانبك لكي يرسم لك فساتينك؟

فأجابتها (جين) بهدوء، وهي رابطة الجأش:

- لقد وعدني بأن يتابع رسمها لي باستمرار.

- وياله من زوج! ممتاز على الدوام، بالنسبة لك.

- حقاً، لقد كان لطيفاً جداً.

- وكيف يمكن أن تكوني فاقدة العاطفة والإحساس إلى هذه الدرجة؟

- ولكني لم أكن مغرمة به، وهو يعرف هذا جيداً. وقد بدأت أشعر بالحاجة للعيش مع رجل في مثل سني. وقد استمرت تلك التجربة، بما فيه الكفاية. والشباب ليس لديهم ما يقولونه).

وعادت فابتسمت من جديد، ثم أضافت:

(وبالطبع سأظل ألتقي بجيلبير، وقد تفاهمت بهذا الشأن مع الأميرال. وهو لديه ابنة أخت تناسب (جيلبير) تماماً. وبعد زواجنا مباشرة، سندعوهما إلى (مالطة) - وتعلمين أن الأميرال سيتولى قيادة

أسطول البحر الأبيض المتوسط - وعند ذلك لن يدهشني أبداً أن يتوله كل منهما حباً بالآخر).

فتنحنحت السيدة (توير) لتجرد صوتها، وسألتها:

وهل اتفقت أيضاً مع الأميرال بشأن الحرية، وأنه في حال رغبة أحدكما باستردادها، فإن الآخر لن يعارض ولا يعرقل ذلك؟

فأجابت (جين) بهدوء:

- لقد اقترحت ذلك، ولكنّ الأميرال قال إنه يعرف تقدير قيمة الأشياء الجيدة، وأنه لن يرغب بالزواج من امرأة أخرى، وأنه من جهة ثانية، إذا أراد أحدهم أن يحملني على الطلاق منه... فلديه ثمانية مدافع من عيار اثنتي عشرة بوصة، على بارجته، وأنه سيناقش القضية عن كثب.

وألقت علينا نظرة عبر (المونوكل) ولم يمنعني الخوف من إغضاب السيدة (توير) من الضحك بقوة.

(الأميرال سوف يتصرف بقسوة وعنف)

فمطت السيدة (توير) شفتيها غيظاً وغضباً، ثم صرحت، قائلة:

(إني طيلة حياتي، لم أجدك ظريفة فكهة، يا جين) ولم أستطع أن أفهم لماذا يَسرّ الناس بسخافاتك ويغرقون في الضحك عند سماعها.

- ولكن، حتى ولا أنا، يا (ماريون) لا أجد نفسي فكهة بالمرة، بهذا ردّت عليها (جين) وهي تكشف عن لؤلؤ أسنانها المنتظمة، ثم أضافت:

(وأنا لست مستاءة من مغادرة لندن قبل أن يتبنّى رأينا، نحن الاثنتين كثير من الناس.

فسألتها:

- ولكني أرجوك أن تبوحي لي بسر نجاحك المذهل!

فالتفتت نحوي بطريقتها الودّية، التي أعرفها جيداً:

(أتعلم، أني في بداية زواجي بجيلبير، واستقرارنا في لندن، وعندما أخذ الناس يضحكون وهم يستمعون لي، كنت أول من دهش كثيراً من ذلك، لأني كنت أروي الأشياء نفسها منذ ثلاثين سنة دون أن ينتبه أحد إلى كونها معادة ومكررة ولا جديد فيها. وكنت أظنّ أن ذلك يحدث بتأثير فساتيني المبتكرة والغريبة الشكل، أو بسبب شعري المقصوص، أو عدسة نظارتي الوحيدة (المونوكل). ثم اكتشفت أنّ ذلك يعود لكوني أقول الحقيقة. والفكرة القائلة أنّ المرء يمكن أن يكون صادقاً لا تخطر حتى على بال الناس، لذلك فهم يعتبرون الصدق والصراحة دعابة مسلية. وسيأتي يوم من الأيام، يكتشف أحدهم السرّ، وعندما يعتاد جميع الناس على قول الحقيقة، فلن يكون لها بعد ذلك أي تأثير.

فسألتها السيدة (توير)

- ولماذا كنت أنا الوحيدة التي لا تضحك؟

فتردّدت (جين) كما لو أنها كانت تبحث عن تفسير مَرض، ثم أجابت برفق وتسامح:

(ربما لأنك لا تعترفين بالحقيقة، بل ولا تعرفينها، حتى ولو كانت بادية للعيان، يا صغيرتي (ماريون).

وهكذا، كانت لها الكلمة الأخيرة. إذ إنّ (جين)، وكنت أشعر بذلك، ستكون لها، على الدوام، الكلمة الأخيرة، فهي مدهشة حقاً.

يا لها من شاذة مستهترة!

لم يسبق لي أن ذهبت إلى روما إلاّ في الفصل الذي لا حركة فيه، وأنا أتوقف فيها أحياناً يوماً أو يومين، في شهر آب (أغسطس) أو أيلول (سبتمبر) لأرى من جديد بعض المواقع أو اللوحات التي تثير لدّي ذكريات عزيزة. وبسبب الحرّ، في ذلك الوقت، لا يغادر السكان ظلال (الكورسو): أي المنتزهات والحدائق العامة. وفي المقهى الوطني الذي يغصّ بالموائد الصغيرة، يظل المتسكّعون جالسين ساعات طويلة أمام فنجان قهوة فارغ وكأس ماء. ويلتقي المرء في كنيسة (سيكستين)[1] ببعض الألمان الشقر الذين لفحت وجوههم الشمس، وقد ارتدى كل منهم بنطالاً قصيراً وقميصاً من الزيّ الثوري الفرنسي، وهم يسيرون نزولاً في طرقات إيطاليا الترابية الكثيرة الغبار.

وفي كنيسة القديس بطرس، تنحشر مجموعات صغيرة من المؤمنين المنهكين والمتحمسين، أتوا في رحلة للحج - بواسطة بطاقة جماعية - من بلاد بعيدة، بقيادة أحد الكهنة، وأخذوا يتمتمون بلغات مجهولة لا يفهمها أحد.

وفندق (بلازا) هادئ وجوّه لطيف، بصالوناته الفسيحة التي

---

[1] نسبة إلى البابا سيكست الرابع) الذي أمر ببنائها في الفاتيكان، وقد تبارى أشهر الفنانين الإيطاليين، على مر العصور بتزيينها بأشهر اللوحات الدينية والتاريخية، المقدسة. (المترجم)

يخيم عليها الظلام، ويسود فيها الصمت التام. وفي الردهة، في موعد تناول الشاي، لا يوجد من النزلاء سوى ضابط شاب أنيق وامرأة عيناها كعيني الغزالة يتحدثان بصوت خافت وأمامهما كأسان من عصير الليمون البارد، دون أن ينتهي حديثهما الذي يدل على ذلاقة اللسان التي يتّصف بها الشعب الذي ينتميان إليه. فلو صعدت إلى غرفتك لكي تطالع أو تهيّئ بريدك لترسله، ونزلت بعد ساعتين، لوجدتهما مازالا مستمرين في حديثهما.

وقبل موعد العشاء، تدب الحركة في المشرب (البار) ويزدحم قليلاً بالنزلاء، ولكن فيما تبقى من الوقت لا يكون فيه أحد، فيستغلّ الساقي، المسؤول عنه، الفرصة لكي يحدثك عن أمه السويسرية وعن مغامراته في نيويورك.

وفي هذه المرة أيضاً، سيكون الفندق لي وحدي، تقريباً.

ومع أن المدير قال لي وهو يرافقني ليدلني على غرفتي إنّ النزلاء كثيرون، ولكن بعد أن اغتسلت وغيرت ملابسي، وعدت إلى الردهة، قال لي عامل المصعد، الذي أعرفه منذ زمن طويل، إنه لا يوجد في الفندق أكثر من اثني عشر شخصاً. ولأني كنت منهكاً بسبب الحرّ والرحلة الطويلة التي قمت بها، فقد قرّرت أن أتناول طعام العشاء بهدوء في مطعم الفندق، وأن آوي إلى فراشي في ساعة مبكّرة. دخلت متأخراً بعض الشيء إلى قاعة الطعام الكبيرة التي تنيرها الأضواء المبهرة، دون أن يكون فيها سوى ثلاث أو أربع موائد مشغولة. فتلفتّ حولي بسرور. إذ إنّ العزلة في فندق غير مزدحم بالنزلاء وسط مدينة كبيرة، ليست مجهولة تماماً من قبل المرء، تعطي انطباعاً مريحاً وشعوراً بالحرية.

وبعد أن توقفت في (البار) حيث تناولت كأساً من (المارتيني) أوصيت على زجاجة من النبيذ الأحمر الممتاز.

إذ إنّ التعب لم يكن يمنعني من تقدير وتذوّق الطعام الجيد. وأخذت أشعر بالارتياح وأني أصبحت أكثر نشاطاً ومرحاً. وبينما كنت أتناول بشهية الحساء والسمك، كنت أفكر بأمور سارّة. وتبادرت إلى ذهني نتف من بعض الحوارات، واستيقظتْ في مخيلتي شخصيات رواية كنت أكتبها، ودبت الحياة في تلك الشخصيات. وصفت جملة، وجدلها لساني، وأنا ألفظها، طعماً أشهى وأقوى من طعم الخمر. ولكم يختلف الأمر، مع ذلك، بين وصفنا وتصويرنا الناس للقارئ، وبين رؤيتنا لهم، بأنفسنا وهذا ما ظل يبدو لي على الدوام، أنه إحدى العقبات الصعبة في مهنتنا نحن الكتاب. فأين تصبح أهمية وجه وحقيقته ونحن نصف قسماته الواحدة بعد الأخرى. وإذا كان أسلوب بعض الكتاب الذين يَبرزون بقوة خاصية جسدية، ابتسامة شريرة، أو نظرة خبيثة، يحدث أحياناً بعض التأثير، فهو يحوّل المشكلة، بل يقلبها، بدلاً من أن يحلها. فكيف سأتناول هذا الموضوع لكي أصف جيراني؟ فهنالك رجل بمفرده، يتناول عشاءه قبالتي ولكي أتدرب على وصفه أخذت أتفحّصه: إنه رجل طويل ضخم الجثة، ربما كان يتمايل في مشيته. وفي فتحة بزته الرسمية (السموكنغ) تلمع واقية للصدر واضحة لا عيب فيها. ووجهه الأجرد والملوّح كان متطاولاً وعيناه ذابلتين، أما فمه وأنفه فكانا عاديّين. ربما كان أحد المفكّرين ولكن من الطبقة الثانية، بل ربما كان محامياً أو أستاذاً جامعياً، من هواة رياضة (الجولف). ورغبت أن أنسب له ما يكفي من الذوق والثقافة الأدبية لأجعل منه ضيفاً ظريفاً على إحدى وجبات الغداء. في (شيلسي) (Chelsea)[1] ولكن كيف يمكنني أن أرسم له ببضعة أسطر، صورة، تكون في آن واحد، حيّة، مفيدة وهامة وتتصف بالدقة التامة؟ ألا يكون

---

[1] حي في غرب لندن على ضفة نهر التايمز. (المترجم).

من الأفضل، رغم كل شيء إبراز ذلك الطابع الذي ينم عن استنارة متميزة، وهي إجمالاً الخاصية الوحيدة لسيمائه وهيئة وجهه؟ كنت أتفحّصه وأنا مستغرق في التفكير، عندما انحنى فجأة ووجّه لي تحية مقتضبة، ولكنها تنم عن المجاملة والتودّد. ومن عادتي أني يحمّر وجهي خجلاً عندما أفاجأ بحركة أو تصرف من هذا القبيل: وهذا ما حصل لي، فقد شعرت أنّ خدّي قد تضرجا احمراراً. كنت قد تفحصته ودرسته بالتفصيل، خلال بضعة دقائق، وفككته قطعة بعد قطعة مثلما يفكّون تمثال عرض الملابس (المانيكان). ولابدّ أنه قد اعتبرني سيء الأدب. وانحنيت وقد اعتراني بعض الارتباك ثم حوّلت نظري عنه، ولحسن الحظ كان الخادم يقدم لي طبقاً من الطعام في تلك اللحظة. وكان بإمكاني أن أقسم أني لم يسبق لي أن رأيت هذا السيد أبداً. فهل كان من تأثير اطالة نظري إليه أنه اعتقد أننا نعرف بعضنا أم أنّه من الممكن أن أكون حقاً قد التقيت به في مكان مّا، دون أن يترك لدّي أية ذكرى؟ وأنا ذاكراتي لا تحتفظ بسيماء الأشخاص، وفي الحالة الحاضرة، كان عذري أنّ هذه الشخصية عادية جداً. ففي أيام الآحاد، عندما يكون الطقس جميلاً نلتقي بالعشرات من نموذج هذا (الجنتلمان) في جميع ملاعب رياضية (الجولف) في ضواحي لندن.

وانتهى من تناول طعامه قبلي، وعندما خرج توقف بالقرب من مائدتي، وقال وهو يمدّ لي يده:

(كيف حالك؟ إني لم أعرفك عندما دخلت، فأرجوك ألا ترى في ذلك أية نية سيئة).

كان يتكلم بصوت متزن، وبتلك اللهجة الخاصة بأكسفورد، التي يقلدها كثير من الناس دون أن يكونوا قد وضعوا قدميهم أبداً في تلك الجامعة. وبالطبع، فإنه لم يكن يشك بأنه لم يترك لدي أية ذكرى. وكنت قد نهضت ومع ذلك فقد أرغمته قامته الطويلة على أن يخفض

بصره نحوي. كان يبدو عليه نوع من السأم، وقد ساهم ظهره المنحني في إعطائه شكلاً ينمّ عن الضعف. وكان يجمع في أساليبه بين التنازل والحياء. وقال لي:

(هيا، تعال تناول قهوتك معي، فأنا وحدي)

- بكل سرور.

وتركني دون أن أتمكن من تذكر اسمه، ولا أين التقيت به لآخر مرة. وهنالك أمر أثار اهتمامي: وهو أنه في أية لحظة، خلال حديثنا، ولا عندما شدّ على يدي مصافحاً، أو حينما تركني، لم يبد على وجهه حتى ولا ظلّ ابتسامة. وعن قرب بدت لي بنيته الجسدية أقل ضعفاً وقبحاً، ولكن ملامحه المنتظمة وعينيه الكبيرتين الرماديتين، وقامته الممشوقة، كل هذا لم يكن يَمثّل شيئاً خاصاً وهاماً. وربما بدا لإحدى الحمقاوات أنه رومانسي، فهو يذكر، مع المحافظة على النَسب، بفرسان الرسام (بورن جونز) في لوحاته الشهيرة، ولكن ليس من شيء يسمح بأن نفترض أنه مصاب بالمغص المزمن الذي كان يعاني منه أولئك التعساء. إنه أحد أولئك الرجال الذين يقولون في سرّهم إنهم لابد أن يكونوا رائعين في حفلة للرقص التكري، ولكنهم بدلاً من ذلك يصبحون مضحكين.

ولحقت به بعد قليل إلى الردهة حيث كان ينتظرني جالساً على أريكة كبيرة. عندما لمحني، نادى أحد الخدم، وجلست بقربه، فطلب القهوة وبعض المشروبات الروحية، بلغة إيطالية سليمة. وكيف أكتشف من هو، دون أن أغضبه؟ فالناس ينزعجون دائماً إذا لم يعرفهم الآخرون، لأنهم عادة يكونون متأكدين من أهميتهم، لدرجة أنهم يحتارون ويضطربون إذا تبينت لهم قلة أهميتهم في نظر الآخرين. وفجأة تذكرت اسمه، وفي الوقت نفسه سبب النفور الذي يوجي لي به. (همفري كرّوثير) - وهذا اسمه - كان يشغل منصباً هاماً في وزارة

الخارجية: لم أعد أتذكر إدارة أي قسم فيها. وقد أمضى بعض الوقت، يعمل ملحقاً في عدة سفارات، وبالطبع، فقد اكتسب في روما هذه المعرفة الجيدة للغة الإيطالية. كيف لم أكتشف في الحال أنه من رجال السلك الدبلوماسي؟ مع أنه بدر منه ما يدل على ذلك: هذه المجاملة الزائدة عن الحدّ التي تبعث على الغيظ، وهذا التعالي الذي يتصف به الدبلوماسي الواثق من تفوقه، والمنزعج لشعوره بأن الآخرين لا يعترفون له بهذا التفوق. لم يسبق لي أن التقيت بـ(كرّوثير) ألاّ حول إحدى الموائد، حيث كنت أكتفي بأن أشدّ على يده، وفي دار الأوبرا، حيث كان يوجّه لي تحية عابرة. كان يعتبر موهوباً، وعلى أية حال، كانت ثقافته تسمح له أن يعالج جميع أنواع المواضيع. ومما يزيد من عدم إمكانية معذرتي لعدم معرفته، ولنسيانه أنه كان قد حقق شهرة كمؤلف قصص قصيرة، فقد انطلق عن طريق إحدى المجلات التي يصدرها من وقت لآخر بعض المهتمين برعاية الأدب وحمايته، لكي يقدموا للجمهور المثقّف غذاء ثقافياً يستحق اهتمامه ولكنّ تلك المجلات تتوقف عن الصدور عندما تنضب المعونات التي كانت تقدم لها. وفي تلك الدورية العالية المستوى، كانت قصصه قد أثارت بعض الاهتمام الذي يتيحه العدد المحدود من النسخ التي توزعها تلك الدورية. ثم جمعت تلك القصص في كتاب، وهذا ما حقق لمؤلفها النجاح والشهرة. ونادراً ما قرأت في الصحف ثناء بهذا الإجماع: فقد خصّصت معظم الصحف عموداً للحديث عن هذا الكتاب ونوهّت به صحيفة (التايمز) في ملحقها الأدبي، إلى جانب مذكرات أحد كبار رجال الدولة.

وكان النقاد يحيون لدى (همفري كرّوثير) الموهبة الحقيقية الواعدة، ويمتدحون تميزه، عذوبة أسلوبه، سخريته اللاذعة، ودقّة وصحّة وثائقيته ومراجعه. فيا له من أسلوب وذوق رفيع، وأية موهبة

وقدرة على الإيحاء؟!

وأخيراً فهو الكاتب الذي رفع مستوى القصة القصيرة، بعد أن هبطت إلى الحضيض في البلدان التي يتكلم سكانها باللغة الإنكليزية. وعمله يستحق أن يفخر به أي إنكليزي، فهو يمكن مقارنته بروائع الأعمال الأدبية الفنلندية، الروسية والتشيكية.

وبعد ذلك بثلاث سنوات، نشر (كرّوثير) مؤلفه الثاني وقد أحدثت فترة الانقطاع الطويلة، هذه أفضل الانطباعات: فهذا على الأقل، ليس من أولئك الثرثارين الذين يحطون من قيمة موهبتهم!. وربما كان قد استقبل ببعض الفتور - فقد أتيح الوقت الكافي للنقد لكي تخمد حماسته - ولكن أيّ كاتب محترف مسكين، كان يمكن أن يسرّ بذلك أيضاً. وقد تكرس واستقر وضع (كرّويثر) الأدبي، بعد ذلك. وكان عمله الذي يحمل عنوان:

(Plot a borbe) هو الذي حصل على المزيد من أصوات الاستحسان. وقد أعجب كبار النقاد بصناعته وبأسلوبه المتقن في الكتابة: ففي ثلاث أو أربع صفحات استطاع المؤلف أن يعرّي، ويكشف عن خفايا النفس المأساوية لصبي أحد الحلاقين.

ولكنّ قصته الأكثر شهرة، والأطول أيضاً، عنوانها: - (week End): عطلة نهاية الأسبوع، وقد أعطت عنوانها للعمل الأول. وهي تروي مغامرات بعض الشخصيات التي غادرت محطة (بدّينغتون) يوم السبت بعد الظهر، للذهاب لزيارة بعض الأصدقاء في (تبلوي) والعودة إلى لندن، صباح الاثنين. والقصة على درجة عالية من الرقة والشفافية، لدرجة أنّ لا أحد يستطيع أن يفهم جيداً ماذا حدث بالضبط. فهنالك سكرتير شاب لدى أحد الوزراء يهم بطلب يد ابنة (بارون) ولكنه في آخر لحظة يتردّد.

ويذهب الآخرون للنزهة في قارب كبير. وتتكلم هذه

الشخصيات، على الدوام تقريباً، بالتلميح والإشارة، دون أن يكملوا جملهم أبداً، ويعوضون بالكثير من النداءات والإشارات عن نقص كلامهم وقلّته. وأزهار الحديقة وصفت بدقة متناهية، وهنالك بعض اللوحات المتميزة: نهر (التايمز) تحت المطر المنهمر، وكل شيء مرئيّ بعيني مربية أطفال ألمانية. وقد أجمع النقاد على الاعتراف بأن (كروثير) عبّر عن انطباعات تلك المرأة الفاضلة، بمزيد من الدعابة اللاذعة.

وقد قرأت هذين الكتابين، إذ إن من مهام الكاتب، الاطلاع على الإنتاج الجديد والمعاصر. ولم يكن لي من مطلب سوى التعلّم، وكنت آمل أن أجد فيهما شيئاً آخذه وأستفيد منه. ولكنّ أملي خاب قليلاً. فأنا أحبّ أن يكون للقصة بداية، وسط، ونهاية. ولدّي أيضاً نقطة ضعف: إذ إني أرى أن (الجوّ) كما يقال، في الرواية، يحسن التحدث عنه، ولا بأس في ذلك. ولكن عندما لا يكون فيها سوى (الجوّ) فهي تبدو لي كالإطار الذي تنقصه اللوحة. ربّما كانت عيوبي الخاصة تعميني وتجعلني لا أرى أهلية وكفاءة (همفري كرّوثير) وإذا كنت قد تكلمت دون حماسة تذكر عن أكثر أعماله نجاحاً وشهرة، فهل يمكن أن تنسب هذه التحفظات إلى كبريائي الجريحة؟ فقد كنت أشعر أنّ (كرّوثير) يعتبرني مؤلفاً من الطبقة الأخيرة، وهو بالتأكيد لم يقرأ سطراً واحداً مما كتبت، ولكنّ شهرتي ورواج مؤلفاتي كانا كافيين لإنقاص قيمتي، وزوال حظوتي لديه. ومرّ بعض الوقت، تحدثوا فيه كثيراً عنه لدرجة أنه كاد يتعرض لفقدان الحظوة أيضاً، ولكنّ موهبته المتصاعدة كانت بالتأكيد تمرّ فوق الرؤوس. والمسرحيات الغامضة والمنمّقة جداً بالنسبة للمسؤولين عن مسرح يؤمّه جمهور غفير، يمكن أن يصل إلى عشرة آلاف مشاهد، يمكنها الاعتماد على هذا العدد والكتب التي تتطلب فهماً لا يتوصل إليه العامة، يطبع منها ما لا يزيد

على ألف ومائتي نسخة، لأنّ الطبقة المثقفة (الأنتلّجنسيا) رغم ذوقها المرهف والدقيق تحكم على المسرحيات وتقيمها دون أن تشاهدها، وتحصل على الكتب من قاعات المطالعة.

وأنا متأكد أن هذا الأمر لم يحزن (كرّوثير): لأنه فنّان، وعلاوة على ذلك، فهو آمن على راتبه الضخم الذي يتناوله من وزارة الخارجية. ولا يهتم بضخامة جمهور قرائه، وربما قلّل من شأن نجاحه وشهرته أن تطبع نسخ لا تحصى من مؤلفاته.

والآن، إني لأتساءل، ما هو هدفه من دعوته لي؟ إنه وحده، هذا صحيح، ولكنّ أفكاره ينبغي أن تكفيه، وتغنيه عن أيّ رفيق، ولم أكن أتبيّن ماذا يأمل من رفقتي له، وبماذا يمكن أن تغريه. ولكن، يبدو أنّ الملل الذي كان يتراءى لي وراء مجاملاته، هو الذي دفعه إلى ذلك. وذكّرني بلقائنا الأخير، وبأصدقائنا المشتركين المقيمين في إنكلترا. وتساءل عن سبب وجودي في روما في ذلك الفصل، فهو قد وصلها في صباح ذلك اليوم، بالذات وبدأ الحديث يتباطأ وكاد يتوقف، فأخذت أفكر بالانصراف وتركه بمفرده، وفجأة لاحظت أنه شعر بذلك، وأخذ يفعل كل ما بوسعه لكي يستبقيني، وهذا ما أثار فضولي، فكلما أهملت موضوعاً، كان يطرح موضوعاً آخر. ومع ذلك فإن علاقاته الدبلوماسية لا تجعله يرتبك من أجل قضاء سهرات وأمسيات ممتعة في روما، ولماذا لم يتناول طعام العشاء في السفارة؟ فحتى في عز الصيف، لابد أن يجد أحداً يعرفه فيها. وقد لاحظت أيضاً أنه عابس دائماً، لا يبتسم أبداً. وكانت رغبته بمتابعة الحديث وطريقته بالتكلم بسرعة ودون توقف، تنمان عن القلق وعن خشيته من الصمت والسكوت. ورغم ضعف مودتي وتعاطفي معه، فقد بدأت أهتم بحديثه وبشؤونه. وهل كان ذلك من نسج الخيال؟ كان في عينيه الباهتتين تعبير ينم عما يعانيه الحيوان المطارد والمحاصر: وخلف ملامحه الجامدة التي لا يبدو عليها أي تأثر

أو انفعال، كانت تتراءى معاناة وآلام نفس مريضة ومعذبة. وتبادرت إلى ذهني أفكار غريبة، ولم تكن همومه تعنيني، ولكني كنت كحصان الاحتفالات، المسنّ، أشم رائحة البارود، ورغم أني كنت متعباً جداً، كانت فطنتي وحواسّي تتهيأ لاقطاتها لتلقّي ما سيدلي به:

وكانت كل عبارة يدلي بها وأي حركة تبدر منه لها بنظري مدلول خاص، فهل كان بالمصادفة قد كتب إحدى المسرحيات، ويريد أن يعرف رأيي فيها. إذ إنّ جمهور المسرح له سحر خاص على هؤلاء المرهفي الإحساس وهم لا يزدرون بما يبديه لهم من أراء رجل من أبناء مهنتهم، يعتبرونه أقل موهبة منهم. كلا، لم تكن هذه هي المسألة. ففي روما يتعرّض متذوّق الجمال والفن المنزوي في الوحدة، إلى أخطار خاصة، بعض الشيء. فهل اندس (كرّوثير) في وكر ما ووقع في ورطة مزعجة؟ وللتخلص منها لا يريد أن يلجأ للاستعانة بالسفارة إلا إذا اضطرّ إلى ذلك، في نهاية الأمر. وقد لاحظت أنّ الإنسان الخيالي والمثالي تنقصه الحكمة والروية في معظم الأحيان. ويذهب ليبحث أحياناً عن المتعة وعن وملذات الحب في أماكن معرضة لمراقبة الشرطة وغاراتها. وقد أثارت هذه الفكرة لديّ الرغبة بالضحك. فالآلهة أنفسهم يبتهجون عندما يعرّض نفسه أحد المغرورين لإلقاء القبض عليه في وضع ماجن ومخجل.

وفجأة تمتم (كرّويثر) بجملة أدهشتني كثيراً:

(كم أنا تعيس ومعذّب!)

لم يكن هنالك مجال للخطأ بالحكم على ما قال: فقد كان صادقاً، إذ إن حلقه قد تقلّص بتنهيدة هي أشبه ما تكون بالنحيب. ولا أستطيع وصف التأثير الذي أحدثه عليّ كلامه: فقد ذهلت، كما لو كنت قد تلقيت على وجهي مباشرة هبة رياح قوية، عند منعطف أحد الشوارع بصورة مفاجئة، فجعلتني أترنّح. لم أكن أتوقع منه أن يقول

شيئاً من هذا القبيل أبداً! إذ إنّ معرفتي به بسيطة وسطحية، ولا شيء يربط أو يقارب بيننا. ولكم استغربت أن يعمد رجل متحفظ جداً، رفيع التهذيب، يعرف تقاليد المجتمع وأساليبه إلى البوح بأسراره لرجل غريب! وأنا من طبعي التكتّم. فمهما كنت أعاني من هم وغم، فأنا أخجل من البوح به والتحدث عنه إلى أحد. إذ إنّ الضعف إلى هذه الدرجة كان يثير أعصابي فكيف يجرؤ على أن ينشر هكذا هموم قلبه؟ كدت أصرخ ملء صوتي: (وبماذا تريد أن يعنيني هذا، بحق الشيطان)؟

كانت تعابير وجهه، المهيبة، التي تجعله يشبه تلك التماثيل الرخامية لبعض رجال الدولة في العصر (الفيكتوري) قد تبدّلت وأكمدّت فجأة. وكان وهو متهالك على أريكته يوشك على البكاء: رجل محطم الأعصاب، يثير الشفقة والعطف. فلم أعرف ماذا يجب أن أقول، وفي البداية، عندما سمعته كان قد احمرّ وجهي، والآن شعرت أنه أصفرّ وأصبح شاحباً.

وأخيراً قلت: (إني شديد الأسف).

- وهل تسمح لي بأن أروي لك قصتي؟

- أرجوك أن تفعل ذلك.

لم يكن الوقت يتسع للكلام الفارغ والمنمّق.

كان (كرّوثير) في الأربعين من عمره تقريباً. وهذا الرجل ذو البنية الرياضية، والأنيق مع ذلك. الصلب العود، كان يبدو آنذاك في سنّ تزيد عشرين سنة على سنه الحقيقية، وقد تكوّر وانكمش على نفسه، وذكرني بقتلى الحرب، بأجسامهم الصغيرة الملقاة على الأرض.

وحولت نظري عنه بانزعاج وارتباك، ولكن نظراته ظلّت تلاحقني، وسألني: (أتعرف بيتّي ويلدون بورن)؟

- فيما مضى، كنت ألتقي بها في لندن، ولكني لم أرها منذ عدة

سنوات.

- إنها تقيم في (رودس) وقد أمضيت، منذ زمن قريب، بعض الوقت عندها.

- أه!؟

وهنا تردّد قليلاً.

(أخشى أن تجدني غريب الأطوار، إذا رويت لك هذا الحديث هكذا، ولكني خائر القوى، وقد نفذ صبري، وإذا لم أبح لأحد ما بسري فإني أشعر أني سأصاب بالجنون).

كان قد طلب كأسين كبيرين من الكونياك، مع القهوة، ثم أوصى على كأس أخرى لنفسه. لم يكن في الردهة أحد. وكان ينير مائدتنا مصباح صغير عليه عاكس للضوء. وأخذ (كرّوثير) يتكلم بصوت خافت. وتلك الردهة العامة كانت تولد انطباعاً غريباً بالألفة والمودة. ويستحيل عليّ أن أردد حرفياً ما باح لي به. كان أحياناً، يتحاشى ذكر بعض التفاصيل، فاضطر لأن أحزرها، وعلاوة على ذلك، فإنه لم يكن دائماً متفهماً كل شيء، وكنت على ما أعتقد أتبين الحقيقة أكثر منه. فقد كانت (بيتّي ويلدون بورن) تتمتع بقدر كبير من الذكاء، لم يكن هو يتمتع به ولذلك فقد غاب عنه كثير من الأمور، وفاته فهمها.

وكثيراً ما كنت ألتقي، في الماضي، بـ (بيتّي) ولكني كنت أعرفها، بخاصة عن طريق السّماع. وفي زمنها ذاك، كانت قد لاقت نجاحاً كبيراً في لندن، وقد سمعت الكثير من الأحاديث عنها قبل أن أراها. وكان هذا بعد الهدنة ببضعة أشهر، وفي إحدى حفلات الرقص في 'بورتلاندبلاس' وهي في أوج شهرتها. وكان من المستحيل أن تفتح مجلة مصورة دون أن تجد فيها صورتها، والأحاديث المطولة عن مغامراتها الجنونية. كانت آنذاك في الرابعة والعشرين من عمرها، وقد ماتت أمها، وأبوها الدوق (دوسانت - إيرث) وهو عجوز ومفلس تقريباً، فكان

يمضي معظم أيام السنة في قصره في (كورنويل) بينما كانت (بيتي) تعيش في لندن مع عمتها الأرملة. ومنذ بداية الحرب، سافرت إلى فرنسا وهي في الثامنة عشرة، حيث بدأت العمل كممرضة في الخطوط الخلفية. ثم أخذت تقود إحدى السيارات. وقامت بتمثيل بعض الأدوار في فرقة مسرحية كانت تتجول في الجبهة. ووقفت كنموذج لرسم بعض اللوحات الحية المخصص ريعها للأعمال الخيرية. وقامت أيضاً بتنظيم اليانصيب الخيري عدة مرات، وباعت الأعلام الصغيرة في (بيكاديلي). وكل دور أو عمل جديد تقوم به كان يعلن على الجمهور وتنشر معه صورها. ولا شك أنها كانت تلهو كثيراً، ولكن بعد أن جرى التوقيع على صك السلام، فهي لم تعد تعرف الاعتدال أو التوقف. والناس جميعهم فقدوا رشدهم. واستولى عليهم شيء من الجنون والشباب وقد تخلصوا من الكابوس الذي ظلّ يعذبهم طيلة خمس سنوات، لم يعودوا يعرفون ماذا يبتكرون ويخترعون. وشاركت (بيتي) بالجانب الأكبر من أعمالهم الجنونية. وكان صدى ذلك يصل أحياناً إلى الصحف، حيث كان اسمها يحتل دائماً موقعاً جيداً في صفحاتها الأولى. وكان ذلك في الوقت الذي بدئ فيه بافتتاح وإطلاق نوادي الرقص التي يؤمّها الشباب مساء كل يوم. وظلت (بيتي) تعيش في زوبعة من البهجة والمرح. وقد افتتن بها الجمهور الإنكليزي، ولم يكن في الجزر البريطانية أحد يجهل من هي الليدي (بيتي). وكانت النساء تسرع نحوها وتتجمع حولها عندما تحضر عرساً أو حفلة زفاف، وفي التدريبات العامة، كان الجمهور يحييها ويصفق لها وكأنها أحد نجوم السينما الكبار وكانت الفتيات تقلّد تسريحتها، وأصحاب معامل الصابون ومواد التجميل يشترون حق الترخيص لهم بنشر صورها على منتجاتهم.

وبالطبع فإن الناس الكالحين، المتعجرفين والمتشددين، هؤلاء الذين يتذكّرون الأزمنة الماضية ويأسفون عليها، كانوا ينتقدون سلوكها:

(ما هذا التكالب على الظهور والتقدم دائماً على الجميع). كانوا يعتبرونها طائشة: (ولماذا كل هذه الكؤوس من (الكوكتيل) وكل هذه السجائر؟!). وما قيل عنها ليس في صالحها وأنا لا أقدّر كثيراً النساء اللواتي لم تكن الحرب بالنسبة لهنّ سوى فرصة للعبث واللهو، ولجعل الناس تتحدث عنهن طلباً للشهرة. والصحف التي تنشر صور شخصيات المجتمع، وهي تتنزه في (كانّ) على شاطئ الريفييرا، أو وهي تلعب (الجولف) في (سانت أندروز) تغيظني وتجعلني أشعر بالملل. وأنا على الدوام اعتبر (الشباب المرح واللعوب) تافهاً سخيفاً. ولكن إذا كانت حياة المتعة والمرح تبدو سخيفة وفارغة لمن لا يشارك فيها، فهؤلاء يخطئون فيما إذا دانوها وحكموا عليها باسم الأخلاق ولا ينبغي أن يلام الشباب المرح أكثر مما تلام مجموعة من صغار الكلاب التي تدور حول نفسها محاولة الإمساك بأذنابها، وإذا أتلفت المروج الخضر، أو حطمّت بعض أواني البورسلين الصيني، فتعساً لنا، وعلينا ألاّ نأسف لذلك فالضعاف منها ستموت بينما سيجعل الترويض والتدريب من الآخرين الذين يبقون كلاباً قوية، وحسنة التهذيب.

وصخب الشباب ليس سوى الشكل الذي يعّبر عن حيويتهم، وحيوية (بيتّي) هي التي كانت أكثر ما تلفت النظر وتثير الاستغراب كانت بهجة العيش والحياة تشعّ منها، ولن أنسى ما حييت انطباعي عنها عندما رأيتها في الصالون الذي التقيت بها فيه لأول مرة: كانت تشبه إحدى كاهنات باخوس المتهتكات (في الأساطير اليونانية) وهي ترقص بكل كيانها بالفرح الشديد الذي تبعثه فيها الموسيقا وحركات جسمها الفتيّ. وتحت شعرها الأسمر، الذي كان نزق حركاتها، يبعث فيه الفوضى أحيانا، كانت تبرق عيناها الزرقاوان وبشرة وجهها النضرة: جمال رائع، ولكن لا يعيبه البرود الذي يعيب عادة الجميلات جداً. كانت تضحك على الدوام، أو أنها عندما لا تضحك، فهي تبتسم،

وتتفجر حيوية كيانها المفرطة في نظرتها. كانت تتمتع بقوة وصحة أبناء الشعب العاديين، ولكنّ رفاهيتها، و جمال عنقها ينمان عن طبقتها وعراقة نسبها، ورغم بساطتها يتبين للناس أنها مدركة إلى أي طبقة تنتمي. وأنها في أي مناسبة تستطيع أن تتصب واقفة بكبرياء. كانت تبدو ظريفة وجذابة بالنسبة للجميع، وربما دون أن تقصد ذلك أو تشعر به، لأنها بالأساس لم يكن للآخرين في نظرها أية أهمية. فأنا أستطيع أن أتفهّم لماذا كانت معبودة عاملات (الأيست أند) ولماذا كان نصف مليون من الناس الذين لا يعرفون سوى صورها يتكلمون عنها وكأنها صديقتهم. وعندما قَدّمت لها، خصصت لي بضع لحظات من وقتها. وهي عندما تقابلها تبدي لك اهتماماً مغرياً، والحقيقة أنه لم يكن ممكناً أن تكون مفتونة وسعيدة إلى هذه الدرجة بلقائك، ولا مسحورة إلى هذا الحدّ بحديثك، مثلما تبدو لك أثناء اللقاء. ولكنّ الوهم يبعث دائماً السرور في النفس. وهي تستطيع بفنّها الرائع أن تجعلك تشعر في الحال بالارتياح، وأن تثير لديك انطباعاً، خلال خمس دقائق، أنك تعرفها منذ نشأتها، وانتزعها مني أحد الراقصين استسلمت لذراعه بالتلطف نفسه الذي بدر منها عندما جلست على الأريكة بقربي وبعد ذلك بخمسة عشر يوماً، اكتشفت عندما التقيت بها في حفل غداء، وبكل دهشة أنها مازالت تتذكر تفاصيل الحديث الذي دار بيننا، خلال تلك الدقائق العشر، وسط صخب وضجيج حفلة الرقص: إنها شابة اجتماعية مثالية. ورويت هذه الحادثة لـ (كرّوثير) فقال:

(لقد نسيت أن تكون حيوانة بهيمة. وقليل من الناس يعرفون كم هي ذكية، بل إنها شاعرة أيضاً، وقد نظمت أشعاراً جميلة. ولأن الناس يرونها مرحة مبتهجة على الدوام، لا تحمل هماً ولا ترتبط بأحد، كانوا يظنون أنها سطحية وعابثة. ولكن ليس هنالك ما هو خطأ أكثر من

ذلك. فهي تتمتع بذهن متوقد، يقظ كذهن السعدان. وأين ومتى وجدت الوقت لقراءة كل ما قرأته؟ وربما كنت أنا الوحيد الذي يعرف جيداً هذا الجانب من حياتها. وكنا أثناء عطل نهاية الأسابيع نقوم بنزهات طويلة في البراري الريفية، وفي لندن كنا نتجول في حديقة (ريشموند) ونحن نتحدث. إنها تعشق الزهور، الأشجار، والمروج الخضراء، وهي تعرف كل شيء ومشبعة بالحسّ السليم، وتستطيع التحدث عن أي شيء. وكل شيء يهمّها. وأحياناً، عندما كنا نخرج سوية بعد الظهر، نذهب في المساء إلى أحد الملاهي. وهناك كان كأسان من الشمبانيا يكفيان ليبعثا البهجة والسرور في نفسها، فتصبح عند ذلك هي النديم المفرّح الذي يضفي السعادة على الجميع. ولكم كان يمكن أن يستغرب ذلك الآخرون، لو أنهم سمعونا ونحن نتحدث عن أمور جدية قبل ذلك ببضع ساعات؟ كان التناقض غريباً وعجيباً ولقد كانت مكونة من امرأتين تختلف تماماً أحداهما عن الأخرى).

وقد روى (كرّوثير) كل هذا دون أن تبدو على شفتيه أية ابتسامة، بل وبلهجة تنمّ عن الكآبة والأسى، كما لو أنه كان يتحدث عن شخص اختطفه الموت، قبل الأوان، ومن مجتمع الأحياء المحبوب.

وأرسل تنهيدة عميقة:

(لقد أحببتها بشكل جنوني. وطلبت منها أن تتزوجني نحو اثنتي عشرة مرة. وكنت أعرف أني وأنا ملحق مسكين في وزارة الخارجية لن أحظى منها بالقبول، ولكن ذلك كان أقوى مني. وكانت ترفض ولكن دائماً بمزيد من اللطف، بحيث أنّ ذلك لم يؤثر على صداقتنا ولا بد أنك تدرك أنها كانت تكنّ لي مودة قوية. وكنت أمثل بالنسبة لها شخصا مختلفاً تماماً عن الآخرين. وكنت أظن على الدوام، أنها تتمسك بي أكثر من تمسكها بأي شخص أخر وأنا كنت أعبدها.

ولكي أقول شيئاً ما، قلت له:

(لا بد أنك لست الوحيد).

- بعكس ذلك كانت الاعترافات بالحب تتوالى عليها. وكان بين الطامحين إلى الزواج بها، حتى بعض الناس المغمورين: مزارعون من أفريقيا، عمال مناجم، رجال شرطة كنديون. وكان بإمكانها أن تتزوج من تريد.

- بل وكان هنالك على ما روي لي، بعض أصحاب السمو الملكي.

- بالضبط، ولكنها كانت تقول إنها لا يمكن أبداً أن تطيق هذا النمط من الحياة. وأخيراً، هاهي تتزوج (جيمي ويلدون بورن)

- وقد فوجئ الناس بهذا الزواج ودهشوا منه، أليس ذلك؟

- وهل تعرفه؟

- كلا، لا أعتقد أني أعرفه، وعلى أية حال، فهو لم يترك لديّ أية ذكرى.

- لكم كان يدهشني الأمر لو كان على عكس ذلك إنه أتفه مخلوق تحمله الأرض. وأبوه، صناعي كبير في منطقة الشمال، جنى كثيراً من الأرباح أثناء الحرب واستطاع بذلك أن يحصل على لقب (بارون) و (جيمي) كان معي في كلية (ايبتون) وقد بَذلتَ جهود كبيرة ليصنعوا منه (جنتلمانا) وفي لندن، بعد الحرب، لا أحد يلتقي إلاّ به. ولم يكن يفكر سوى باللهو والتسلية ولم يكن أحد يعيره اهتمامه، فهو لا يصلح إلاّ لدفع الحساب، ثقيل مزعج، ويمكنك أن تتبين ذلك: إنه يبالغ بالتأنق دائماً، وبمظاهر الأدب والمجاملة. ولشدة خوفه من الزلل والخطأ، يزعجك بمداراته لك. وكان يبدو عليه أنه يرتدي على الدوام ملابس جديدة لأول مرة وأنه متضايق منها.

وذات صباح، عندما فتح (كرّوثير) صحيفة (التايمس) صعق بعد أن ألقى نظرة على زاوية أخبار المجتمع: فقد أعلن خطوبة (اليزابيت) البنت الوحيدة لدُوق (سانت ايرث) و (جيمس) الابن الأكبر للسير (جون ويلدون بورن بارت).

فتلفن لبيتيّ ليسألها إذا كان ذلك صحيحاً.

(بالتأكيد هذا صحيح).

فأصيب بالذهول وتابعت: (إنه يصطحب اليوم أفراد أسرته لتناول طعام الغداء ولكي يقدمهم إلى أبي. ويبدو أن ذلك لن يكون في جو مفرح ومسل جداً. فهل يمكنك أن تقدم لي كأس (كوكتيل) في فندق (كلاريدج) لإعطائي بعض الشجاعة، ما رأيك بذلك؟

- في أية ساعة؟

- في الساعة الواحدة.

- حسن، موافق، سأكون هناك في هذا الموعد.

فوصلت وهي تسير بخطوات مرنة ومطّاطة، كما لو أنّ الرغبة بالرقص هي التي تحرك رجليها الرشيقتين. كانت مبتسمة وأكثر من أي وقت مضى كان يبدو في عينيها الفرح بالعيش في عالم لطيف ورغيد إلى هذا الحدّ. وعرفها الناس وأخذوا يتهامسون، فقد جلبت النور وأريج الزهور إلى تلك الردهة ذات الأبهة الجافة والكئيبة.

ولم يضع (كرّوثير) وقتاً في تحيتها والسلام عليها، بل قال لها مباشرة: (بيتّي) إنك لن تفعلي ذلك، بل إن المسألة غير واردة، على الإطلاق.

- ولماذا؟

- لأنه فظيع.

- ليس هذا رأيي فيه. فأنا أجده مناسباً، ولا بأس به.

واقترب منهما أحد الخدم، وأخذ طلبهما. فرفعت (بيتيّ) نحو (كرّوثير) عينيها الجميلتين حيث يمتزج بالرقة والحنان الكثير من البهجة والحبور.

هذا الحديث النعمة ما بك، ألا ترين ذلك يا (بيتيّ)!

- أوه! بلا قصص وأقاويل، يا همفري إنه كغيره من الناس وأنا

بالحقيقة أجدك شديد الغرور.

- ثم إنه ثقيل، يبعث على الملل.

- كلاّ، كل ما هنالك هو أنه هادئ، وأنا لا أرغب بزوج نابه ومتألّق أكثر مما ينبغي. وربما أصبح زوجاً صالحاً، فهو مهذب وذو سلوك سليم ولائق.

- يا إلهي!

- ولكنك أحمق، يا (همفري).

- إنك لن تقولي لي بأنك مغرمة به؟

- سيكون في هذا بعض المبالغة، فما رأيك؟

- لماذا تتزوجينه إذن؟

فنظرت إليه ببرود:

(جيوبه ملأى بالمال، وعما قريب سأبلغ السادسة والعشرين من عمري).

فبماذا يمكنه الإجابة على هذا. وأوصلها بالسيارة إلى بيت عمتها.

كان حفل الزواج رائعاً، بالجمهور الذي تجمع حول كنيسة القديسة (مرغريت) بمشاركة قصر (ويستمنستر) وهدايا من جميع أفراد الأسرة المالكة. وقاما برحلة شهر العسل على يخت وضعه تحت تصرفهم والد العريس.

وطلب (كرّوثير) نقله إلى مركز في الخارج - فنقل إلى روما - وهنا اكتسب معرفة تامة باللغة الإيطالية - فيما بعد عين مستشاراً في السفارة البريطانية في استكهولم وهنالك كتب قصته الأولى.

فهل خيّب زواج (بيتيّ) أمل الجمهور البريطاني الذي كان يعلّق عليها أكبر الآمال، أم أنّ المرأة المتزوجة لم تعد تتجاوب مع المثل الأعلى الرومانسي لدى الجماهير؟ والأمر مؤكد، هي أنها فقدت حظوتها

وفتنتها. ولم يعد يسمع أحد يتكلم كثيراً عنها. وبعد زواجها ببعض الوقت، سرت شائعة بأنها حامل، وستلد عمّا قريب وبعد ذلك بقليل، قيل أنها قد أجهضت، وهي لم تنسحب من المجتمع، واعتقد أنها ظلت تلتقي بأصدقائها، ولكنّ نشاطاتها وتصرفاتها لم تعد تستأثر باهتمام الجمهور. ولم تعد تظهر إلا نادراً في تلك الاجتماعات والمحافل التي ترتادها النخبة المختارة، حيث يفتخر بها بعض الأعضاء المتحررين من الطبقة الأرستقراطية بصداقاتهم الحميمية مع الفنانين والبوهيميين، وأنهم مثقفون، يشاركونهم في نشاطاتهم. وكان يقال أنه أخذت تهدأ وتلزم المنزل. وكانت ألسنة السوء تروي أنّ التفاهم التام ليس قائماً بينها وبين زوجها. وحسب هذه الروايات، فإن (جيمي) أخذ يكثر من تعاطي الكحول، وبعد سنة أو سنتين أُشيع أنه أصبح آنذاك مصاباً بأعراض التدرن الرئوي وأنه يعالج من هذا المرض الخطير. وأمضى الزوجان شتائين في سويسرة. ثم انفصلا، وذهبت (بيتيّ) فاستقرت في جزيرة (رودس) وكان أصدقاؤها يأسفون لذلك. ويقولون إن الإقامة هناك تبعث على الملل القاتل.

وذهب بعضهم إلى زيارتها، فأغراهم جمال الجزيرة، وسحر الحياة المريحة والهادئة ولكنهم رأوا أنها تشكل مدفناً من الطراز الأول. فكيف استطاعت (بيتيّ) المتألقة أن تصبر على الإقامة هناك. لقد اشترت بيتاً وفيما عدا بعض الموظفين الإيطاليين. فهي لم تكن تعرف أحداً، كما أنه لم يكن هناك بطبيعة الحال، أحد يزورها أو تزوره، ومع ذلك فهي كانت تبدو سعيدة تماماً، وهذا ما أدهش كثيراً الأصدقاء الذين زاروها.

ولكن في زحمة الحياة وضجتها، في لندن تضعف ذاكرة الناس وينسون بعضهم بسرعة وانتهى بهم الأمر أنهم نسوا (بيتيّ). وقبل

التقائي بـ (كرّوثير) في روما ببضعة أسابيع نشرت صحيفة (التايمس) نبأ وفاة السير (جيمس ويلدون بورن) البارون الثاني. دون أن يرزق بطفل من (بيتيّ) فورث أخوه اللقب.

وظلّ (كرّوثير) يراها بعد زواجها، وفي كل مرة يأتي إلى لندن كانا يتناولان طعام الغداء سوية. ولا أحد كان يعرف أكثر منها إحياء الصداقة من جديد بعد فراق طويل، كما لو أنّ الزمن لم يكن موجوداً. وكانت أحياناً تسأله عما إذا كان يفكر بالزواج: (أنت تعلم يا (همفري) أنك لم تعد شاباً، فإذا تأخرت كثيراً بالزواج، فستبدو كهلاً هرماً).

- أنت تنصحينني أن أتزوج، إذن؟

سؤال يبدو وقحاً، لأنه كان، مثله في ذلك مثل جميع الناس، مطّلعاً على فشل زواجها ومشاكله.

ولكن ملاحظتها أثارت استياءه.

- يا إلهي نعم فالزواج الفاشل، برأيي، أفضل من عدم الزواج بالمرة.

- أنت تعلمين جيداً أنّ لا شيء يجعلني أقرر الزواج وتعرفين أيضاً لماذا لا أفعل ذلك.

- أوه يا عزيزي، إنك لن تروي لي بأنك ما زلت مغرماً بي؟

- أنا لم أتغيّر.

- لكم أنت غبي ومغفل.

- كما تشائين.

فابتسمت،كانت عيناها قد احتفظتا بالتعبير الساحر والحنون الذي كان يثير في قلب (كرّوثير) ذلك الألم العذب الذي يبعث فيه السعادة، لدرجة أنه يستطيع الشعور به وتعيين موضعه على وجه التقريب.

- حقاً إنك لطيف يا (همفري) وأنا أتمسك بك كثيراً، وأعترف بذلك، ولكن حتى لو كنت حرة، فإني لن أتزوجك.

وعندما هجرت زوجها واستقرت في (رودس) انقطع (كرّوثير) عن رؤيتها. فهي لم تكن تأتي إلى إنكلترا أبداً، ولكنّ المراسلة ظلت مستمرة بنشاط بينهما.

ورسائلها ؟! يعتقد من يقرؤها أنه يسمعها تتكلم، فإلى هذا الحد كانت تشبهها: ذكية، ساخرة، نزوية، ومع ذلك فهي ليست سطحية!.

واقترح عليها أن يذهب لزيارتها في (رودس) ليمض هناك بضعة أيام. فأقنعته بالعدول عن ذلك. فأدرك السبب: الجميع يعرفون أنه يحبها كثيراً، ومغرم بها، وربما كانوا قد علقوا على ذلك وثرثروا كثيراً، عندما انفصلت عن زوجها. ولا شك أن (بيتيّ) كانت تخشى أن تسبب لها هذه الزيارة الشبهة والاتهام.

(لقد كتبت لي رسالة لطيفة بمناسبة صدور كتابي الأول وربما كنت تعلم أنه أهدي لها. وقد دهشت كثيراً لأني أنتجت عملاً بهذه الجودة. وسرّت كثيراً لأنه استقبل بحظوة وحماسة. أما أنا فقد شعرت بالسعادة لأنني رأيتها مسرورة. وبعد كل شيء، فأنا لست كاتباً محترفاً، ولا أعلق أية أهمية على النجاحات الأدبية. فقلت في سري: (يا له من أحمق وياله من كذاب فهل يتصور بالمصادفة، أني لم ألاحظ كيف كان يختال زهواً وهو يتحدّث عن النجاح الذي حظيت به كتبه؟ فليس من شيء أكثر مشروعية من هذا السرور، ولكن لماذا يهتم إلى هذه الدرجة بإخفاء ذلك والتكتّم عليه؟ أليس بسبب (بيتيّ) وبخاصة من أجلها اهتمامه بالشهرة؟ فهو الآن يستطيع أن يقدم لها، بل أن يضع عند قدميها، بالإضافة إلى حبه، شهرته التي حققها. و(بيتيّ) لم تعد شابة، فقد بلغت الرابعة والثلاثين. ثم أن زواجها، وإقامتها في (رودس) قد غيّر الأمور:

فالمعجبون لم يعودوا يركضون وراءها، وهالتها اعتراها الشحوب.. ومن الآن وصاعداً، لم تعد هنالك أية عقبة لا يمكن تجاوزها، تفصل بينهما. وهو وحده ظل وفياً، مخلصاً عبر السنين. فهل ستستمر، هي، في دفن جمالها، ذكائها، وأناقتها الأرستقراطية، في جزيرة نائية، داخل البحر الأبيض المتوسط. وهو لم يكن يشك بمحبتها. ولن تظلّ قاسية القلب، فاقدة الحسّ حيال هذا التودد والتعلق، والحياة التي كان يمكنه أن يوفرها لها آنذاك يمكن أن تكون هنيئة رغيدة. ومرة أخرى، قرر أن يعرض عليها الزواج. وسيكون حراً في نهاية تموز (يوليو). فكتب لها أنه ينوي قضاء إجازته في الأرخبيل اليوناني، وأنها إذا وافقت، فسوف يتوقف ليوم أو يومين في (ردوس) حيث، وأضاف برقة ومهارة افتتح حديثاً فندق إيطالي فخم. فهو قد تعلم في وزارة الخارجية كيف يتجنب التسرع والتهوّر، وعلى أن يهيئ دائماً منفذاً للخروج والنجاة. فردت عليه (بيتيّ) برقياً. وقد سحرتها فكرة رؤيته في (رودس). وسينزل عندها بالطبع. حيث يحل ضيفاً عليها لمدة لا تقل عن خمسة عشر يوماً: وهي تنتظر البرقية التي تعلن موعد وصوله.

وعند طلوع الفجر، لما دخلت السفينة التي أقلّته، إلى ميناء (رودس) الجميل لم يكن (كرّوثير) يستقر في مكان. فبعد أن قضى الليل ساهراً، نهض باكراً لكي يرى الفجر الرائع وهو يرسم نطاق ومحيط الجزيرة، والشمس وهي تبرز من البحر. وكانت بعض الزوارق تغادر الميناء، عندما ألقت السفينة المرساة، وأنزل البحارة جسر العبور.

واستند إلى الحاجز، وأخذ ينظر إلى الطبيب، وإلى ضباط الميناء وحمّالي الفندق الذين يسرعون لنقل الحقائب. كان هو

الإنكليزي الوحيد على متن تلك السفينة. ومن الممكن معرفته بسهولة. وصعد رجل على سطح السفينة وتقدم منه مباشرة: (السيد كرّوثير)؟

- نعم.

وكاد يبتسم ويمد يده لمصافحته ولكنّ نظرة منه كانت كافية لكي يلاحظ أنّ الرجل الذي خاطبه - وهو أحد مواطنيه الإنكليز، طبعاً - ليس (جنتلمانا). وبالفطرة، أصبحت طريقته في التعامل معه أكثر جدية، وإن كانت قد ظلت تتسم بالمجاملة والمداراة. ولم يذكر لي بالطبع (كرّوثير) شيئاً عن ذلك لكني تصورّت الحادثة تماما ولذلك لم أتردد في وصفها.

(تأمل السيدة البارونة أن تعذرها عن عدم مجيئها، لأنّ السفينة وصلت باكراً جداً، والطريق إلى البيت يستغرق أكثر من ساعة).

- هل السيدة البارونة بخير؟

- نعم إنها بخير، هل أمتعتك جاهزة؟

- نعم.

- أرجو أن تريني إياها، سأدعو أحد هؤلاء الأشخاص لإنزالها إلى الزورق، ولن تتعرض لأية متاعب من قبل رجال الجمارك، فقد قمت بما ينبغي القيام به، وسنستطيع الانطلاق في الحال. هل أفطرت؟

- نعم، شكراً.

كان الرجل وهو يتكلم تبدو عليه صعوبة في نطق بعض مخارج الحروف، فمن هو؟ لقد كان دون أن يخلّ بقواعد الأدب. يعبرّ عن أفكاره بدون تكلّف وبلهجة الألفة. كانت (بيتيّ) تملك ملكية كبيرة: ربما يكون وكيل أعمالها؟ كان يترك انطباعاً بأنه ماهر، يجيد حسن التخلص وحل المشاكل كان يصدر تعليماته للحمالين باللغة اليونانية، وفي الزورق، عندما وجد المجذّفون أن الأجرة التي أعطاها لهم غير كافية، ردّ عليهم بالمداعبة والمزاح، فهزّ هؤلاء أكتافهم دون أن يلحوا

بالطلب وفي مصلحة الجمارك لم تَفتح الحقائب. كان الدليل الذي أتى لمرافقة (كرّوثير) قد شدّ على يدي رجال هذه المصلحة. وخرجا سوية إلى ساحة تغمرها أشعة الشمس، حيث كانت تقف سيارة ضخمة صفراء فسأله (كرّوثير):

هل أنت ستقود السيارة؟

- نعم أنا سائق السيدة البارونة.

- أه حسن جداً، لم أكن أعرف ذلك.

لباس غريب بالنسبة لسائق: رجلان عاريتان في حذاء قماشي، بنطال أبيض، قميص رياضي مفتوح على الصدر، وقبعة من القش.

مطّ (كرّوثير) شفتيه: (بيتيّ) مخطئة بسماحها بهذا التهاون والإهمال. حقاً لا بدّ كان عليه أن ينهض قبل الفجر، وأن يتوقع أن الحرّ يكون شديداً عند العودة. وربما بدا أكثر انضباطاً في الأوقات العادية. وهو أقصر من (كرّوثير) الذي كان طوله بدون حذاء، ستة أقدام وبوصة. ومع ذلك فقد كان حسن القامة، ولكن كتفيه العريضين وبنيته الضخمة تجعله يبدو مربوعاً. وهو بدين الجسم، يبدو أنه ليس عدواً للمآكل الفاخرة. وهذا المظهر الثقيل في سن الثلاثين أو الحادية والثلاثين، يبدو واعدا بالنسبة للمستقبل، أما آنذاك، فلم يكن سوى شاب قوي وصلب، وجهه عريض ملوّح أنفه قصير وضخم، وتعابيره عابسة متجهّمة يعلو شفتيه شارب صغير أشقر. وتولدّ لدى (كرّوثير) انطباع بأنه سبق له أن رآه في مكان ما فسأله:

هل أنت تعمل لدى السيدة البارونة منذ وقت طويل؟

- نعم أستطيع أن أقول هذا.

فازداد (كرّوثير) جفاءً وتحفظاً، لأن لهجة السائق لم تعجبه أبداً. فلماذا لا يتكلم بصيغة الشخص الثالث الغائب. لقد تركته (بيتيّ) يعتاد عادات سيئة. وهذا التهاون واللامبالاة من طبعها هي! ولكن يأله من

خطأ سيحدثها عن ذلك عندما تسنح له الفرصة. والتقت نظراته بنظرات السائق فاعتقد أنه لمح فيها وميضاً وغمزاً ينمّان عن الخبث والسخرية. فما هو الشيء الغريب الذي يمكنه أن يجده لديه؟

وقال ببرود وهو يشير إلى السور المتهدم.

(أعتقد أن هذه هي أثار مدينة (الفرسان) القديمة..

- نعم، والسيدة البارونة ستصطحبك إليها. وفي هذا الفصل يأتينا كثير من السياح.

كان (كرّوثير) يحاول مع ذلك أن يبدو مستحباً ودوداً وراودته فكرة الجلوس بجانب السائق، وهمّ بأن يقترح ذلك، عندما حسمت المسألة: فقد قال السائق للحمالين بأن يضعوا الحقائب في داخل السيارة، وقال وهو يجلس إلى المقود: (حسن إذا أردت أن تصعد، فنحن جاهزون).

فجلس (كرّوثير) بجانبه وانطلقت بهما السيارة على طريق ترابي محاذ للبحر. وخلال بضعة دقائق أصبحا بين الحقول وفي وسط البرّية. وكانت السيارة تسير بهما دون أن يتبادلا الحديث.

وكان (كرّوثير) يشعر أن السائق مستعد لرفع الكلفة ولذلك ظل متحفظاً ومتباعداً. فهو يعتقد بسرور أنه يعرف كيف يرغم من هو أدنى منه مرتبة على أن يلزم حدوده. وقبل أن يمر وقت طويل سيكف هذا الفظ عن مخاطبته بالصيغة المباشرة، قائلاً له: (أنت). ولكن الصبيحة كانت ساحرة، والطريق ينساب بين أدغال من أشجار الزيتون الخضراء، والمزارع بجدرانها البيضاء وأسطحتها المستوية، لها طابع شرقي، ثم هنالك (بيتيّ) التي تنتظره، وكان الحب يدفعه لأن يكون عطوفاً. أريحياً فبعد أن أشعل سيجارة رأى أن الكرم يقضي بأن يقدم إحداها للسائق.ياللشيطان إن (رودس) بعيدة جداً عن إنكلترا ونحن نعيش في عصر ديمقراطي. وأوقف السائق السيارة ليتناول قدّاحة،

وسأله فجأة:

- هل جلبت معك البضاعة؟

- أية بضاعة؟

فتطاولت سحنة السائق، دهشة واستغراباً، وقال (السيدة البارونة أرسلت لك برقية لكي تجلب معك (ليبرتين) كيلو غراما من سجاير (البلايرز نافي كات) وإذا كنت قد تفاهمت مع رجال الجمارك، فإنما فعلت ذلك من أجل هذا، لكي لا يفتحوا حقائبك).

- إني لم أتلق أية برقية.

- سحقاً للآلهة.

- إني لأتساءل ماذا تريد السيدة البارونة أن تصنع بليبرتين من سجائر (البلايرز)؟

كان يتكلم بتعال، فهذه الشتيمة، بل هذا التجديف أغاظه. فبدرت من السائق نظرة جانبية رأى فيها (كرّوثير) شيئاً من الوقاحة، وخاصة عندما قال:

(إننا لا نجد من هذه السجائر هنا!).

وبحركة عصبية قذف بعيداً السيجارة المصرية التي أعطاه إياها (كرّوثير) وانطلق يقود السيارة بسرعة. وهو متجهم الوجه، ولم يعد يتكلم، فشعر (كرّوثير) أنه أخطأ بمسايرة هذا الرجل، وظل يتجاهله طيلة بقية الرحلة. واتخذ موقف البرود واللامبالاة الذي كان يجيده تماماً في السفارة عندما يأتي أحد الرعايا البريطانيين ويطلب منه مساعدة أو حماية وعند قمة إحدى التلال، وصلا إلى قرب جدار طويل ومنخفض، وحاجز مفتوح.

فصاح (كرّوثير): هل وصلنا؟

فقال السائق، وقد كشفت ابتسامته، فجأة عن أسنان جميلة بيضاء:

- خمسة وستون كيلو متراً بسبع وخمسين دقيقة هذا ليس سيئاً

على طريق كهذا. ثم شغل منبه السيارة، بينما كان الانفعال يعصف بقلب (كرّوثير). كان هنالك درب ضيق، تظلله أشجار الزيتون يؤدي إلى بيت أبيض، منخفض ومؤلف من عدة أجنحة.

وكانت (بيتي) واقفة أمام الباب. ففقز من السيارة وقبلها على الخدين. وظل برهة وهولا يستطيع أن يتكلم. ولكنه لا حظ وجود كبير الخدم العجوز، ببزته البيضاء، وخادمين بالملابس التقليدية الوطنية الجميلة. ورغم تسامح بيتي مع السائق كان وضع بيتها يبدو لائقاً ومنسجماً مع طبقتها. وعبر بهو واسع جدرانه بيضاء، حيث لاحظ وجود المفروشات الفخمة، اقتادته إلى الصالون. هناك كانت الجدران بيضاء أيضاً، وتلك الحجارة الكبيرة كانت تعطي انطباعاً بالترف والرفاهية.؟

وقالت له: قبل كل شيء تعال وانظر هذا المنظر الذي لدينا.

قبل كل شيء أريد أن أنظر إليك أنت. كان ذراعاها، وجهها وعنقها، كلها مسمّرة وقد لوّحتها الشمس، وعيناها أشد زرقة من أي وقت مضى وأسنانها براقة متلألئة كانت تنبض بالصحة وتستشقها. مرتدية فستاناً أبيض،شعرها متموج،أظافرها وردية اللون كانت أنيقة جداً، ومعتنية تماماً بنفسها. بينما هو كان يخشى من أن يكون الخمول في هذه الجزيرة الرومانسية قد جعلها تهمل نفسها.

إني لأقسم أنك في الثامنة عشرة من العمر، يابيتي. فماذا فعلت حتى أصبحت هكذا؟

فقالت وهي تبتسم:

- إنها السعادة! فشعر بانقباض طفيف في قلبه. فهو لم يكن يرغب بأن يجدها سعيدة جداً فالسعادة كان يريد أن يحققها لها هو. ولكنها اقتادته: كانت نوافذ الصالون الخمس العالية تطل على شرفة تبدو منها أشجار الزيتون مصطفة نزولا على منحدر سريع، نحو

البحر. وفي أحد الخلجان كان هناك قارب شراعي أبيض يتأرجح على المياه الهادئة التي كانت تعكس صورته. على سفح إحدى التلال كانت تبدو بيوت إحدى القرى اليونانية. بلونها الناصع البياض.

وبعيداً عنها، أثار قلعة إقطاعية قديمة تتربع فوق صخرة ضخمة رمادية اللون.

وقالت:

هذه، كانت إحدى قلاع (الفرسان) الحصينة، سأصطحبك إليها هذا المساء. طبيعة ذات مناظر خيالية، وديعة هادئة وحية في آن معاً، ولكنها تدفع إلى العمل أكثر من أن تحمل على الأحلام.

أمل أن تكون جلبت السجائر.

فانتفض

كلا. أنا أسف، إني لم أتلقّ برقيتك.

- ولكني أبرقت إلى السفارة وإلى فندق (الاكسلسيور).

- كنت في فندق (بلازا).

- يا للمصيبة! سوف يغضب (ألبير)!

- من هو (ألبير)؟

- إنه الرجل الذي اصطحبك، و(البلايرز) هي السجاير الوحيدة التي يحبّها، ولا نجد منها هنا.

- أوه! السائق.

وأشار إلى زورق كان يتلألأ تحت أشعة الشمس: هل هذا هو الزورق الذي سمعت به؟

- نعم.

أنه زورق كبير، اشترته (بيتيّ) مزوّد بمحرك مساعد، ومجهز بشكل مريح. كانت تحب الإبحار والتجول بين جزر الأرخبيل وقد وصلت في جولاتها شمالاً حتى مدينة (بيري) في اليونان وجنوباً إلى

الإسكندرية في مصر.

وقالت: إذا كان لديك ما يكفي من الوقت، فسنصحبك في إحدى الجولات يجب أن ترى جزيرة (كوس) الواقعة في بحر (إيجه).

- ومن الذي يقود زورقك؟

- طبعاً لديّ طاقم من الملاحين. ولكن هناك (ألبير) على الخصوص فهو خبير بالميكانيك، وبكل تلك الأمور.

مرة أخرى، السائق أيضاً! ألا يزيد هذا من حاجتها وتبعيتها له؟

فمن الخطأ أن يترك المجال لأحد الخدم بأن يحصل على هذا القدر من الأهمية.

قولي لي، لدي انطباع أني سبق لي أن رأيت (ألبير)، ولكن أين؟

فابتسمت، وشعّت في عينيها تلك البهجة الخاطفة التي تضفي على وجهها صراحته الساحرة:

كيف، ألا تتذكره؟ خادم عمتي (لويز) الثاني، فلا بدّ أنه فتح لك الباب مئات المرات.

العمة (لويز) هي قريبتها التي كانت تقيم عندها قبل زواجها.

آه! إذن هذا هو! فعلاً، لا بدّ أني رأيته دون أن أعيره انتباهي. وكيف حصل أنه موجود هنا؟

- هو بالأصل من قريتنا. وعندما تزوجت أراد أن يتبعني فاصطحبته معي. وبقي لبعض الوقت يعمل وصيفاً لجيمي. ثم أرسلته ليتعلم الميكانيك في معمل للسيارات. فهو يعشق السيارات. وأخيراً حلّ محلّ سائقي. وأتساءل في الوقت الحاضر: ماذا يحلّ بي بدونه.

- ألا تعتقدين أنه من الخطأ الاعتماد أكثر مما ينبغي على أحد الخدم؟

- لا أدري، فأنا لم يسبق لي أن فكرت في هذا الأمر.

وأرته (بيتي) الغرفة التي خصصت له، وبعد أن بدلّ ملابسه، نزلا إلى الشاطئ الرملي حيث كان بانتظارهما قارب صغير، أوصلهما

إلى الزورق. فاستحمّا في المياه الدافئة، وجففا جسميهما تحت أشعة الشمس. وبدا له أنّ الزورق فخم. وبينما كانت (بيتي) تصفه له وتطلعه على أقسامه، التقيا بألبير الذي كان يتفقد المحركات. كان مرتدياً لباس العمل الذي تغطيه البقع، وكانت يداه سوداوين ووجهه يلمع من الشحم.

فسألته (بيتي):

ماذا هنالك، يا ألبير.

فاعتدل في وقفته ونظر إليها باحترام:

لا شيء يا سيدتي البارونة، كل ما هنالك أني كنت أقوم بجولة لأتفقّد كل شيء.

- ألبير لا يحب سوى شيئين في العالم: السيارة والزورق. أليس هذا صحيحاً يا ألبير؟

ووجهت لألبير ابتسامة. أشرق لها وجهه المتجهّم، وظهرت أسنانه المتلألئة.

هذا صحيح يا سيدتي البارونة.

- تصوّر أنه ينام على ظهر الزورق. وقد أقمنا له في مؤخرته مقصورة جميلة.

واعتاد (كرّوثير) بسرعة كبيرة على هذا النمط من الحياة. و(بيتي) كانت قد اشترت تلك الملكية من (باشا) تركي، نفاه إلى (رودس) السلطان عبد الحميد. وأضافت بعد ذلك جناحاً لذلك المنزل الرائع. ومن أجمة الزيتون التي تحيط به، أحدثت حديقة جميلة، نمت فيها جميع أنواع نباتات الزينة، البرّية والوزّال الإنكليزي وورود الجزيرة، ذات الشهرة العالمية. وقالت له إنّ الأرض تغطيها في الربيع شقائق النعمان الحمراء.

ولكن عندما أرته الملكية وعددّت له التحسينات والتغييرات التي

تنوي إدخالها عليها، شعر (كرّوثير) ببعض الانزعاج:

إنك تتحدثين كما لو أنك تنوين إنهاء حياتك هنا.

فقالت وهي تبتسم:

- ربما.

- يالها من أكذوبة مضحكة، وأنت في مثل هذه السن.

- أكاد أبلغ الأربعين، يا عزيزي!

هكذا أجابته بظرف وابتهاج.

واكتشف بسرور أنّ لدى (بيتي) طباخاً ماهراً، وكان راضياً عن الجو الرسمي والاحتفالي عندما تناول طعام العشاء وهو يجلس قبالتها في قاعة الطعام الفخمة المفروشة بالأثاث الإيطالي، يقدم له أطباق الطعام رئيس الخدم اليوناني المهيب، وخادمان آخران بملابسهما التقليدية الزاهية. والغرف لم تكن تحتوي إلاّ ما هو ضروري تماماً، ولكن كل شيء كان من النوع الممتاز، والبيت مرتب بطريقة عظيمة. وفي اليوم التالي لوصول (كرّوثير) أتى الحاكم وعدة ضباط من أعوانه لتناول طعام العشاء. فقدّم لهم طعام وافر أثار إعجابهم. ووجد الحاكم عند دخوله صفاً مزدوجاً من الخدم الأنيقين يتنانيرهم القصيرة الكثيرة الطيّات، وستراتهم المطرزة وقبعاتهم المخملية، مشكلين هكذا ما يشبه حرس الشرف.

ومن جهته، (كرّوثير) كان يحب مظاهر الأبهة هذه، فقد كان حفل العشاء رائعاً. وبيتي كانت تتكلم الإيطالية بطلاقة و (كرّوثير) يجيدها تماماً. وكان الضباط الشباب. يرتدون ملابسهم الرسمية بأناقة لا مثيل لها. وأخذوا يتزاحمون حول (بيتي) التي كانت تعاملهم كرفاق. وفي السهرة، أدير الحاكي (الجرامافون) ورقص معها كلا منهم بدوره.

وبعد انصرافهم، سألها (كرّوثير):

أليسوا جميعاً متيّمين، ومتولّهين حبّاً بك؟

- لا أدري. ولكن فكرة الارتباط، النهائي أم لا، تخطر على بالهم أحياناً. ولكنهم لا ينقمون عليّ أبداً عندما أرفض عرضهم. بعد أن أشكرهم.

ليس هنالك إذن منافسون جديّون، فالشباب أغرار ولن يحصلوا على نتيجة والرجال الأكبر سناً كروشهم كبيرة ومصابون بالصلع، وليس لمشاعرهم ولعواطفهم أية أهمية: وبيتي لن ترتكب حماقة مع أحد إيطاليّي هذا الوسط.

ولكنه بعد يوم أو يومين، بينما كان يرتدي ملابسه استعداداً لتناول طعام العشاء، سمع صوت رجل في الرواق، دون أن يستطيع تبيّن الكلمات، ولا حتى اللغة التي كان يتكلم بها، وفجأة تعالت ضحكة (بيتي)، ضحكة ساحرة وسارية، يمكن أن تنتقل للآخرين، منسابة كشلاّل من اللآلىء، وشبيهة بضحكات الفتاة الشابّة. فمن يمكن أن يكون معها؟ لا يمكن أن تضحك هكذا مع أحد الخدم. فهذا الضحك ينمّ عن حميمية شديدة وفريدة. ويمكن أن يدهش أحدنا ويستغرب كيف أن (كرّوثير) شعر بكل هذا بسبب انفجار ضحكة، ولكن علينا ألاّ ننسى أنه من ذوي البصيرة النافذة والفكر الثاقب. وقصصه ملأى بإيحاءات واستنتاجات من هذا النوع.

والتقيا على الشرفة، وبينما كان يرتشف كأساً من الكوكتيل، حاول إشباع فضوله:

مع من كنت تضحكين بتلك القوة، قبل قليل؟ هل زارك أحد؟

- كلا.

ونظرت إليه بدهشة صادقة.

لقد ظننت أن أحد أصدقائك من الضباط الشباب، أتى ليبادلك تحية المساء، بينما كان ماراً من هنا.

- أبداً.

والسنين، رغم كل شيء، كانت قد عملت عملها (بيتي) لا تزال جميلة، ولكن جمالها أصبح أكثر بلوغاً ونضجاً. وثقتها الشديدة السابقة بنفسها، خفّت وأصبحت هادئة. وراحة بالها، مثلها في ذلك مثل عينيها الزرقاوين، وجبينها الناصع الجميل، تشكل جزءاً من مفاتنها المغرية. فهي تبدو في وئام وتفاهم مع العالم بكامله. والجلوس بقربها يريح الجليس مثلما يريحه الاستلقاء على العشب الأخضر والنظر إلى البحر بألوانه الدافئة المتلألئة، عبر أشجار الزيتون وإن كانت لا تزال كعادتها مرحة ومرهفة، فإن الجانب الجديّ في طبعها، الذي كان (كرّوثير) هو الوحيد الذي يعرفه في الماضي، أصبح آنذاك بادياً لكل ذي عينين، ولم يعد أحد يستطيع أن يتهمها بأنها عابثة وسطحية، وكان من المستحيل عدم ملاحظة ارتفاع مستوى أخلاقها، التي بلغت بها درجة النبل والشرف. وهذه الصفة تكاد تكون نادرة لدى المرأة العصرية، وكان (كرّوثير) يقول في سرّه إنها ليست بنت عصرها، فهي تذكره بسيدات القرن الثامن عشر، العظيمات. فهي منذ بداية شبابها لديها نقطة ضعف حيال الأدب والأعمال الأدبية. والأشعار التي نظمتها في شبابها كانت جيدة وظريفة. وقد دهش وبدا عليه الاهتمام، عندما علم أنها تفكر بتأليف كتاب تاريخي هام. وأنها تجمع الموادّ والمعلومات عن تاريخ (فرسان سان جان) الذين أقاموا في (رودس) هذا التاريخ الذي يذخر بالتقلّبات وبالأحداث المفاجئة. واصطحبت (كرّوثير) إلى الآثار العظيمة وتجولا في المباني ذات الهندسة المعمارية القوية والفخمة. وسارا صعوداً في شارع (الفرسان) الذي يخيم عليه السكون، حيث شاهد الواجهات الرائعة المزدانة بالنقوش المنحوتة في أعلاها، كذكرى لفروسية انقرضت، وكان هنالك مفاجأة تنتظر (كرّوثير)، فقد اشترت (بيتي) أحد البيوت القديمة ورممته بعناية

شديدة وعند الدخول إلى الباحة الصغيرة، ذات الدرج الحجري، تعود الذكرى بمن يدخل إليها إلى القرون الوسطى. وفي الحديقة المحاطة بالجدران، تنبت الورود وأشجار التين. كل ذلك كان صغيراً، خفيّاً، يخيم عليه الصمت والهدوء. إذ إن الفرسان عاشوا زمناً طويلاً في الشرق فتأثروا بطباع وعادات الشرقيين.

وعندما أملّ من الإقامة في (الفيلا!) ألجأ إلى هنا وأبقى يومين أو ثلاثة أيام. فأشعر أحياناً بالراحة والانفراج، لعدم وجودي بين الآخرين.

- ولكن ألست وحدك، وعلى انفراد هنا؟

- عملياً، بلى، إني كذلك.

ودخلا إلى صالون صغير مفروش بعناية كبيرة.

فقال (كرّوثير) وهو يشير مبتسماً إلى الملحق الرياضي لجريدة (التيمس) الملقى على المنضدة:

ما هذا؟

- أوه! إنه لألبير، لا بدّ أنه تركه هنا عندما ذهب ليصطحبك إلى هنا، فهو يتلقى (التيمس الرياضي) و(صحيفة أخبار العالم) كل أسبوع، وتلك هي طريقته للاحتفاظ بالاتصال مع العالم.

وابتسمت بتسامح وبجانب الصالون كان هنالك غرفة، يلفت النظر، على الخصوص، تخت كبير موجود فيها.

كانت ملكية البيت تعود لأحد الإنكليز، وهذا هو أحد الأسباب الذي حملني على شرائه، كان هذا الإنكليزي يدعى سير(جيل كيرن) وقديماً تزوج أحد أجدادي ابنة عمه (ماري كيرن).

كانت (بيتي) قد بدأت تدرس اللغة اللاتينية بهمة ونشاط، لكي تستطيع فك رموز خرائط القرون الوسطى وقراءتها، لأنها ضرورية لعملها التاريخي. ودرست في البداية عناصر القواعد، ثم انصرفت بعد

ذلك إلى قراءة النصوص الكلاسيكية، محتفظة بترجمتها في متناول يدها. وهذه طريقة جيدة جداً، ليدبّر المرء أمره، ويتعلم اللغة الأجنبية بسرعة، وكثيراً ما تساءلت لماذا لا تطبّق هذه الطريقة في المدارس، فهي تجعلنا نتجنّب تقليب صفحات المعاجم وإعادة تقليبها، وتوفّر علينا الكثير من التلمّس والبحث المتردّد. وخلال تسعة أشهر، أصبحت (بيتي) تقرأ اللاتينية. بالسهولة نفسها التي يقرأ فيها أكثرنا لغته الأم.

وكان (كرّوثير) يعتبر الجديّة التي تبديها هذه المخلوقة الفاتنة في عملها، مضحكة بعض الشيء، ولكنه، في الوقت نفسه، يشعر بالتأثر لذلك وبالتعاطف معها. ولكن كان يودّ أن يضمها بين ذراعيه ويقبلها، كما نقبّل طفلاً وعى قبل الأوان وبهرنا بذكائه.

وفي أعقاب ذلك، أخذ يفكّر.

والحقيقة هي أنه لم يكن غبياً جداً. وهو الذي استطاع أن يحتل مركزاً مرموقاً في وزارة الخارجية. ولو لم يكن لعمليه الأدبيين بعض القيمة والأهمية، فهل من الممكن أن يحظيا بذلك النجاح الكبير؟

وإذا كنت قدمته للقارئ كغبي أبله، فذلك بسبب عدم تعاطفي معه، وإذا كنت قد سخرت من قصصه، فربما لأنها بدت لي عديمة القيمة. وكانت فطنته وتجربته تقولان له بأنه لم يكن هنالك سوى وسيلة واحدة لاستمالة (بيتي) واكتسابها. فهي راضية ومسرورة في الوضع الذي اختارت هي بنفسها الوقوع فيه. ومشاريعها المستقبلية تستبعد كل شيء جديد وغير متوقع. ولكنه كان يرى في التنسيق الدقيق، والمنظّم أكثر مما ينبغي لتلك الحياة التي تعيشها، الوسيلة نفسها لجعلها تقرف منها: كان ينبغي أن يثير فيها الرعب من الخمود الذي يرقد في قلب إنكليزي. ولذلك فقد أخذ يحدثها عن إنكلترا ولندن، وعن أصدقائها المشتركين، عن الرسامين، الكتّاب، الموسيقيين، الذين وثقّت علاقاته بهم نجاحاته الأدبية. وعن الاجتماعات البوهيمية

في حي (شيلسي)، والأوبرا، والمغامرات، والرحلات الجماعية إلى باريس لحضور حفلات الرقص التذكرية، وإلى برلين لحضور الحفلة الافتتاحية لإحدى المسرحيات كان يعيد إلى مخيلتها مظاهر وذكريات حياة بكاملها رحبة، سهلة، غنية بتنوعها وبما فيها من أعمال ثقافية وفكرية، وشديدة الشفافية. والحقيقة أنها تذوي وتأسن في مكانها. وبينما يندفع العالم في إعصار يجعله يتجدد دون توقف، تظل هي وحدها ساكنة لا تتحرك. وهي تعيش في عصر، أخّاذ ومثير للعواطف، دون أن تنعم به أو تتمتع بشيء من مباهجه. وهو بالطبع،لم يقل لها هذا الكلام، ولكنه كان يترك لها أن تستخلص هذه النتائج، فهو نبيه يجيد التحدث، ويتمتع بالبهجة وبالخيال الواسع. وأعرف أني لم أجعل منه شخصية محببّة، كما أني لم أقدم (ليدي بيتي) باهرة. مع أنهما كانا كذلك، وأرجو أن تصدّقوني. وكان (كرّوثير) يعتبر محدثاً بارعاً. وبهذه الشهرة، يمكنه أن يربح الجولة إلى النصف مسبقاً. كان الناس ينحازون لجانبه ويسرّون من أبسط أحاديثه. وكانت دعابته، بالطبع، دعابة صالونات، يستطيع تذّوق طعمها مستمعون من مستوى معيّن، يتمتعون بالعقلية نفسها التي يتمتع هو بها. ويوجد في شارع (فليت) نحو عشرين صحفياً يمكن ألا يتركوا لرجال المجتمع الأكثر دعابة أن يلقوا كلمة أو يتدخلوا في مناقشة، لأنهم يعتبرون أنّ هذه هي مهنتهم.

أما كبار السيدات اللواتي تنشر المجلات المصورة صورهّن، فالقليلات منهن يستطعن الدخول براتب قدره ثلاثة جنيهات بالأسبوع كممثلات صامتات في مسرح للمنّوعات. والهواة بحاجة للتسامح.

و (كرّوثير) كان يعرف أن (بيتي) ترتاح له، وتسر بمجالسته ومرافقته: كانا يضحكان معاً كثيراً. وكانت الأيام تمر مرور السّحاب.

وقالت له بصراحتها الحلوة: سأشتاق إليك كثيراً. يا لها من فرحة وأنا أراك هنا أنت محبوب ظريف يا (همفري).

- الآن فقط تبين لك هذا؟

وابتهج، وهنأ نفسه: فقد حققت خطته نجاحاً باهراً. كان من الغرابة بمكان أن يتبين إلى أي درجة نجحت طريقته البسيطة جداً. ويمكن أن يسخر الناس من العمل الدبلوماسي، ومع ذلك فإن المرء يتعلم فيه حسن التخلص وحل المشاكل الدقيقة والحساسة. وما عليه الآن إلاّ أن يختار الوقت المناسب.

إذ إنّ (بيتي) لم تكن في يوم من الأيام أكثر محبة له وتعلقاً به منها اليوم. وكان ينتظر نهاية إقامته عندها ليستغل فرصته والمزايا التي حصل عليها، فهي ستحزن عندما تراه يرحل، وبدونه يمكن أن تبدو (رودس) مملّة. فمن سيرافقها؟

كانا يجلسان على الشرفة، بعد أن يتناولا طعام العشاء، وأمامهما البحر الذي تتلألأ فيه النجوم، والهواء الدافئ يبدو معطراً. إذن في لحظة كهذه، عشية رحيله سيطلب منها أن تتزوّجه. وكان يشعر في قرارة نفسه، وحتى في أدقّ أعصابه، أنها ستقبل هذه المرّة.

وبعد وصوله إلى (رودس) بأكثر من أسبوع بقليل، التقى بـ (بيتي) صباح أحد الأيام، في الرواق، فقال لها:

إنك لم تريني غرفتك أبداً يا (بيتي).؟

- حقاً؟ تعال لتراها، في الحال، فهي جميلة لا بأس بها.

فاستدارت وتبعها. كانت الغرفة الكائنة فوق الصالون وبنفس اتساعه تقريباً، مفروشة بأثاث من الطراز الإيطالي. وهي أشبه بالصالون منها بغرفة للنوم. كان هنالك مكتب جميل وعلى الجدران لوحات تعود للقرن الثامن عشر، من عمل الرسام الإيطالي الشهير (بانّيني)، وفي وسطها سرير من صنع (فينيسيا) مزيّن بروعة وأناقة.

فقال يداعبها مازحاً:

ياله من سرير ضخم بالنسبة لأرملة.

- إنه ضخم وعظيم، أليس كذلك؟ ولكنه جميل جداً وكان لا بدّ من شرائه، وقد كلفني مبلغاً ضخماً.

ووقع نظر (كرّوثير) على المنضدة الكائنة بقرب السرير فرأى عليها عدة كتب، علبة سجائر، وعلى منفضة السجائر غليون مصنوع من الخشب، فلماذا كان لدى (بيتي) غليون. قرب سريرها؟

يا للعجب إنه لأمر غريب!

تأمل هذه اللوحة، أليست رائعة، عندما وقعت عيني عليها كدت أجهش بالبكاء.

- هي أيضاً، لابدّ أنها كلفتك غالياً.

وعندما همّا بالخروج، ألقى (كرّوثير) نظرة على منضدة السرير: كان الغليون قد اختفى.

أغليون في غرفة نوم (بيتي)؟ بالتأكيد ليست هي التي تدخن به، وإلا لما كانت تفعل ذلك بالسرّ، ولا كانت أخفته آنذاك. ولكن من السهل تفسير الأمر بكثير من الطرق.

ربما كان هدية تريد أن تخص بها أحد الإيطاليين، أو حتى (ألبير) حقاً، هل الغليون جديد أم مستعمل؟ ربما كان نموذجاً لإرسال غلايين أخرى مماثلة له. وبعد برهة من الحيرة اللاهية، نسي الموضوع ولم يعد يفكر فيه. في ذلك اليوم كانا يريدان القيام بنزهة وجولة كبيرة، وكانت (بيتي) هي التي ستقود السيارة، وقد قررّا استغلال اليومين الأخيرين للذهاب في رحلة بحرية إلى القرب من جزيرتي (باثموس) و(كوس) وكان (ألبير) منهمكاً بتفقد محركات الزورق.

وقد أمضيا يوماً رائعاً. فقد زارا أثار إحدى القلاع، وتسلقا جبلاً ينبت فيه النرجس وكثير من الزهور البرية الجميلة. وعادا وهما متعبان جداً. وافترقا بعد مغادرتهما مائدة العشاء. وصعد (كرّوثير) إلى غرفته لينام. وقلب صفحات أحد الكتب، ثم أطفأ المصباح. ولكنه

لم يستطع النوم، كانت الحرارة تزعجه وهو مستلق يتقلّب تحت الناموسية التي تغطي سريره، فخطرت له فكرة النزول إلى البلاج الصغير الكائن عند أسفل الرابية، لكي يستحم وكان على مسيرة ثلاث دقائق عن البيت، فانتعل حذاءً قماشياً خفيفاً وتناول منشفة. ومن خلال أشجار الزيتون كان يرى البحر يتلألأ تحت نور البدر. ولكنّ آخرين غيره كانت قد راودتهم فكرة استغلال تلك الليلة الرائعة. لأنه عندما اقترب من البلاج، تناهت إلى مسامعه بعض الأصوات، وبينها شتيمة لم يستطع تبينها: لا شك أنهم بعض خدم (بيتي) هم الذين يستحمون، كانت أشجار الزيتون تغطي المنحدر، وتصل تقريباً إلى جانب الماء، فوقف ساكناً متردداً، ومختبئا في ظل أوراق الأشجار، وفجأة سمع صوتاً جعله ينتفض:

أين منشفتي؟

باللغة الإنكليزية.. وخرجت من الماء امرأة وظلت واقفة على الرمل، برهة قصيرة. وفي تلك اللحظة برز رجل من الظل. وليس على جسمه سوى منشفة صغيرة حول خصره. والمرأة كانت (بيتي) وهي عارية تماماً. وألقى الرجل على جسمها برنساً وأخذ يفركه بقوة. كانت تستند عليه لكي تنتعل فردتي (صندلها) الواحدة بعد الأخرى. كان يسندها ممسكاً بكتفيها؟ وهذا الرجل كان (ألبير).

فاستدار (كرّوثير) وصعد الرابية وهو يركض، كان يتعثر، ومرة كاد يسقط. وأخذ يلهث كالحيوان الجريح. وعندما وصل إلى غرفته، ألقى بنفسه على السرير وهو يضم قبضتيه، وقد تحوّل الزفير الذي يمزّق صدره إلى نحيب وبكاء، وعصفت به أزمة عصبية أنهكته. لقد أصبح كل شيء واضحاً، يوضحه بشكل فظيع ذلك الضوء الداكن الذي يغمر في ليلة عاصفة. موقعاً مدمراً فالطريقة التي كان ينشّفها بها الرجل، وموقفه منها وهي تستند عليه، لم يكونا ينمان عن الحب بقدر

ما ينمان عن ألفة حميمية طويلة الأمد، والغليون الذي كان على المنضدة الكائنة قرب السرير، أنه يعبر بشكل شائن عن أسلوب التعامل الذي لا يقيم وزناً لأي اعتبار، والذي لا يَتبع عادة سوى في الحياة الزوجية. إنه الغليون الذي يدخن فيه في السرير وهو يقلب صفحات جريدته قبل أن ينام: (التايمس الرياضية)! ومن أجل هذا كان يَستخدم البيت الصغير الكائن في شارع (الفرسان) أي لا يوائهما. من وقت لأخر، لمدة يومين أو ثلاثة أيام. وكان بينهما كل الألفة التي تتمتع بها أية أسرة قديمة. وأخذ (همفري) يتساءل عن مدى الزمن الذي استمرت فيه هذه العلاقة الفظيعة، وفجأة أدرك كل شيء: منذ سنوات عديدة: عشر اثنتي عشرة خمس عشرة..لقد بدأت منذ وصول الخادم الشاب إلى لندن وكان آنذاك فتى يافعاً، وبطبيعة الحال، فإنه لم يقم بأية مبادرات. وخلال تلك السنوات التي كان يحبها فيها جميع الناس حباً يقرب من العبادة، وحيث كانت معبودة الجمهور الإنكليزي وبإمكانها أن تتزوج من تشاء، كانت تعيش مع خادم عمتها الثاني. واصطحبته معها عندما تزوجت. وذلك الزواج السخيف والمضحك؟! والطفل الذي ولد قبل الأوان؟! وإذا كانت تزوجت (جيمّي ويلّدون بورن) فذلك لأنها كانت تنتظر مولوداً من (ألبير). أوه يا للعار! يا للعار! وعندما أصيب (جيمي) بالمرض. أعطته (ألبير) ليخدمه كوصيف. فماذا رأى (جيمي) بالضبط؟ وبماذا فوجئ وماذا تبين له؟ لقد أدمن على تعاطي الكحول حتى أصيب بالتدرن الرئوي. بل ربما أخذ يشرب لكي يطرد الشكوك المشينة التي لم يكن يستطيع تحمّلها؟ وما هجرت (جيمي) وأتت فاستقرت في (رودس) إلا لكي تعيش مع (ألبير).

(ألبير) المكسّرة أظافر يديه بسبب عمله كميكانيكي، ذو الوجه الأحمر كوجه الجزّار، والقوة الوحشية: (ألبير) الذي لم يعد شاباً فتياً، بل أخذ يتضخم ويترهل. هذا الفظ الغليظ، الذي لا ينطق إلا بالكلام

البذيء والمبتذل. (ألبير) (ألبير)،كيف يمكنها؟..

نهض (كرّوثير) وشرب كأساً من الماء. ثم ألقى بنفسه على إحدى الأرائك! كان لا يطيق السرير. وأخذ يدخن السيجارة تلو السيجارة. وفي الصباح بدا منهكاً محطماً، فهو لم تغمض له عين. وأتوه بطعام الإفطار. فاحتسى القهوة ولكنه لم يستطع أن يأكل شيئاً. وبعد قليل قَرع بابه بمرح:

أتأتي لتستحم يا (همفري)؟

وعندما سمع هذا الصوت الفرح، شعر بموجة من الدم تصعد إلى صدغيه، ولكنه استطاع أن يتمالك نفسه، وفتح الباب.

كلا، ليس اليوم، أشعر أني لست على ما يرام.

فأخذت تتأمله:

أوه! يا عزيزي. ما هذه السحنة؟! ماذا حدث لك؟

- لا أدري، ربما كانت ضربة شمس.

كان صوته غير مميّز، خالياً من أية نبرة، وعيناه حزينتين فأخذت تتفحصه عن قرب. وهي صامتة لبعض الوقت. واعتقد أن وجهها اعتراه الشحوب (أنه يعرف) أخيراً. بدت على شفتي (بيتي) ابتسامة مشوبة بشيء من السخَرية: كان الوضع يبدو لها مضحكاً:

عزيزي المسكين، اخلد إلى الراحة، سأرسل لك بعض أقراص (الأسبرين) وأمل أن تكون قد تحسنّت في موعد تناول طعام الغداء.

فاستلقى في غرفته المظلمة. ولكم كان يريد إعطاء أي شيء لكي يرحل على الفور، دون أن يعود، ولكنه لم يكن له حيلة في ذلك: إذ إن السفينة التي ستعيده إلى (برنديزي) لن ترسو في (رودس) قبل نهاية الأسبوع. وفي اليوم التالي، كان من المقرر أن يسافرا لزيارة بعض الجزر، وهنالك في الزورق لا يمكنه أن يتجنب اللقاء بها. سيكونان سوية طيلة النهار. فيا له من عذاب! لقد انتابه شعور شديد بالعار،

وبالخجل مما يجري ولكنها هي، لم تكن مرتبكة أبداً. وفي الوقت الذي أدركت في أنه لم يعد يجهل شيئاً. أخذت تبتسم وماذا لو أنها تهم بأن تروي له كل الحكاية؟! كلا، هذا زيادة عن الحد، بل إنها الطامّة الكبرى. فهي بعد كل شيء، لا يمكنها أن تكون متأكدة من أنه يعرف فعلاً كل شيء. ولا شيء سوى بعض الشكوك التي تساورها. وإذا لم يتظاهر بشيء، وإذا أبدى أثناء تناول طعام الغداء وخلال الأيام الأخيرة، بشاشته المعتادة، فسيجعلها تعتقد أنها مخطئة في ظنونها. وتكفيه تماماً معرفة ما كان يعرفه، فهو يريد أن يتحاشى المذلة الشديدة التي تنجم عن سماعه (بيتي) وهي تبوح بالسرّ المشين، بملء شفتيها. ولكن عند تناول طعام الغداء، كان أول كلام قالته:

يا له من حظ سيئ! يقول (ألبير) أنّ عطلاً قد طرأ على المحرك، وأننا لن نستطيع القيام برحلتنا البحرية. وفي هذا الفصل لا أستطيع الاعتماد على الشراع، لأننا يمكن أن نتعرّض للبقاء متوقفين في عرض البحر طيلة أسبوع بكامله.

كانت تتكلم باستخفاف، وردّ عليها باللهجة نفسها.

أوه! ليس هذا من الحظ بشيء، ولكن على أية حال، فالأمر سيّان بالنسبة لي. فالمكان هنا رائع، لدرجة أني بالحقيقة،لم يكن لدي رغبة شديدة بمغادرته.

وقال لها إن الأسبرين قد أفاده وأراحه وأنه يشعر بتحسن كبير. وبالنسبة لرئيس الخدم اليوناني والخادمين الآخرين. كان هو و (بيتي) يبدوان عاديين، كما كانا في السابق. وفي ذلك المساء، أتى القنصل البريطاني لتناول طعام العشاء، وفي اليوم التالي أتى الضباط الإيطاليون. وكان (كرّوثير) يعدّ الأيام، بل ويعدّ الساعات. أوه! متى ستحين اللحظة التي سيبتعد فيها وهو على متن السفينة عن هذه القذارة الفظيعة ويطرد هذا الوسواس الذي سيطر على شعوره لكنّ

(بيتي) كانت تبدو هادئة جداً، لدرجة أنه أخذ يتساءل أحياناً فيما إذا هي أصبحت تعرف حقاً أنه قد اكتشف سرّها. وهل قالت الحقيقة، عندما تحدثت عن عطب أصاب المحرك الزورق، أم أنّ ذلك لم يكن سوى ذريعة؟ وهل كانت مجرد مصادفة هذه الزيارات المتتالية التي لا تنقطع والتي تمنعهما من البقاء على انفراد؟ وعندما يراها بهذا الهدوء. ومطمئنة تماماً، وبالطبع سعيدة أيضاً، لم يكن يستطيع تصديق الحقيقة البشعة. ومع ذلك، فقد رأى بعينيه الاثنتين، الدليل الحسّي والأكيد على تلك الحقيقة. وماذا عن المستقبل؟ ماذا يخبئ لهذه التعيسة؟ فعاجلاً أم أجلاً سوف تَكتشف الحقيقة: و(بيتي) بعد أن تتقدم بالسن تلقى على هامش المجتمع، وتجد نفسها مرتبطة بوغد أصغر منها بخمس سنوات. وفي يوم من الأيام، سيتّخذ له خليلة، ربما إحدى الوصيفات اللواتي يعملن في المنزل، لأنه يمكن أن يجد نفسه مرتاحاً وسعيداً معها أكثر مما كان عليه مع السيدة الكبيرة. وحينئذ؟ أية مذلاّت ستتحمل؟ وأية إهانات ستتلقى؟ إذ إنه يمكن أن يصبح شريراً قاسياً، وربما يعمد إلى ضربها. آه يا (بيتي) يا (بيتي).

كان (كرّوثير) يلوي يديه. وفجأة خطرت له فكرة واستخف به فرح مشوب بالألم، ولكنه طرد تلك الفكرة. فعادت ولازمته دون أن تتركه يرتاح لحظة: يجب إنقاذ (بيتي) لقد أحبها كثيراً ولزمن طويل جداً، فهل يرضى الآن عن سقوطها، ويتقبل ذلك، بخضوع واستسلام؟ وشعر برغبة قوية بالتضحية تنتابه بإلحاح: فرغم كل شيء، رغم موت حبه لها، ورغم شعوره تقريباً، بالتقزّز الجسدي منها، فهو سيتزوجها، وأخذ يضحك بمرارة. فأية حياة يهيّئ لنفسه؟ تعساً لهذه الحياة فقد أخذ يشعر بنشوة وهياج عجيبين. ومع ذلك لم يكن يعتبر نفسه بطلاً. كان بدلاً عن ذلك قد سيطر عليه الاحترام حيال التصعيد السامي الذي يمكن أن تبلغه النفس الإنسانية عندما توقظها وتلهبها نفحة إلهية.

كانت السفينة التي ستقلّه، تقلع يوم السبت، فقال لبيتي، مساء الخميس، بعد أن ذهب المدعوون، أمل أن نكون غداً، لوحدنا، وعلى انفراد.

- إني اعترف لك بأني دعوت بعض المصريين الذين يقضون فصل الصيف هنا. إنها إحدى أخوات الخديوي السابق. وهي امرأة ذكية جداً، ستعجبك، وأنا متأكدة من ذلك.

- أوه أمسيتي الأخيرة ألا نستطيع أن نمضيها لوحدنا؟

فنظرت إليه، والبهجة تشع في عينيها.

وظل (كرّوثير) جاداً، وقوراً.

إذا أردت هذا فإني أستطيع أن أعتذر منهم.

- نعم، افعلي ذلك.

كان عليه أن يسافر في الصباح الباكر، وكانت حقائبه جاهزة. واقترحت عليه (بيتي) عدم ارتداء ملابسه الرسمية، ولكنه رفض وللمرة الأخيرة، جلس أحدهما مقابل الأخر ليتناولا طعام العشاء. وقاعة الطعام بأضوائها الخافتة، كان جوها لطيفاً احتفالياً، يغمرها ليل الصيف عبر النوافذ الكبيرة المفتوحة فيضفي عليها روعة واضحة. وهي تبدو كقاعة طعام خاصة في أحد الأديرة، حيث يقيم في عزلة، أحد أصحاب السمو الملكي، ليقضي بقية حياته في التقوى والعبادة، دون تقشّف متشدد وزائد عن الحدّ.

واحتسيا القهوة على الشرفة. و (كرّوثير) الذي كان في حالة عصبية واضحة احتسى كأسين من الخمر، الواحد تلو الأخر. ثم بدأ حديثه، قائلاً:

عزيزتي (بيتي) لدي شيء أريد أن أقوله لك.

- حقاً؟ لو كنت مكانك لما قلته.

كانت تتكلم بعذوبة وأخذت تراقبه بانتباه شديد، وهي هادئة

تماماً، يشع من عينيها الزرقاوين طيف ابتسامة غامضة.

- يجب أن أفعل ذلك.

فهزت كتفيها. كان صوت (كرّوثير) يرتعش قليلاً وفد استاء من ذلك.

تعلمين أني أحببتك بجنون طيلة سنوات عديدة. ولا أدري كم مرة طلبت منك أن تتزوجيني. ولكن مع مرور السنين الأمور تتغير وكذلك الناس، أليس هذا صحيحاً؟ ولم نعد كلانا، لا أنا، ولا أنت، شباباً كما في الماضي، فهل تريدين أن تتزوجيني، في الوقت الحاضر، يا (بيتيّ)؟

فوجّهت له تلك الابتسامة التي كانت على الدوام أحد أهم عوامل فتنتها وإغرائها: فهي عذبة صريحة، وبريئة، أيضاً بشكل عجيب.

إني أحبك كثيراً يا (همفري) وإنه لطف زائد منك أن تطلب يدي مرة أخر، ولا أستطيع أن أعبرّ لك عن مدى تأثري، ولكنك تعلم أني امرأة أتمسك بعاداتي، وقد اعتدت أن أقول لك كلا، وأشعر أني عاجزة عن التغيير.

- ولماذا لا؟

كان في لهجته نبرة عدوانية، تكاد تتّسم بالتهديد، فألقت عليه (بيتي) نظرة سريعة، وشحب وجهها، غضباً، ولكنها تمالكت نفسها بسرعة، واستطاعت العثور على إحدى ابتساماتها المعهودة:

لأني لا أريد ذلك.

- وهل ستتزوجين شخصاً أخر؟

- أنا؟ كلاّ، بكل تأكيد، كلاّ.

وبدت في تلك اللحظة وكأنها تتوثب مدفوعة بشعور من الكبرياء السّلفي، ثم أخذت تضحك، ولكن هل أضحكتها فكرة خطرت على

بالها أم أنها ضحكت ممّا وجدته مسلّياً وممتعاً في عرض (همفري).

(بيتي) أتوسل إليك، وأرجو أن تتزوجيني.

- أبداً.

- إنك لا تستطيعين الاستمرار في العيش على هذا الشكل.

كان الغمّ يثير الرعشة في صوته، ويقلّص ملامحه.

وكانت هي تبتسم بعطف وحنان:

ولماذا لا؟ لا تتصنع الغباء. أنا أحبك كثيراً يا (همفري) ولكنّ ما تريد القيام به أصبح قديماً جداً، وقد ولّى عهده.

- (بيتيّ) (بيتيّ).

كيف لم يتبيّن لها أنه لا يفكر إلا بها ولمصلحتها. فلم يكن الحب هو الذي يدفعه للكلام، بل الشفقة والخجل، بل العار.

ونهضت:

بلا مواعظ يا (همفري)، وبدلاً من ذلك، اذهب لكي تنام، فأنت تعلم أن عليك أن تستيقظ عند الفجر. ولن أراك صباح الغد إلى اللقاء، إني أحبك كثيراً. وقد سررت جداً بوجودك هنا.

وقبلته على الخدّين وباكراً، وفي صباح اليوم التالي، لأنّ عليه أن يكون على متن الباخرة في الساعة الثامنة، وجد (كرّوثير) ألبير ينتظره في السيارة أمام المنزل كان يرتدي صدارة صوفية، بنطالاً أبيض، وعلى رأسه (بيريه) باسك. كانت حقائب (كرّوثير) في الروّاق، فالتفت نحو رئيس الخدم، وقال له: ضع الحقائب بجانب السائق سأركب في المقعد الخلفي.

لم يبد ألبير أية ملاحظة فصعد (كرّوثير) إلى السيارة وانطلقت بهما وعندما وصلا إلى الميناء. أسرع الحمالون نحوهما ونزل (ألبير) من السيارة. فنظر إليه (كرّوثير) بتعال:

ليس هناك حاجة لمرافقتي إلى السفينة، سأتدبر الأمر جيداً

بمفردي. هاك هذه (حلوان) لك.

وناوله ورقة نقدية ذات الخمسة جنيهات. فاحمرّ وجه (ألبير) وارتبك، ربما أراد أن يرفضها، ولكنه لم يدرِ ماذا عليه أن يفعل وأخيراً تغلبت عادة الخدمة والعبودية الطويلة، فقال عفوياً، وحسب العادة:

أشكر سيدي كثيراً.

فأومأ له (كرّوثير) بإشارة خفيفة من رأسه وابتعد.

لقد أرغم عشيق (بيتي) على أن يتكلم معه بصورة غير مباشرة، وبصيغة الشخص الثالث. كان هذا، بالنسبة له كما لو أنه صفع الفم الجميل المبتسم، وبصق الخزي والعار على وجه الخاطئة الآثمة. وهذا ما جعله يشعر بسرور مشوب بالمرارة.

هزّ كتفيه ولاحظت أنه حينئذ، حتى هذا الانتصار البسيط كان يبدو عبثياً لا جدوى منه. ولزمنا الصمت، وماذا كان يمكنني أن أقول؟ وأخيراً، استأنف حديثه:

لا بد أنك ترى أنه من الغرابة بمكان أن أروي لك هذه الأمور، فهذا سيان في نظري. وأرى أنه لم يعد هنالك أهمية لأي شيء. ويبدو لي أنّ الحشمة قد فقدت واختفت من هذا العالم. ويعلم الله أني لست غيوراً. فلكي يغار المرء، يجب أن يكون عاشقاً ومحبّاً، وأنا مات حبي، وزال وتبدّد بلمح البصر بعد كل تلك السنين لم أعد أستطيع التفكير بها إلا برعب وكراهية.

والأمر الذي يهدّ قواي ويسبب لي تعاسة مخيفة، هي فكرة انحطاطها وسقوطها بشكل لا علاج ولا مردّ له.

يقال أيضاً أنها ليست الغيرة هي التي دفعت (عطيل) لضرب (ديدمونه) بل غمّه، وضيقه الشديد، عندما توفّر لديه الدليل أنّ فتاة

أحلامه فاجرة ومدنّسة والذي حطّم ذلك القلب النبيل، هو كون الفضيلة، يمكن هكذا أن تضمحل وتبيد.

كنت أعتقد أنه لا يوجد أحد مثلها وكنت شديد الإعجاب بها، ومعجباً بشجاعتها، وبصراحتها، بذكائها، وبذوقها الفني.

ولكنها لم تكن سوى مومس؟ ولم يسبق لها أن كانت شيئاً آخر على الإطلاق.

- لست متأكداً من ذلك. فهل تعتقد أننّا جميعاً، من طينة واحدة؟ أتدري ما الذي يثير اهتمامي: هو أن (ألبير) يمكن أن يكون لا يمثل، بالضبط سوى الضريبة التي تدفعها للمادة، لكي تسمح لروحها أن تحلّق بحرية في أجواء المثل الأعلى. وكونها التقطت عشيقها واختارته بهذا المستوى الوضيع، ربما منحها شعوراً بالاستقلال، لا يمكن أن تحظى به مع ندّ مساو لها في المستوى الاجتماعي فالنفس البشرية غريبة جداً: فهي لا تحلّق في الأعالي أبداً إلا عندما يكون الجسم قد تمرّغ في الوحل.

فردّ بغضب:

- أوه لا ترو سخافات.

- أهذه سخافات؟ لا أعتقد ذلك، فأنا لم أعبّر عن فكرتي بصورة جيدة ولكنها سليمة.

- لقد دفعت بي إلى الشيخوخة، فأنا محطّم، وقد انتهيت.

- دعك من هذا لماذا لا تكتب عنها قصة؟

- أنا؟

- إن هذا يعتبر، مع ذلك المصدر الهامّ والكبير للأديب.

عندما يتعرض لأمر، أو لمشكلة، تسبّب له تعاسة شديدة، فيشعر أنه معذّب ومضطهّد، عند ذلك يجد عزاءً وتشجيعاً، عندما يمسك بالقلم ويروي كل شيء.

- ربما يكون ذلك عملاً قبيحاً ومخيفاً: إذ إن (بيتّي) كانت تمثل كل شيء في العالم، بالنسبة لي، وأنا لن أرتكب نذالة كهذه أبداً.

وتوقف عن الكلام، فلاحظت أنه استغرق في التفكير، لدقيقة أو أكثر قليلاً، ورغم الرعب الذي أحدثته لديه فكرتي التي أوحيت له بها، فقد قدّر الوضع من وجهة النظر الأدبية، ثم هزّ رأسه:

ليس بسببها بالطبع بل بسببي أنا، فبعد كل شيء أنا لي كرامتي، وعلاوة على ذلك، فليس هنالك أية قصة.

الأدبية

أعتقد أنّ قليلاً جداً من الناس يعرفون كيف توصّلت السيدة (ألبير فورّستير) إلى كتابة مؤلّفها الأدبي: (تمثال أشيلّ) ولأن هذا العمل يعتبر إحدى أفضل الروايات المعاصرة، فإنّ إيراد عرض موجز للظروف التي وضع فيها لا يمكن أن يخلو من فائدة لجميع من يحبّون الآداب ويهتمون بها.

الجميع يتذكرون النجاح الذي حظيت به رواية (تمثال أشيل) فخلال شهور عديدة أرهقت الطبعات المتتالية عمال المطابع وجامعي ومجلدي الكتب، ومع ذلك فقد كان الناشرون في أمريكا كما في إنكلترا لا يتوصلون لتلبية كل طلبات أصحاب المكاتب، الملحّة، ولا يستطيعون إرضاءهم. وترجم الكتاب، خلال هذه الفترة الوجيزة إلى جميع اللغات الأوربية، كما أعلن عن قرب ظهور طبعات بعدة لغات أخرى كاليابانية والأردية. وعلى جانبي شاطئ المحيط الأطلسي، نشر في بداية الأمر في بعض المجلات، وقد انتزع ممثل السيدة (فوريستر) من مديري تلك المجلات مبالغ يمكن أن توصف بأنها طائلة. وقد ظلت إحدى المسرحيات التي اقتبست عن الكتاب، تعرض في نيويورك طيلة موسم بكامله، وكل شيء يحمل على الاعتقاد أنّ عرضها في لندن لن يكون أقلّ شهرة ورواجاً. وقد تم شراء حق الاقتباس للسينما بمبالغ ضخمة. وإن كانوا في الأوساط الأدبية. قد بالغوا في تقدير أرباح السيدة (فوريستير)، فإنّ هذا العمل وحده سوف يكفي دون شك ليجعلها في مأمن من الحاجة إلى النقود، أو إلى التفكير فيها طيلة حياتها.

ومن النادر جداً أن يجمع أحد الكتب، في آن واحد معاً، بين أصوات التأييد والاستحسان التي يعطيها القراء والنقاد وشعور المؤلف أنه - لو استطعت القول - قد حققّ بذلك تربيع الدائرة، أي الأمر المستحيل، لا بدّ أنه داعب بمتعة وسرور غروره، لأنه رغم حماسة الصحافة - وكانت السيدة (فورّيستير) تعتبر أن ذلك المديح والإطراء، هو حق مشروع لها - فقد ظل الجمهور حتى آنذاك بارداً كالثلج حيال أي عمل أنتجته، لا شيء سوى نسخة صغيرة مطبوعة بعناية، ومجلّدة بجلد الماعز الملوّن، والصحف تخصص، بعد ذلك أعمدة بكاملها لترفع إلى السّحاب (الرائعة) الجديدة، ناهيك عن صفحة المديح الكبيرة في النشرات الدورية صاحبة الحظوة في المكتبات التي يكتنفها الغبار والتابعة لبعض الأندية المحافظة. وجميع الخبراء كانوا يقرؤونه ويمتدحونه، ولكنّ الخبراء، على ما يبدو لا يشترون كتباً: فكتاب السيدة (فورّيستير) لم يكن يباع. أو ليس معيباً أن يظل كاتب متميز، ذو خيال واسع وحساس وأسلوب جزل إلى هذا الحد، مجهولاً إلى هذه الدرجة؟ ففي فرنسا كانت مؤلفة الكتاب مجهولة تقريباً. وكثيراً ما استنكر السيد (فيرناند فاندريم) في مقالاته عمى الجمهور وضلاله، وأنّبه على خموله وغفلته، دون أن يكون لذلك أي أثر أو أن يعطي أية نتيجة. وممثل السيدة (فورّيستير) المعجب المتحمس بعبقريتها، ضغط على ناشر أمريكي رفض أن ينشر اثنين من كتبها، مهدداً إياه بأن يعطي لناشر آخر إحدى روايات كاتب ذائع الصيت، تلقى مؤلفاته رواجاً كبيراً. واستقبال الصحافة الأمريكية الحار، أثبت أنّ هناك أيضاً، الأذهان الأكثر تفتّحاً وسمواً، كانت تقدّر موهبة السيدة (فورّيستير). ولكن عندما عرض على النّاشر كتاب ثالث، ردّ بخشونة مهنية ومصلحية تماماً أنه يفضّل أن يحتفظ برأسماله ليخصصّه لشراء المشروبات الكحولية الاصطناعية (كالجنّ) وغيره.

ومنذ أن نشرت رواية (تمثال أشيل) أعيدت طباعة مؤلفات السيدة (فورّيستير) السابقة. وقد أشار السيد (فيرناند فاندريم) بأسى في مقال جديد - ولكن بكل صراحة - بأنه ظل يلفت الأنظار طيلة خمس عشرة سنة، في أوساط المثقفين، والمهتمين بالأدب، إلى مزايا المؤلف المتصاعدة. وسرد سيرة الحياة الكاملة للسيدة المؤلفة سيكون زائداً عن الحاجة، فهي ستبدو باهتة ولا طعم لها بعد الدراستين الدقيقتين والبارعتين اللتين نشرهما السيد (فيرناند فاندريم).

وقد ظهرت ميول السيدة (فورّيستر) وموهبتها الأدبية في سنّ مبكرة. فمحاولتها الأولى، وهي مجموعة من قصائد الرثاء، نظمتها في الثامنة عشرة من العمر، ومنذ ذلك الحين، أخذت تنشر كل سنتين أو ثلاث سنوات عملاً واحداً فقط من الشعر، أو النثر - لأن نظرتها السامية للفن لم تكن تسمح لها بغزارة الإنتاج، والإكثار منه، زيادة عن الحد المعقول. وعندما كتبت (تمثال أشيل) كانت قد بلغت سن السابعة والخمسين، المعتبر،وأصبحت أعمالها آنذاك ضخمة، فقد أعطت العالم ستة دواوين شعر مجموعة تحت عناوين لاتينية: (Pax Maris AES triplex (Felicitas) وكلها أعمال تتسم بطابع القسوة: إذ إنّ قريحتها، التي لا تميل إلى إتباع الخفة والنزوات، تحلق بسمو ومهابة. وظلت مخلصة للرثاء، و (السونيتة) (le sonnet) أي القصيدة المؤلفة من أربعة عشر بيتاً، كانت تغلب لبّها، ولكنّ مزيتها الرئيسية هي إحياؤها للقصيدة الغنائية والأناشيد، وهو نوع كان الشعراء الحاليون يميلون إلى إهماله، ويمكن التأكيد، دون تردد أن النشيد الذي نظمته إلى الرئيس الفرنسي (فالبير) (Fallieres) سيحتل في يوم من الأيام، مكاناً مرموقاً بين جميع المختارات الشعرية التي كتبت باللغة الإنكليزية، فهو يثير الإعجاب بجزالة جرسه وإيقاعاته وبالتذكير

المفرح بالأراضي الفرنسية الجميلة والهادئة: وادي (اللوار) وذكرياتها عن الشاعر الفرنسي. (du Bellay) ومدينة (شارتر) والزجاجيات المتلألئة في واجهة كاتدرائيتها، والمدن التي تغمرها الشمس في مقاطعة (البروفانس) كل هذا وصفته السيدة ألبير فوريستير بحرارة تلفت النظر وتدعو إلى الإعجاب لا سيما وأنها لم تتجاوز في حياتها مدينة (بولونيا) الواقعة مقابل إنكلترا، على الشاطئ الفرنسي. وفي فترة زواجها نزلت في هذه المدينة حيث أمضت بضع ساعات أثناء جولة بحرية في أحد الزوارق، ولكن التعرّض المتوالي لألام دوار البحر، العنيفة، مضافة إلى تألمها من رؤية لغتها الفرنسية السهلة والشديدة النقاء تظل غير مفهومة من قبل سكان ذلك الساحل المشهور، جعلها تأنف إلى الأبد من التعرض إلى تجارب شاقّة ومذلة، في آن واحد، ولم تجازف بنفسها بعد ذلك في المجال الخؤون، الذي، مع ذلك طالما غنته وأشادت به: (Pax Maris) بأبيات شعرية ذات اثني عشر مقطعاً أسلوبها جزل وإيقاعها مهدهد: وهنالك مقاطع جميلة أيضاً في النشيد الذي يحمل عنوان: نشيد إلى (Woodrow wilson). ولكن الضريبة التي وضعت على الدخل في إنكلترا، بعدل خمسة شلنات على الجنيه، جعلت الشاعرة تقرر – وأنا أسف لقول هذا – عدم إدخال هذا النشيد في ديوانها التالي.

ومع ذلك، فإني أرى أنّ السيدة (ألبير فورّيستير) إنما تبرع وتتفوق في النثر، فقد كتبت عدة مؤلفات تضمنت دراسات قصيرة وموجزة، ولكنها ذات صيغة وشكل في غاية الإتقان، حول مواضيع مختلفة، كموضوع: (الخريف في مقاطعة سوسيكس) أو (الملكة فيكتوريا)، (الموت)، الربيع في نورفولك،..الخ كما كتبت مؤلفات علمية بارعة ودقيقة عن نمط وطراز الكنائس في القرن السابع عشر، وعن المظاهر والجوانب الأدبية في حرب المائة سنة، وإبداعها في النثر هو

الذي جذب إليها ذلك الجمهور من المعجبين، الذين وإن كانوا قليلي العدد، فإنهم يشكلون النخبة المختارة – مبخّرون، يتصاعد الدخان على الدوام من المباخر التي يحملونها، فيحيطها بسحابة من البخور – وينادون بها معلنين أنها تتمتع بأنقى وأنصع عبقرية في ذلك العصر، وهي نفسها كانت تعترف أن تفوقها يعود إلى أسلوبها المتين والرشيق، المنقّح والبليغ في الوقت نفسه. وفي النثر وحسب إنما كانت تستطيع إبداء تلك الدعابة المتحفظة والعذبة التي كان قراؤها يرون أنها لا تقاوم، وهي دعابة لاذعة بشكل يختلف عن تلك التي تنجم عن التلاعب بالأفكار وحتى بالألفاظ: إنها الدعابة التي تعتمد على التنقيط. وفي نفحة من العبقرية، كانت قد اكتشفت الإمكانيات الهزلية والمضحكة الكامنة في النقطة والفاصلة، وأخذت تنثرها بعذوبة في نصّها. كانت تتحلى بثقافة واسعة وإحساس مرهف، دون أن تستسلم لضحكة صاخبة وسوقية، وتتلذذ كذوّاق خبير بهذا الفن الجديد تماما. إن جميع الأشكال والصيغ والأخرى للدعابة كانت تبدو سمجة ومتكلفة للعارفين المطلّعين، وقد حاول العديد من الكتاب تقليدها، ولكن دون جدوى: فهم يستطيعون أن يقولوا ما يريدون، ولكن لا أحد يعرف أن يستخلص من النقطة والفاصلة جوهر روحها، النادر الوجود.

كانت السيدة (ألبير فورّيستير) تقيم غير بعيد عن (ماربل أرش) في مسكن يتحلى بميزيتي الحي الأنيق والأجور المعتدلة، ويتألف من صالون فسيح يطل على الشارع، وغرفة واسعة لصاحبة البيت، وقاعة طعام معتمة تطل على الباحة، وغرفة صغيرة وضيقة، بابها مقابل المطبخ، ينام فيها السيد (ألبير فورّيستير) الذي يدفع أجرة المنزل، وكل يوم سبت، كان الصالون الفخم يفتح أبوابه لاستقبال الأصدقاء، وهو

مكان لو استطعنا القول، يبدو نظيفاً ومرتباً بشدة وصرامة. وعلى الجدران، فوق الورق الذي وضعه ورسم أشكاله (وليام موريّس) بنفسه، علّقت، في إطارات بسيطة سوداء، لوحات من عمل الفنان (ميزوتيني) اشتريت قبل أن تحظى بالرواج وبشهرتها الكبيرة. والأثاث يعود إلى زمن (شيبندال) فيما عدا المكتب الأميركي، فهو بشكل غير واضح من طراز (لويس السادس عشر)، وعليه تكتب السيدة (ألبير فوريّستير) مؤلفاتها. ولا يفوتها أبداً أن تلفت نظر الزائرين الجدد إلى هذا المكتب. وقليلون هم الذين ينظرون إليه دون أن يبدو عليهم التأثر والإعجاب. وهنالك سجادة كثيفة، والأنوار تبدو خافتة.

والسيدة (فوريّستير) تتصدر على أريكة فاخرة مغطاة بالدامسكو الأحمر، مسندها عال ومستقيم، ولأنها كانت المقعد المريح الوحيد في الصالون، فالسيدة تجلس هكذا، بشكل مختلف عن الآخرين، وتبدو في مستوى أعلى من مستوى ضيوفها، وكان الشاي يقدم من قبل مخلوقة غير معروفة العمر أو اللون، تلتزم الصمت على الدوام، ولا تقدّمها سيدتها لأحد، ولا تعرّفها على الضيوف، ولكنها كما يؤكد بعضهم، غيورة من الميزة التي تجعلها تريح السيدة (فوريّستير) من عمل شاق ومبتذل، وبذلك تستطيع الشاعرة أن تتصرف بكلتيها إلى الحديث، وأرجو أن تصدقوني إذا قلت لكم إنها كانت محدّثة لبقة وبارعة، وأحاديثها مع ذلك ليس فيها هزل أو مزاح. ويصعب عليها بالطبع أن تستخدم التنقيط عندما تتكلم، ولأنها عند ذلك تحرم من مزيّة النقاط والفواصل المفيدة، فهي تبدو أحياناً وقد فقدت حس الدعابة المسلية، ولكن أي سمو في أفكارها وأية سعة إطلاع! فهي لا تجهل شيئاً في مجال العلوم الاجتماعية القانونية والقضائية، واللاهوت، فقد قرأت كل شيء وذاكرتها قوية جداً، وهي تتمتع بذلك الفن الدقيق والحساس الذي يسدّ مسدّ الخيال، ويكمله، ألا وهو إيراد

الشواهد. إذ إن ثلاثين سنة أمضتها في رفقة حميمية مع الكثير من الشخصيات المتميزة، زودتها بالكثير من النوادر الطريفة والحكايات، فكانت توردها في المكان والوقت المناسبين، ودون أن تكرر شيئاً منها بلا مبرر، وهي تتمتع بموهبة إبهار مختلف الأوساط والحصول على إعجابها، وصالونها كان يضم، في بعض الأيام، أحد رؤساء الوزارات السابقين وصاحب إحدى الصحف الكبرى وسفير إحدى أكبر الدول الأوربية، في آن واحد، وكنت دائماً أظن أن هذه الشخصيات الهامة كانت تأتي إلى هناك حاملة فكرة الاحتكاك بالحياة البوهيمية، ولكنها بوهيمية نظفت وهذبت بحيث أنها لم تعد توسخ أحداً.

كانت السيدة (فورّيستير) تبدي اهتماماً شديداً بالسياسة، وقد سمعت أحد الوزراء يقول لها بصراحة إنها تمتلك دماغاً رجولياً. وظلت فيما مضى، خصماً لدوداً لحق النساء في الاقتراع، ولكنه ما إن أقرّ، حتى أخذت، مع ذلك، تراودها فكرة الدخول إلى مجلس النواب. ولكن إلى أية مجموعة ستنضم؟

وكثيراً ما قالت وهي تهزّ كتفيها القويين بظرف وابتهاج: (لأني، على أية حال، لا أستطيع، أنا بمفردي، أن أشكل حزباً) فإلى أية جهة ستهب الرياح؟ ففي حالة الشك، ستعمد مثلها في ذلك مثل الكثيرين من الوطنين المتحمسين، إلى التحفظ وكتمان رأيها. ولكنها انضمت أخيراً إلى حزب العمال، لأنه، برأيها، أمل الأمة الوحيد، وإذا عرض عليها أحد المقاعد في البرلمان، فكل شيء يدل على أنها لن تتردد في القبول: وستنزل إلى الحلبة، وتخوض المعركة كأحد أبطال الطبقات العمالية المضطهدة.

كانت تستقبل الأجانب بالترحاب تشيكيين، إيطاليين، فرنسيين، إذا كانوا يحملون أسماء معروفة، والأمريكيين، حتى لو كانوا مجهولين. ولكن لم تكن تميل إلى التعاظم والتبّين، ولذلك فإنك لن تلتقي في

صالونها بأحد الدوقات إن لم يكن له قيمة شخصية لا جدال فيها، ولا بإحدى السيدات النبيلات، فيما عدا أولئك اللواتي اشتهرن وأضفت عليهن النجومية فضيحة اجتماعية بسيطة. حادثة طلاق، نشر إحدى الروايات، حوالة مصرفية وقعت دون أن يكون لها رصيد. ويصبح اهتمام السيدة (فوريستير) السخي والمتحرر، مضموناً. وقليلاً ما كانت تهتم بالرسامين، لأنهم برأيها أناس خجولون وصموتون، وبدرجة أقل أيضاً بالموسيقيين: لأنّ هؤلاء إذا كانوا مشهورين فإنهم يتطلبون كثيراً من الرجاء والإلحاح بالطلب لكي يجلسوا إلى البيانو، أو أنهم إذا وافقوا، فهم لا يتركونه بعد ذلك، وعلاوة على ذلك، فالموسيقا تعيق الحديث وتشوّش عليه: ومن يريد أن يسمعها، فليذهب إلى الحفلات الموسيقية، وهي تفضل تناغم الأرواح، لأنه أكثر سمواً وروعةً. وكل عطفها كان يتجه إلى الكتّاب، وبخاصة المبتدئين: المجهولين، منهم وكانت تترصد وتتابع المواهب الفتية. وبين المؤلفين المشهورين الذين يأتون أحياناً ليتناولوا عندها فنجاناً من الشاي، كان القليلون منهم الذين لم تشجعهم، وتسدد خطواتهم الأولى. وقد أصبح وضعها الشخصي أقوى من أن يجعلها تشعر بالغيرة أو الحسد وبعد أن سمعت صفة العبقرية والنبوغ تَلصق باسمها، في كثير من الأحيان، فكيف يمكن أن تشعر بشيء من الحسد حيال المكاسب المادية التي حرمت منها؟ والسيدة (ألبير فوريستير) الواثقة من رأي الأجيال وحكمها، تستطيع أن تسمح لنفسها بالترفع والزهد التامين. ولم يسبق لأي صالون حتى الآن، في بلادنا التي تتصف بالقسوة المادّية، أن أعاد إلى الأذهان، بهذا الشكل المثير، ذكرى صالونات القرن الثامن عشر الفرنسية: فالدعوة لتناول قطعة حلوى وفنجان شاي، يوم الثلاثاء، في هذا الصالون، كانت قد أصبحت حظوة ثمينة وكبيرة ففي هذا المعبد المهيب، ذي الأضواء الخافتة، يستحيل عليك ألا تشعر وأنت جالس على كرسيك الذي

صنعه (شيبّندال) أنك تعيش ساعة من زمن التاريخ الأدبي، وذات يوم قال سفير بالولايات المتحدة للسيدة (فورّيستير):

(إن كأساً من الشاي، عندك، يا سيدتي، هي إحدى أطيب وأقوى المتع التي أتيح لي تذوقها في حياتي.

وبالفعل، كانت المتعة في بعض الأحيان تبلغ مداها، وتصيب الجميع بشيء من الإنهاك، فيظلون لا حول لهم ولا قوة إزاء مظاهر حماسة السيدة (فورّيستير). وبذوقها الذي لا يخطئ، كانت دائماً تبدي إعجابها بما يستحق الإعجاب، بالطريقة المثلى وفي الوقت المناسب، أي تماماً كما ينبغي وفي الوقت الذي ينبغي أن يتم فيه التعبير عن ذلك، وكان تناول كأس أو كأسين من (الكوكتيل) يعطيني بالضبط المقاومة الكافية لكي أستطيع مجابهة الجو المرهق الذي يسود هذا المجلس المختار.

ولكن السيدة (فورّيستير) لم تكن تكتفي بتلك الوجبات الخفيفة التي تقدمها أسبوعياً عصر يوم الثلاثاء. فهي تقيم أيضاً كل يوم سبت حفل غداء، تدعو إليه ثمانية أشخاص، وهو برأيها العدد الأكثر ملاءمة للأحاديث العامة. وعلاوة على ذلك فإنّ قاعة الطعام ما كانت تتسع لمدعو أخر زيادة على هذا العدد وكان نجاح هذه الحفلات التي تقيمها يفرح قلبها أيضاً أكثر ممّا تفرحه شهرتها الأدبية، وهي تختار ضيوفها بعناية كبيرة والدعوة التي يتلقاها أحدهم يعتبرها أكثر من مجرد مجاملة: إنها علامة إقرار بالتفوق والفوز. والحديث يدور حول المائدة وينطلق نحو الأجواء الروحية والأثيرية ويحلّق فيها، وفي المجتمع الأقل انسجاماً وتجانساً الذي تضمه حفلات الشاي، تبدو مثل هذه الانطلاقات شبه مستحيلة، وكان كل من المدعوين يحمل من هذه الولائم إيماناً مؤكداً، وثقة بمواهب صاحبة البيت.

وهي لا تدعو إلى حفلاتها سوى الرجال، فرغم تعاطفها الشديد

مع قضية بنات جنسها، وسرورها بالالتقاء بالنساء في مناسبات أخرى، فكان لا بد لها من أن تعترف بأنهن لديهن ميل مؤسف إلى عدم الاهتمام إلا بمن يجاورهن على المائدة، الأمر الذي يسيء إلى الأحاديث العامة ويعيق تبادل الأفكار، وهذا ما كان يجعل من حفلات الغداء تلك، ولائم فكرية، كما هي ولائم طعامية وغذائية. فالمدعوون يجدون لديها أطعمة شهية وخموراً ممتازة، وسجائر من النوع الجيد، وكان المعتادون على ارتياد النوادي الأدبية يندهشون من ذلك كثيراً، ففي إنكلترا يفكر الأدباء كثيراً وبشكل جيد، ولكنهم لا يهتمون بطعامهم وكثيراً ما يتناولون أسوأه: فهم بانصرافهم إلى التفكير، وإلى التأملات المجازية والمعنوية، لا يلاحظون أنّ (اللحمة) التي تقدم لهم غير ناضجة وأنّ البطاطا باردة، والخمرة تسبب لهم الكآبة، وهم يخشون القهوة، والسيدة (فورّيستير) حساسة جداً وتتأثر بالثناء الذي تجلبه لها أطعمتها.

وكثيراً ما تقول بظرف ودلال: (إذا كان الناس يمنحونني شرف المجيء إلى منزلي لتناول طعام الغداء، فعلى الأقل يجب أن يتناولوا طعاماً طيباً لا يخرّش حلقهم).

وعندما يتجاوز التملّق الحد المعقول، كانت تتذرع بالتواضع: (الحقيقة هي أن مديحكم يربكني، وإلى السيدة (فوفيت) إنما يجب أن توجهّوا مديحكم وتهنئتكم).

- ومن هي السيدة (فوفيت).؟

- طباختي.

- إيه، حقاً إنها لؤلؤة ثمينة، ولكنك لن تدّعي إنها هي التي تختار الخمور؟

- وهل خموري جيدة؟ أنا لا أعرف شيئاً في هذه الأمور، وأعهد بذلك إلى المتعهد الذي يقدّم لنا ما يلزمنا من المواد.

ولكن إذا تحدثوا عن السجائر، تبتهج السيدة (فورّيستير) كثيراً: (أوه بهذا الشان، عليكم أن توجهوا التهنئة إلى (ألبير) فهو الذي يهتم بذلك، فهو لا مثيل له في اختيار السجائر).

وكانت تتأمل زوجها بعين الرضا، كما تتأمل الدجاجة الأصيلة النسب، صوصها الصغير. وعند ذلك كانت الأحاديث تنتعش وتنشط: الضيوف وقد سرّهم أن يستطيعوا أخيراً توجيه بعض المجاملات لصاحب البيت، لا يتركون هذه الفرصة تفوتهم، فيغدقون له المديح.

فيرد عليهم قائلاً: (إنكم في غاية اللطف، وأنا مسرور لأن سجائر (هافانا) هذه، قد أعجبتكم ووافقت ذوقكم).

ثم يبدأ حديثاً بسيطاً عن السجائر، والصفات الخاصة التي يتوخاها فيها، وانخفاض النوعية التي سببه التوسع في هذه البضاعة.

وكانت زوجته تصغي له وعلى فمها ابتسامة تنم عن المجاملة والرضا، مسرورة بشكل واضح بهذا الفوز البسيط الذي حققه زوجها، ولكن لا يمكن أن يستمر هذا الحديث عن السجائر لفترة طويلة، أليس ذلك؟. وحالما تلاحظ أنّ بوادر الملل قد بدت على مدعويها، تبادر بطرح موضوع أخر أكثر أهمية، فيعود (ألبير) إلى الصمت، ولكنه يكون قد حقق بعض النجاح.

وهي كانت تشعر جيداً أن حضور (ألبير) كان يثقل على مدعويها، أثناء حفلات الغداء، هذه، ولكنها كانت تصر على أن يحضرها. وإذا كانت تقيمها يوم السبت، فلأنه يكون مشغولاً في بقية الأيام، كانت كرامة الشاعرة تتطلب هذا الحفل الأسبوعي، ومع الإصرار أن يحضرها زوجها، دون أن يبدر منها أي تصرف يدل على شعورها بالتفوق الفكري أو الثقافي، عليه، وربما كانت تتساءل في سهراتها الهادئة فيما إذا كان بإمكانها حقاً، فيما مضى، أن تجد زوجاً، يكون نداً لها. ولكنّ أصدقاء السيدة (فورّيستير) الذين لا يعرفون هذه

الوساوس كانوا يأسفون كثيراً لارتباط امرأة كهذه بمثل هذا الرجل، فكيف أمكنها أن تقنع وترضى به؟ ولأن أكثرهم من العزّاب، فقد توصلوا إلى هذه النتيجة المقلقة وهي انه لا يمكن أن نعرف أبداً لماذا يتزوج شخص شخصاً آخر، حقاً، لا يمكن اتهام (ألبير) بأنه مهذار سخيف ومزعج، فهو لا يدوّخك بحكايات وقصص لا تنتهي، ولا يلاحقك بمزاحه، ودعاباته السخيفة، ولا يثير أعصابك بالتفاهات السطحية، ولا ترهق حديثه أسماء الأماكن العامة: كل ما هنالك أنه ممّل وحسب، صفر، ليس غير، و(كليفورد بويلستون) - وهو كاتب موهوب، يعرف كل شيء عن الأدباء الفرنسيين الرومانسيين - كان يقول دائماً: إننا إذا ألقينا نظرة على غرفة دخل إليها (ألبير) فإننا لا نرى فيها أحداً. وقد رأى نادي (المستيرين) أنّ هذه الدعابة ظريفة جداً. و (روز وتيرفور) الروائية المعروفة، التي تجعلها شجاعتها لا تخشى شيئاً، جازفت بنقلها للسيدة (فوريستير) وإن كانت هذه الأديبة تظاهرت بأنها استاءت منها، ألا أنها لم تستطع أن تخفي ابتسامتها، وكان موقفها من (ألبير) يزيد من احترام وإعجاب أصدقائها بمزاياها وبأخلاقها. وأياً كان رأيهم به، فهي تلح على الدوام بأن عليهم أن يعاملوه باحترام: أليس هو زوجها؟ وهي نفسها كانت تبدو في منتهى اللطف والتهذيب: فإذا أبدى ملاحظةً ما، كانت تصغي له بمودّة واهتمام، وإذا ذهب ليجلب كتاباً لها أو ناولها قلماً لتسجّل فكرة خطرت لها، فهي تشكره بلطف وكياسة. ولكن إذا كانت لا تقبل أن يهمله أحد، فهي تدرك جيداً بحسّها السليم، أنّ الأمر يمكن أن يزيد عن الحد المقبول، فيما لو فرضته دائماً على الآخرين، ولذلك كثيراً ما كانت تخرج بمفردها، وعلى الأقل مرة في السنة كان يشعر أصدقاؤها أنهم ملزمون بدعوته لتناول طعام العشاء. وهي لم تكن تذهب أبداً بدونه إلى الولائم والحفلات الرسمية التي تلقي فيها أحد خطاباتها،

وفي محاضراتها، كانت تهتم بأن تحجز له مقعداً على المنصة.

كان (ألبير) على ما أعتقد، متوسط القامة، ولكن، بدون شك لأنه لم يكن يرى إلا بالقرب من زوجته الضخمة الجثة، لذلك كان يعطي انطباعاً بأنه رجل قصير، نحيل الجسم، على أبواب الشيخوخة، والواقع أنه في مثل سن زوجته وشعره القليل والقصير جداً، كان أبيض اللون. وعلى شفتيه ينتفش شارب كشارب الهرّ. وليس في وجهه الشبيه بالرق، سمة تلفت الانتباه. وإذا كانت عيناه الزرقاوان جميلتين ومغريتين في الماضي، فإنهما أصبحتا آنذاك باهتتين تنمان عن السأم، وبنطال خردليّ اللون، تفصيلته ثابتة لا تتغير، مع سترة سوداء وربطة عنق رمادية مشكولة بلؤلؤة صغيرة، كان هذا يشكل هنداماً مناسباً له، وألبير يشغل حيزاً ضيقاً من المكان. وعندما يستقبل الضيوف في صالون زوجته يظل وجوده لا يلفت الأنظار، كأي قطعة أثاث عادية وضعت بشكل مناسب في مكانها المعتاد. وبأدب لا عيب فيه، كان يعرف أن يرفق مصافحة الضيوف، بابتسامة بالغة الرقة واللطف، قائلاً للأصدقاء القدامى: (كيف حالك؟ إني سعيد جداً بلقائك، آمل أن تكون دائماً بخير وعلى ما يرام!؟

ولكن عندما يكون الأمر متعلقاً بأجنبي له أهمية خاصة، يأتي لأول مرة، فإنه يذهب ليستقبله عند باب الصالون، قائلاً له:

(أنا زوج السيدة (فوريستير) اسمح لي أن أقدمك لزوجتي).

ثم يعود الزائر إلى قرب زوجته، التي تدير ظهرها، بحكمة، إلى الضوء، وتسرع للترحيب بالشخصية الهامة. إن اعتزاز (ألبير) بشهرة زوجته الأديبة، وتفانيه في مساعدتها، وخدمتها، كل هذا كان يسرّ الناظرين. فهي تجده دائماً عندما تحتاج إليه، وبعد ذلك يعرف كيف ينسحب بهدوء. وتظل السيدة (فوريستير) على الدوام هي أول من ينصفه ويعطيه حقه:

ماذا يحلّ بي لولاه؟.. إنه ضروري جداً بالنسبة لي، فأنا أقرأ له كل ما أكتب، وانتقاداته تبدو لي مفيدة في معظم الأحيان).

فقالت الآنسة (ويتيرفورد) هازئةً:

- (موليير وطبّاخته)!

فردت السيدة (فوريستر) بحدّة:

- أتجدين هذا مضحكاً، ياعزيزتي (روز)؟

فعندما كانت السيدة (فوريستير) لا تحبّذ ملاحظة ما، كانت تلجأ إلى طريقة غريبة ومحيّرة وهي أن تسأل عما إذا كانت تلك الملاحظة ليست سوى مزاحاً أكثر رقة مما ينبغي بالنسبة لها. ولكن كيف يمكنها أن تَفحم الآنسة (ويترفورد)؟

إن هذه الآنسة خلال حياتها الطويلة الغنية بالمغامرات، لم تعرف سوى هوس واحد :حبر الطباعة. وكانت السيدة (فوريستير) تتقبل هذه الصديقة أن تكون تعجب بها وتستلطفها.

واستأنفت الآنسة (ويترفورد) كلامها قائلة:

هيا دعك من ذلك يا عزيزتي! فبدونك ماذا يمكن أن يصبح؟ أنه ما كان يتاح له أن يعرفنا، ولا بد أنه سعيد بالتعرف علينا، لأنّ ذلك يتيح له مرافقة أصحاب أفضل العقول في هذا العصر!

- مهما مات النحل بعيداً عن حمى خليته، فهذا لا يمنعه من أن يكسب معيشته.

وإذا كان أصدقاء السيدة (ألبير فوريستير) يعرفون كل شيء عن الفنون والآداب، فإنهم يجهلون العلوم الطبيعية، ولذلك فقد ظلوا صامتين حيال هذه الملاحظة، التي أبدتها الأديبة.

وتابعت كلامها: إنه لا يزعجني أبداً، وبصورة فطرية، هو يتبين الوقت الذي تكون فيه الوحدة ضرورية بالنسبة لي، والحق يقال أني عندما تزدحم الأفكار في ذهني، فبدلاً من أن أنزعج من حضوره أحب

أن أشعر أنه بالقرب مني.

فعلّقت الآنسة (ويترفورد) على ذلك بقولها:

- كهرّ فارسي أليف!

هرّ فارسي أليف ذو أصل جيد جداً، حسن التدريب والتهذيب على أية حال.

هكذا ردت السيدة (فوريستير) بجفاء على تعليق الآنسة (ويترفورد) لكي توقفها عند حدّها

ثم تابعت حديثها في مدح زوجها والثناء عليه:

نحن المفكرين من جهتنا، نعيش في عالم خاص جداً: نهتم كثيراً بالأمور المعنوية والمجازية أكثر من اهتمامنا بالأشياء المادّية والحسية، وإني لأتساءل أحياناً فيما إذا كنا لا ننظر من الأعلى ومن بعيد إلى التحركات والنشاطات التي تحدث على الأرض، وبكثير من اللامبالاة حتى كدنا نصبح لامبالين بالأمور والقضايا الإنسانية!؟

وأنا ممتنّة على الدوام من (ألبير) لأنه يبقيني على اتصال مع رجل الشارع.

وبعد هذه الملاحظات التي لا يستطيع أحد من المفكرين أن يعترض عليها أو أن ينفي صحتها وعمقها، أطلق على (ألبير) لقب: (رجل الشارع)، ثم أصبح بعد ذلك: (هاوي الطوابع) وهذا اللقب ابتكره له الكاتب (كليفورد بويلستون) الذي يتقن الدعابة الظريفة واللاذعة، فذات يوم، بعد أن تعب من الجهد الذي بذله في متابعة الحديث مع (ألبير) سأله، بعد أن نفد ما في جعبته: (هل تجمع طوابع)؟

فأجابه (ألبير) بلطف وهدوء:

- كلا، بكل أسف.

ولم يكد (كليوفورد بويلستون) يطرح هذا السؤال، حتى تبينت له الفائدة التي يمكنه أن يجنيها منه، فكتابه عن (الخالة) بالتحالف مع

(بودلير) أثار اهتمام جميع هواة الأدب الفرنسي، ومنذ ذلك الحين، أي بعد دراساته الحاسمة حول روح الدعابة الفرنسية، اعتبر أنه يجمع بين الخفة وحميّا القريحة (الغاليّة): (gauloise) (نسبة إلى بلاد الغال في فرنسا القديمة).

ولم يَعر أيّ انتباه لجواب (ألبير) وفي أول فرصة سنحت له، أخبر أصدقاء السيدة (فوريستير) أنه اكتشف سرّ زوجها: إنه يجمع الطوابع. وبعد ذلك لم يكن يلتقي به دون أن يسأله:

إيه يا سيد (فوريستير) ماذا تخبرني عن تلك المجموعة؟

أو هل اشتريت طوابع بعد المرة الأخيرة؟

ومهما احتج واعترض (ألبير) فالابتكار كان أكثر أهمية وغنى من أن يهمل ولا يستثمر. وأصبح أصدقاء زوجته، نادراً ما يفوتهم أن يسألوه عمّا عثر عليه من الطوابع مجدداً. والسيدة (فوريستير) نفسها، في أوقات مرحها، كانت تقول أحياناً (هاوي جمع الطوابع) وهي تتحدث عن زوجها. وقد لبسه هذا اللقب كما يلبس القفاز اليدين، وكانوا يمازحونه بذلك علناً، معجبين بحسن طباعه، وكان يبتسم، دون أن يبدو عليه أي استياء أو حقد ودون أن يعترض أو يحتج على ذلك.

والسيدة (فوريستير) وهي ذات حسّ قوي وسليم ما كانت لتعرّض حفلاتها للفشل، باجلاسها ضيوفها المميزين بجوار (ألبير) فهي تهتم بإحاطته ببعض الأصدقاء الحميميين، وعندما يصل هؤلاء (الضّحايا) كانت تقول لهم:

الأمر سيّان لديكم إذا جلستم بجوار (ألبير) أليس كذلك؟

وكيف كان يمكنهم أن يعترضوا؟ ولكن إذا ملامحهم عبرّت بوضوح عن الخيبة، كانت السيدة (فوريستير) تربت على أيديهم وتقول لهم: في المرة المقبلة سأجلسكم بجواري. وكما تعلمون، فإن الغرباء يربكون (ألبير) بينما أنتم تستطيعون أن تشجعوه وتتفاهموا معه.

والواقع هو أنهم كانوا يتجاهلونه. والكرسي الذي كان يشغله يمكن أن يكون شاغراً، فالأمر سيان، بالنسبة لهم، ويبدو أنه لم يكن يهتم بلا مبالاة ضيوفه، نعم، حقاً أنهم ضيوفه، لأن سمك (السلمون)هذا الذي حصل عليه في غير موسم صيده، وهذا الهليون الباكوري، لم تكن تستطيع السيدة (فوريستير) من دخلها كمؤلفة أن تقدمهما لهم.

وهو يظل طيلة الوقت هادئاً وصامتاً، وإذا فتح فمه فلكي يعطي أمراً لإحدى الوصائف. ونظراته تتجه نحو الضيوف الجدد بتركيز وإلحاح، و هي لو لم تكن بريئة لبدت مزعجة جداً. ولكنه لم يكن يترك أبداً مجالاً لمعرفة نتيجة تفحصّه البريء وغير المسيء، الذي يجريه للقادمين الجدد، وعندما ينشط الحديث يعمد إلى مراقبة المتكلمين، الواحد بعد الآخر، ولكن دون أن تبدو أية تعابير على وجهه النحيل: ولا أحد يمكنه أن يعرف ما هو رأيه بالأفكار والآراء الغريبة التي كانت تقفز حول المائدة،وصرح (كليفورد بويلستون) أن هذه الأحاديث المتألقة تنزلق على رأس (ألبير) كما ينزلق الماء على ظهر ذكر البط، وهو بالفعل، قد كفّ عن محاولة فهمها، ويتظاهر بالإصغاء إليها، ولكنّ (هاري أوكلند) الناقد الكبير، يرى أنّ (ألبير) كان يتابعها بإعجاب دون أن يستطيع دماغه المشوّش والمنذهل، الإمساك بهذه أو بتلك من الحقائق الساميّة التي كان يعلنها الجالسون حوله. وفي المدينة، لا بد أنه يستطيع أن يفتخر بتلك العلاقات المغرية. وربما اعتبره البعض، هناك، أنه مشعل يشع بالعلم والثقافة، ومعلّم في مجال المناقشات الفلسفية؟

وأية متعة يحصل عليها المرء لو استطاع سماعه وهو يبوح بأسراره!

كان (هاريّ أواكلند) أحد المعجبين الأكثر اقتناعاً بالسيدة (ألبير

فورّيستير) ونحن مدينون له بدراسة دقيقة وهامة عن أسلوبها. كانت ملامحه النقية والواضحة تذكر بأحد القديسين، وكثافة شعره شديدة، وقد أصبح، على التوالي، وهو لم يكد يبلغ الثلاثين من العمر، ناقداً مسرحياً، أديباً وموسيقياً، وناقداً للفنون، ولكن يبدو أنّ الفنون بدأت تتعب (أواكلند): فأخذ يعلن أنه سيكرّس مواهبه للنقد الرياضي.

و(ألبير) – وقد حان الوقت لنتكلم عن عمله – رجل أعمال، ولكنّ ثروته ليست ضخمة. وحسب قول أصدقاء السيدة (فورّيستير) فهي تتحمل هذه المصيبة بهمة جديرة بالتقدير، فلو أنه كان أحد ملوك التجارة، الذين يتحكمون بمصير الأمم، ويرسلون البواخر الضخمة المحملة بالمواد والسلع الثمينة إلى موانئ الشرق التي ألهمت أسماؤها كثيراً من القصائد للشعراء، في هذه الحالة، كان يمكن أن يكون لوضعه طابع رومانسيّ، ولكنه لم يكن سوى بائع عنب،وبالجهد يستطيع أن يؤمن لزوجته معيشة لائقة ومريحة، ولأنّ مشاغله كانت تضطره أن يبقى في المكتب إلى وقت متأخر، فلم يكن يبدو أبداً في استقبالات يوم الثلاثاء، إلا بعد أن ينهي كبار النجوم عبورهم المتألق والقصير الأمد، وفي موعد عودته إلى المنزل، لم يكن قد بقي في الصالون، عادة سوى ثلاثة أو أربعة من الأصدقاء الحميميين، الذين لم يعد يشغلهم سوى ممارسة السخرية على المدعوين الذين انصرفوا. وعندما يسمعون صوت مفتاح (ألبير) وهو يدور في قفل باب المنزل، يلاحظون أن الوقت أصبح متأخراً، وبعد قليل يبدو (ألبير) ويلقي حوله نظرة مترددّة فتستقبله السيدة (فورّيستير) بابتسامة حلوة:

(هيا ! دخل، ادخل، أعتقد أنك تعرف الجميع).

فيتقدّم (ألبير) ويصافح أصدقاء زوجته. وتسأله باهتمام: هل أنت قادم من المدينة؟

مع أنها تعلم حق العلم أنه لا يمكن أن يأتي من مكان أخر.

أتريد فنجاناً من الشاي؟

- كلا أشكرك، لقد تناولته في المكتب.

وظلّت الابتسامة بادية على ثغر السيدة (فورّيستير) فيا لها من زوجة خدومة ومخلصة!.

أوه، ولكني متأكدة أنه يسرّك أن تحتسي فنجاناً آخر، وسأحضّره لك أنا بنفسي.

وتقترب من المائدة، ناسية أنّ الشاي الذي حضرته الوصيفة قبل أكثر من ساعة ونصف، أصبح بارداً كالثلج، فتقدم الشاي لزوجها، بعد أن تضيف له السكر والحليب بكل عناية.

فيتقبّله (ألبير)، ويحركه بهدوء و خضوع، ولكن حالما تنشغل السيدة (فورّيستير) ثانية بالحديث الذي انقطع، يضع (ألبير) الفنجان بهدوء على المائدة، دون أن تكون شفتاه قد مسّته. وينصرف بقية الضيوف، الواحد بعد الأخر، وذات يوم، مع ذلك، كان النقاش حاداً، يثير اهتماماً خطيراً، لدرجة أنّ السيدة (فوريستير) استبقتهم. وقالت بلهجة هادئة، مشوبة بالخبث: يجب أن ننتهي من هذه المسألة بصورة نهائية، ويمكن أن يكون لدى (ألبير) كلمة يقولها بشأنها فلنستمع لرأيه.

كانت المسألة تتعلق بشعرها، وهل يجب أن تقصّه أم لا؟ فهي قوية البنية، مهيبة الطلعة، ولولا طول قامتها لبدت ضخمة الجثة، ولكن جسمها يبدو ممشوقاً ومتناسقاً. وكانت ملامحها البارزة تضفي على وجهها تعابير الذكاء الرجولي الحازم. ومن يرى بشرتها السمراء يعتقد أنّ بعض الدم الشرقي يسري في أوردتها، ولن يدهشها أن تكون من أصل غجريّ، ومن هنا أتى دون شك ذلك الهوس الغريب والوحشي المندفع الذي يتخللّ أحياناً بعض قصائدها، وعيناها الواسعتا الشقّين كانتا سوداوين براقتين، وأنفها يذكّر بأنف الدوق (ويلّنجتون) الكبير إلا أنه أضخم منه، وقوة الإرادة تقرأ بوضوح على ذقنها المربعة، وهي لا

تضع أي خضاب على شفتيها السميكتين، وطبيعة السيدة (فورّيستير) القوية جعلتها تزدري بالمساحيق والخضاب، وبكل مستحضرات التجميل، وشعرها الكثيف المتكدّس على قمة رأسها كان يزيد أيضاً من جلال قامتها. وإزاء هذه الشخصية المهيبة، أؤكّد لكم أنّ المرء يشعر بالقلق، وأنه في موقع حرج.

وكما هو مناسب لوضعها كشاعرة، كانت تختار وترتدي ملابسها بكثير من الفن، ومن أقمشة فخمة ذات ألوان غامقة، ولكنها امرأة رغم كل شيء، وترغب بأن تحظى بالإعجاب، ولذلك فهي تتبع (المودة) والزي الدارج، بحرص وروية. وأتصور أنها منذ بعض الوقت تتحرّق شوقاً لقص شعرها، ولكن ألا يكون الأمر أكثر لباقة أن تبدو أنها فعلت ذلك بناء على إلحاح أصدقائها؟

وقال (هاريّ أوكلند) ملحّاً، بحماسته الشبيبيّة: أوه قصيه، هيّا افعلي ذلك، وتصبحين فاتنة.

أما (كليفورد بويلستون) الذي كان يؤلف آنذاك كتاباً عن (مدام دومانتون) فقد بدا أكثر تحفظاً: فهو يخشى أن تكون التجربة خطرة. وقال وهو يمسح نظارته بمنديل من القماش الرقيق:

عندما يكون لدينا مثال، أعتقد أنه يفضّل أن نستفيد منه: وكيف كان يبدو (لويس الرابع عشر) لولا شعره المستعار؟

فقالت السيدة (فورّيستير):

- إنني مترددة. ولكن يجب مسايرة العصر والسير معه، وأنا بنت عصري، ولا أريد أن أتخلف عنه، فالآن قد اكتَشفت أميركا، كما يقول (ويلهالم ميستير).

والتفتت بظرف وابتهاج نحو (ألبير): ما رأي سيدي ومعلمي بذلك؟ قل لنا رأيك، يا (ألبير)!

هل أقصّه أم لا أقصّه؟ هذه هي المسألة!.

فأجاب بهدوء:

-رأي !؟ أخشى ألا يكون له كبير أهمية، يا عزيزتي.

فتابعت السيدة (فورّيستير) كلامها، بمزيد من التملّق:

- إنّ له الكثير من الأهمية، بالنسبة لي.

كانت تشعر إلى أي حدّ يَعجب أصدقاؤها بطريقتها في معاملة (هاوي جمع الطوابع).

واستأنفت كلامها:

إني مصرّة، وألحّ على معرفة رأيك، فلا أحد يعرفني جيداً مثلك أنت، هل سيناسبني ذلك؟

فأجابها بقوله:

هذا ممكن، ولكنّ خوفي الوحيد هو أنه مع تكوين وأشكال جسمك.. الشبيه بشكل التماثيل، وشعر قصير أن تذكرينا بجزيرة (ليسبوس) وتجعلينا نفكّر بها.. تلك الجزيرة التي أحبّت وغنّت فيها (سافو) المتحمّسة، حسب ما روى الشاعر، لورد (بايرون).

فخيّم صمت ثقيل ومزعج لبعض الوقت، وكتمت (روز ويترفورد) ضحكة ساخرة، بينما لزم الآخرون الصمت المطبق، وتجمّدت ابتسامة السيدة (فورّيستير) فقد ارتكب (ألبير) خطأ، بل حماقة.

وأخيراً قالت: لقد كنت، على الدوام، أعتبر (بايرون) شاعراً رديئاً وضعيفاً جداً.

وافترقوا. ولم تقص السيدة (فورّيستير) شعرها، ولم يطرح بعد ذلك هذا الموضوع أبداً.

وفي مساء يوم ثلاثاء أخر، حصلت الحادثة التي لا بدّ أن يكون لها تأثير على مجرى حياتها الأدبية. كان الاستقبال ذلك اليوم، ناجحاً جداً، فقد حضره زعيم حزب العمال، وقد لمحت له السيدة (فورّيستير) بكل ما أمكنها من وضوح أنها مستعدة لتجربة حظها ولخوض المعركة

الانتخابية إلى جانب العمال، فالزمن يتطور. وإذا أرادت العمل في السياسة، فلا بد من اتخاذ قرار حاسم. وكان (كليفورد بويلستون) قد اصطحب معه أحد أعضاء المجمع العلمي الفرنسي. وإن كانت هذه الشخصية الهامة لا تعرف كلمة من اللغة الإنكليزية، فهذا لم يمنع السيدة (فوريستير) من الإصغاء بسرور للثناء الجزيل الذي كالته لأسلوبها القوي والرشيق في آن معاً.

وقد لوحظ أيضاً باهتمام وجود سفير الولايات المتحدة، في ذلك الاستقبال وكذلك أمير روسي شاب، يكتنف سلوكه الكثير من الغموض والشبهات، وإن كان دم (آل رومانوف) على ما يبدو، يجري في أوردته، وكان هنالك أيضاً دوقة هجرت زوجها الدوق لكي تتزوج أحد الفرسان، الذي يحترف ركوب الخيل في السباق، وقد بدت ظريفة وجذابة، وإن كانت مفاتنها قد ذوت وذبلت، فإنها مع ذلك أضفت مزيداً من البهجة على الاجتماع، الذي كان بطبيعته مرحاً وبهيجاً: ولكنّ الجميع كانوا وقد انصرفوا، ما عدا (كليفورد ويليسون)، (هاريّ أوكلند)، (روز ويترفورد) (أوسكار شارل)، (وسيمونر) و(أوسكار شارل) القصير القامة والنحيل الجسم. شاب، ولكنّ وجهه كثير التجاعيد كوجه السعدان، يضع على عينيه نظارة ذهبية، وهو يكسب معيشته من عمله في إحدى الوزارات ويكرّس أوقات فراغه لمتابعة شؤونه الأدبية. فهو يكتب مقالات صغيرة للمجلات الأسبوعية باثني عشر (سنت) المقال. ويكنّ احتقاراً شديداً للبشرية جمعاء. وتعترف له السيدة (فوريستير) بالموهبة، ولكنه وإن كان يعبّر لها دائماً عن إعجابه الشديد بها - وهو الذي أطلق عليها اسم (ملكة النقطة والفاصلة) - فهي كانت تحذره كثيراً. إذ إن (أوسكار شارل) مشهور بسوء نيته وميله للايذاء و(سيمونز) كان ممثل السيدة (فوريستير) ووكيل أعمالها، وكانت نظارته السميكة، تجعل عينيه، في وجهه المستدير كالبدر، تبدوان

غريبتي الشكل، كأنهما مشوهتان، وتشبهان عيون تلك الحيوانات القشرية التي تسبح وتعيش في أحواض تربية الأسماك. كان (سيمونز) يحضر ويتابع بانتظام اجتماعات السيدة (فورّيستير) بدافع الاهتمام الصادق بموهبتها وكذلك بأمل أن يلتقي هناك بأدباء يتعامل معهم في المستقبل. والسيدة (فورّيستير) التي يعمل لحسابها منذ أمد طويل، دون أن يجني من عمله هذا ربحاً هاماً، لم تكن تستاء لو استطاعت أن تدّبر له الفرص ليحصل على أرباح مشروعة، ولذلك كانت تهتم كثيراً بتقديمه، مع عبارات حارة تنم عن الثناء عليه والممنونية منه، إلى أي كان تعتقد أن لديه بضاعة أدبية يريد تسويقها أو توظيفها. ومذكرات الليدي (سانت – سوثين) التي كان الناس يتخاطفون طبعاتها المتتالية، ونسخها كانت قد نوقشت للمرة الأولى، في صالونها.

كان روّاد الصالون الجالسون حول السيدة (فورّيستير) ينتقدون بشدة ودون هوادة مختلف الأشخاص الذين ارتادوا الصالون وانصرفوا في ذلك اليوم، والآنسة (واريّن) الفتاة المسنّة الشاحبة الوجه، بعد أن أمضت ساعتين واقفة بجوار المائدة الخاصة بتقديم الشاي، أخذت تقوم بجولة في الصالون لكي تجمع الفناجين المبعثرة هنا وهناك، وهي تتوصل على الدوام للتحرر من مشاغلها الكثيرة لكي تحضّر الشاي وتقدمه في صالون السيدة (فورّيستير) ولتدق لها مخطوطاتها على الآلة الكاتبة، في المساء. ولم تكن الأديبة تدفع لها الأجرة، متأكدة بحق، أنها تعوّض ذلك على المخلوقة المسكينة بإعطائها بطاقات مجانية للسينما، وبإهدائها فساتينها القديمة.

وبصوتها الجهوري كانت ربة البيت تتكلم بإطناب والآخرون يصغون لها بانتباه ورع. كانت متحمّسة، وكان يمكن تسجيل الكلام الذي ينساب من بين شفتيها، دون أدنى تنقيح.

وفجأة سمعت ضجة في غرفة الانتظار، كما لو أن شيئاً ثقيلاً

سقط من مكان مرتفع، ثم تعالت أصوات ناجمة عن مشاجرة. فتوقّفت السيدة (فورّيستير) عن الكلام، واعترى حاجبيها الجميلين تقطيب خفيف: كيف يمكن أن يكونوا ما يزالون يجهلون أني لا أقبل في بيتي مثل هذه الفوضى والإخلال بالنظام؟ هلاّ قرعت الجرس، يا آنسة (واريّن) وسألت عن سبب هذه الضجة؟

فانصاعت الآنسة (واريّن) للأمر، وجاءت الوصيفة بعد قليل. ولكي لا تزعج السيدة (فورّيستير) ذهبت الآنسة (واريّن) إلى قرب الباب، واستفسرت من الوصيفة عن الموضوع بصوت خافت. ولكنّ السيدة (فوريستير) انتهرتها وقاطعتها، وبلهجة غاضبة: أخيراً، ماذا يحدث يا (كرتر)؟ هل أخذ ينهار المنزل؟ أم أن الثورة الحمراء قد اندلعت، في نهاية الأمر؟

- أرجو أن تتكرّم سيدتي وتتقبّل المعذرة، إنها حقيبة الطباخة الجديدة، وقد أوقعها الحمال الذي جلبها، فغضبت المرأة وتشاجرت معه.

بهذا أجابتها الوصيفة التي استَدعيت لسؤالها عما يحدث.

- ومن هي، الطباخة الجديدة؟

- لقد رحلت السيدة (فوفيت) اليوم بعد الظهر، يا سيدتي.

فنظرت السيدة (فورّيستير) بذهول:

وتخبرينني بذلك، هل أنجزت السيدة (فوفيت) عملها؟ حالما يعود سيدك، قولي له إني أريد أن أتكلّم معه.

- حسن جداً، يا سيدتي.

فخرجت الوصيفة، وعادت الآنسة (واريّن) بخطى متثاقلة إلى قرب مائدة الشاي، وبحركة تلقائية، وإن كان لا أحد يريد مزيداً من الشاي، ملأت عدة فناجين.

وصاحت الآنسة (ويترفورد): إنها لكارثة! وأنا منذهلة بسببها.

وقال (كليفورد بويلستون): يجب استعادة (فوفيت)إنها درّة ثمينة، هذه المرأة: طباخة ماهرة، وفي كل يوم تبدو أفضل من اليوم الذي سبقه.

ولكن في تلك اللحظة بالذات، عادت الوصيفة وقدمت لسيدتها رسالة موضوعة على صينية فضّية.

فسألتها السيدة (ألبير فورّيستير): ما هذا؟

- سيدي قال لي أن أسلّم هذه الرسالة لسيدتي عندما تسأل عنه.

- وأين سيدك؟

فأجابتها الوصيفة: وقد دهشت من هذا السؤال:

- لا أدري، لقد ذهب سيدي.

- ذهب؟ حسن أشكرك.

فانسحبت الوصيفة، والسيدة (فورّيستير) مزّقت المغلف، وقد بدت عليها الحيرة، وروت لي (روز ويترفورد) فيما بعد أنّ أول ما تبادر إلى ذهنها أنّ (ألبير) وقد خاف من غضب زوجته بسبب رحيل السيدة (فوفيت) ذهب فألقى نفسه في نهر (التايمز) وقرأت السيدة (فورّيستير) الرسالة والحيرة بادية على ملامح وجهها، ثم صاحت:

أوه لهذا قبيح ! هذا فظيع!

ماذا هنالك؟

وكحصان حرون وجموح، ضربت السيدة (فورّيستير) الأرض برجلها.

وضمت ذراعيها بحركة مسرحية، يصعب وصفها - ولكنها تليق بامرأة سوقية تبيع السمك، استبّد بها الغضب- ووجهت نظراتها نحو أصدقائها المنذهلين والمرتبكين:

لقد هربَ (ألبير) مع الطبّاخة!

فانتفض الجميع مذعورين، ثم حصل أمر غريب ومخيف: وراء

مائدة الشاي، انفجرت الآنسة (واريّن) فجأة تقهقه بالضحك، الآنسة (واريّن) التي لم تكن تفتح فمها أبداً، والتي لم يكن يكلمها أحد، ولا يعرفها أحد ممن اعتادوا على ارتياد هذا المنزل، لو رآها في الشارع، مع أنهم يرونها منذ ثلاث سنوات، كل أسبوع. الآنسة (وارين) هذه، كانت تتلوى وهي تضحك بشكل جنوني. ودفعة واحدة، التفت الجميع نحوها: فلا يمكن أن يكون ذهل أكثر منهم ذلك الرجل، الذي رأى حماته وقد أخذت تتطق وتتكلم وكانت التشنّجات اللاإرادية تهزّ الآنسة (واريّن): مشهد لا يوصف كالانقلاب المفاجئ في إحدى الظواهر الطبيعية، الذي لا يمكن توقعه، كما لو أنّ الكراسي والطاولات أخذت ترقص (السريندة) بمحاذاة جدران الصالون، وكالما حاولت أن تتمالك نفسها، كلما ازدادت قوة ضحكتها حتى كادت تختنق. وأخيراً، تناولت منديلاً، وضعته في فمها وهربت فانصفق الباب خلفها.

وعند ذلك، قال (كليفورد بويلستون):

إنها نوبة هستيرية!.

فأضاف على ذلك (هاريّ أوكلند) قائلاً:

- إنها الهستيريا بعينها، بل هذا هو الجنون المطبق!.

ولكنّ السيدة (فوريستير) كانت تلتزم الصمت، أثناء ذلك، وقد سقطت الرسالة عند قدميها، فالتقطها (سيمونز) وناولها إياها، فرفضت أن تأخذها، وقالت له:

اقرأها، اقرأها بأعلى صوتك.

فرقع (سيمونز) نظارته وأخذ يقرأ وقد أمسك بالرسالة وقرّبها من عينيه:

صديقتي العزيزة:

لقد قررت السيدة (فوفيت) الرحيل، فهي ترغب بالتغيير، وبما أنني غير مستعد للبقاء هنا بدونها، فإني راحل أيضاً، فقد أتخمت

بالأدب و بالفن. وغمراني إلى ما فوق رأسي. والسيدة (فوفيت) لا تصرّ كثيراً على الزواج، ولكن إذا رغبت بالطلاق، فهي ستوافق على الزواج بي، آمل أن تعجبك الطباخة الجديدة وتحظى برضاك، فهي تحمل شهادات ممتازة، ربما وفرت عليك مشقة البحث والتفتيش، إذا أخبرتك أننا نقيم أنا والسيدة (فوفيت) في المنزل رقم ٤١١، (طريق كينّنفتون) س. و.

(ألبير)

فلم ينبسّ أحد ببنت شفة، ونزلت نظارة (سيمونز) فاستقرّت على أنفه، وهذه النخبة المتألقة التي اعتادت تماماً أن تقول ما ينبغي قوله، ظلت صامتة، فاغرة الأفواه، حيال الكارثة، والسيدة (فورّيستير) لم تكن امرأة تتحمل تقبل التعازي وظلّ كل منهم يمتنع عن ذلك كي لا يتعرضّ لسخرية الآخرين.

وأخيراً، تشجع (كليفّورد بويلستون) وبادر بالمساعدة لإنقاذ الموقف، قائلاً:

إني عاجز عن الكلام، ولا أستطيع أن أجد ما أقوله.. ثم خيّم الصمت من جديد.

وأخيراً، سألت (روز ويترفورد):

وكيف هي السيدة (فوفيت)؟

- وماذا تريدين أن أعرف عنها؟

هكذا أجابتها بحدّة السيدة (فورّيستير) وأضافت: إني حتى لم أنظر إليها. وأ(ألبير) هو الذي يوظف الخدم. ولم أستدعها إلاّ لبرهة قصيرة، لكي أرى فيما إذا كانت هيئتها مرضية.

- ولكن، عندما كنت تعطيها الأوامر والتعليمات؟

- (ألبير) هو الذي يعطيها إياها، وبذلك كنت أستطيع أن أتفرّغ

لعملي، وفي الحياة علينا أن نعرف حدودنا ونقف عندها.

- إذن (ألبير) هو الذي كان يوصي على أطعمة ومأكولات وجبات الغداء؟

- بالطبع، فقد كانت تلك دائرة اختصاصه.

فارتفع حاجبا (كليفورد بويلستون) حتى أصبحا على شكل قوسين، إذن كان ذلك هو (ألبير) - وكيف لم يستطع أن يفطن لهذا - هو المنظم لتلك الولائم المدهشة التي تثير الإعجاب!.

ويختار الخمور الطيبة التي لا مثيل لها، والحقيقة هي أنه، على ما يبدو خبير جيد بمسألة المأكل والمشروبات!.

فردت المرأة المهجورة، كما لو أنها أرادت الدفاع عن نفسها:

- كانت له مزاياه، كنت على الدوام أقول هذا لكم، وكنتم جميعكم تسخرون منه ولا تريدون أن تصدقوني عندما أقول لكم إني مدينة له بالكثير.

لم يكن لديهم أيّ رد على كلامها، ومرة أخرى خيم الصمت الثقيل، وفجأة أثار (سيمونز) المشكلة من جديد وكأنه وجّه للأديبة ضربة بهراوة ضخمة عندما قال:

يجب إقناعه كي يعود إلى هنا.

والسيدة (فوريستير) وقد أذهلتها المفاجأة، لو لم تستند على حافة المدفأة لكانت، بالتأكيد، ترنّحت وفقدت توازنها. وصاحت بأعلى صوتها:

ماذا تقول؟ إني لن أراه ثانية في حياتي. أنا أرجعه!؟ أبداً، حتى لو أتى وتوسل إليّ، راكعاً على ركبتيه.

- أنا لم أقل لك أن ترجعيه، بل قلت لك بأن نقنعه بأن يعود.

ولكنّ السيدة (فورّيستير) تابعت، مزدرية بهذه الحجة غير المقنعة: إنه مدين لي بكل شيء، فلولاي، ماذا يصبح؟ إني أسألكم عن

ذلك! لقد كونّت له وضعاً لم يكن يحلم به.

لم يكن هذا الغيظ، يخلو، بالحقيقة، من شيء من العظمة والكبرياء، لكنه لم يحَدث أي تأثير على (سيمونز) الذي سألها:

ومن أين ستؤمنين معيشتك، بعد الآن؟

فحدجته السيدة (فورّيستير) بنظرة قاسية، وأجابته بكل برود: الله سيدبر الأمر!.

فردّ عليها، قائلاً:

- اسمحي لي أن أقول لك إني أشك بذلك.

فهزّت الشاعرة كتفيها، ودون أن يبدو على (سيمونز) أنه لاحظ غضبها، فقد اعتدل في جلسته وأشعل سيجارة، ثم قال: أنت تعلمين جيداً، أنّ ليس بين المعجبين بك من هو أكثر حرارة وحماسة مني.

فقال (كليفّورد بويلستون) مصححاً:

- إلاّ أنا.

فوافق (سيمونز) على ذلك،وقال: أكثر من (بويلستون) ومني، فنحن جميعاً نرى أنّ لا أحد بين الكتّاب الحاليين يمكن أن يقارن بك، ففي الشعر كما في النثر أنت في الصف الأول. وأسلوبك! أخيرا، الجميع يعرفون أسلوبك.

وقال (كليفّورد بويلستون):

- روعة أسلوب السير (توماس براون) مع نقاء أسلوب الكردينال (نويمان)، وحرارة أسلوب (جون دريدن) مع دقة أسلوب (جوناثان سويفت).

فلاح شبح ابتسامة على زاويتي فم السيدة (فورّيستير) وكان هذا هو الدليل على أنها سمعت ما قيل.

(ولديك ملكة الدعابة).

وصاحت الآنسة (ويترفورد) بأعلى صوتها:

ومن في العالم كله، يستطيع أن يضفي هذا العمق الروحي، هذه السخرية هذا الطابع المضحك والهزلي على النقطة والفاصلة؟

وتابع (سيمونز) كلامه، دون شفقة:

- ولكن هذا لا ينفي أنّ كتبك لا تباع، ومنذ عشرين سنة و أنا أتابع وأصنّف أعمالك، وأعترف لك بصراحة إني لم أجن من عملي هذا ربحا يذكر، ولكني من وقت لأخر، أحب أن أخدم قضية عادلة، وكنت على الدوام واثقاً بك، وآمل أننا سنتوصل، عاجلاً أم آجلاً، إلى جعل الجماهير العريضة تتهافت على شراء كتبك.

أما اكتساب معيشتك من أعمالك الأدبية، في الوقت الحاضر فلا بدّ من تحذيرك بأنه أمر لا ينبغي أن تفكري به.

فقالت السيدة (ألبير فورّيستير):

- لقد ولدت بعد فوات الأوان وبعد زمني بكثير. كان ينبغي أن أعيش في القرن الثامن عشر، في ذلك العصر، الذي كان فيه أنصار الأدب وحَماته يمنحون مائة جنيه لكل من يهديهم كتاباً.

- وكم تعتقدين ستكون الأرباح التي تدرّها أعناب (كورنثيا)؟

فتنهدت السيدة (فورّيستير) وقالت:

إنها زهيدة فقد كان (ألبير) يقول لي دائماً إنّ ربحه لا يتعدى ألفاً ومائتي جنيه في السنة، تقريباً.

- لا بدّ أن يكون إدارياً من الطراز الأول، ولكن بالنسبة لهذا الدخل، فإنك لن تستطيعي أن تأملي الحصول على نفقة كافية. صدقيني ليس لديك ما تقومين به سوى إقناعه بالعودة.

- إني يمكن أن أفضل العيش في سقيفة. وهل تتصوّرون أني سأتحمل الإهانة؟ وهل تريدون أن ترونني وأنا أحاول انتزاعه من طباختي؟ لا تنسوا أنّ الكرامة، بالنسبة لامرأة مثلي تأتي قبل الرفاهية.

فاستأنف (سيمونز) كلامه، بعناد:

- هذا هو، بالضبط، ما رميت إليه.

وألقى نظرة على الجماعة: كانت عيناه، أكثر من أيّ وقت مضى، تذكر بعيون الأسماك الغريبة والضخمة.

فأنت، وأنا لا أنكر ذلك، تتمتّعين بوضع متميز جداً، ويكاد يكون فريداً في عالم الأدب، وضع مختلف تماماً عن أوضاع الأدباء الآخرين. فأنت لم تهدري قيمة عبقريتك، وحملت بنبل وشرف لواء الفن الصرف الحقيقي. وتفكرين بالدخول إلى مجلس النواب. وإن كنت أنا لا أقدّر كثيراً السياسيين، ولكنّ ذلك سيكون دون شك عاملاً مساعداً وهامّاً للدعاية لك، ويمكن عند ذلك أن نؤمّن لك القيام بجولة في أميركا تلقين فيها بعض المحاضرات. فأنت تتمتعين بالمثالية، واجرؤ على القول أنّه حتى أولئك الذين لم يقرؤوا لك سطراً واحداً، يكنّون لك جزيل الاحترام، ولكنّ هنالك في وضعك أمراً لا تستطيعين أن تسمحي لنفسك به، وهو أن تفتحي مجالاً للمزاح والسخرية وتعرّضي نفسك لهما.

فانتفضت السيدة (ألبير فورّيستير):

بحق السماء ماذا تعني بقولك هذا؟

- أنا لا أعرف السيدة (فونيت) ولكنها، على ما سمعت، امرأة شريفة و محترمة، ولكنّ الزوج لا يهرب مع طباخته إلا ويجعل زوجته عرضة للهزء والسخرية، فلو كانت راقصة أو سيدة متميزة، لما سبّب لك هذا أي أذى، ولكن طباخة !فأنت لن تستطيعي المقاومة والصمود، وخلال أسبوع ستصبحين سخرية لندن كلّها. ولا شيء كالسّخرية يقضي على الكاتب، أو رجل السياسية. لذلك يجب أن تستعيدي زوجك، وبدون تأخير. فاحمرّ وجه السيدة (فورّيستير) ولكن جوابها تأخر قليلاً، كانت لا تزال تدوي في أذنيها الضحكات الشائنة وغير

المقبولة التي أرغمت الآنسة (واريّن) على الانسحاب والهرب.

جميعنا هنا نحن أصدقاؤك، ويمكنك الاعتماد على تكتّمنا المطلق.

فأخذت السيدة (فوريستير) تتأملهم، وبدا لها أنّ وميضاً ينم عن الخبث أخذ يشعّ من عيني (روز ويترفورد) وكان وجه (أوسكار شارل) المتجعد يعكس تعبيراً غريباً. فندمت لأنها، في لحظة ضعف واستسلام، قد أفشت سرّها، ولكنّ (سيمونز) الذي يعرف جيداً الأدباء الذين يتعامل معهم، استأنف كلامه، وثبتّ نظراته على الأصدقاء المخلصين:

أنت قلب وروح مجموعتهم، ولست أنت وحدك التي يهرب منك زوجك، ولكنه هرب منهم جميعاً، وسينالون حصتهم من السخرية العامة، وإجمالاً، فإن (ألبير فرويستير) سخر منكم وأهانكم كلكّم، أيّا كان عددكم.

فقال (كليفورد بويلستون) موافقاً ومؤمناً على كلامه:

- نعم، جميعنا في المأزق نفسه، و (سيّمونز) مصيب فيما يقول يا سيدتي، يجب أن نستعيد صديقنا (هاوي جمع الطوابع).

فردّت عليهما الأديبة بحدّة، ولكن باللغة اللاتينية، وكان (سيمونز) يجهل اللغة اللاتينية، وحتى لو كان يعرفها، فإنّ ردّ السيدة (فورّيستير) ما كان ليثيره، ولذلك جرد صوته، وتابع:

برأيي أن تذهب السيدة (فورّيستير) منذ الغد لمقابلة زوجها - ولحسن الحظ، لدينا العنوان - وترجوه أن يتراجع عن قراره، ولا أعرف ما تقول المرأة عادة في مناسبة كهذه، ولكن السيدة (فورّيستير) تتمتع بحسّ سليم وخيال واسع، فسوف تقول ما ينبغي قوله وإذا فرض السيد (فورّيستير) بعض الشروط، فعليها أن تقبلها، لأنها يجب أن تحاول استعادته بكل الوسائل والطرق.

وفي النهاية، قالت: (روز ويترفورد) باستخفاف:

- إذا استخدمت جيداً مؤهلاتك وأوراقك الرابحة، فإني أعتقد

أنك سترجعينه إلى هنا، غداً مساءً.

- فهل ستعملين بنصائحنا، يا سيدتي؟

وخلال دقيقتين على الأقل، ظلّت السيدة (فورّيستير) وقد أدارت ظهرها، تنظر إلى المدفأة الفارغة، ثم انتصبت بطولها، وصرّحت:

من أجل فنّي، وليس من اجلي لن أسمح لسخرية الناس الجهلة وغير المثقّفين، الفاحشة والبذيئة أن تدنس كل ما أراه حقيقياً، جميلاً وجديراً بالتقدير والاحترام.

فنهض (سيمّونز) وقال:

- رائع ! سأمرّ هنا، غداً مساءً، في طريق عودتي إلى منزلي، وكليّ أمل أن أجدك مع السيد (فورّيستير) في أحسن حال تتناجيان وتتبادلان أحاديث الغزل كعاشقين متيّمين.

وانصرف، والآخرون الذين لا يرغب أحد منهم البقاء على انفراد مع السيدة (فورّيستير) وهي في ارتباكها وحيرتها، اتبعوه جميعاً.

وفي اليوم التالي، بعد الظهر، غادرت السيدة (فوريستير) منزلها، وهي تبدو قوية ووقورة، مهيبة الطلعة بفستانها الحريري الأسود، وقبعتها المخملية، لكي تذهب إلى قرب (ماربل أرش) في الحافلة التي ستوصلها إلى محطة (فيكتوريا). وقد شرح لها (سيمّونز) بالهاتف، كيف يمكنها، بقليل من النفقة أن تصل إلى طريق (كينّنفتون) بسرعة، ولم تكن تشعر بالثقة بالنفس وبالاطمئنان اللذين كانت تشعر بهما (دليلة) وهي علاوة على ذلك لا تشبه (دليلة) بشيء. وفي محطة (فيكتوريا) استقلّت الترامواي الذي يتجه نزولاً على طريق (فوكسهول بريدج) على ضفة النهر الأخرى، ثم دخلت إلى حيّ شعبيّ وسخ، ولأنها كانت مستغرقة في التفكير، فهي لم تلاحظ تنوّع مناظره المدهشة.

وكان التراموای يتابع سيره حتى طريق (كينّنفتون) فطلبت من السائق أن ينزلها قبل الوصول إلى المنزل الذي تبحث عنه، وفي الشارع المزدحم الذي يعلوه الصخب والضجيج، وجدت نفسها غريبة وحائرة، مثل بطل إحدى الحكايات الشرقية، الذي اقتاده جنيّ إلى إحدى المدن المجهولة، وتركه هناك، كان الغيظ والارتباك يجعلان صدرها العامر يختلج ويضطرب ولكنّ اللوحات التي تمثل النشاطات الحية في ذلك الشارع كانت تسترعي انتباهها، ولم تستطع الامتناع عن التقاط بعض العناصر لكتابة وصف رائع لذلك الشارع، وحول تلك المنازل الصغيرة كانت تحلّق ذكرى عهد بعيد كانت الحقول الزراعية فيه تصل حتى أبوابها، وسجّلت السيدة (ألبير فورّيستير) في ذاكرتها التي لا تخطئ أمراً تريد التأكد منه بالرجوع إلى الوثائق الأدبية لطريق (كينّنقتون) كان المنزل رقم (٤١١) يقع في صف من البيوت الصغيرة المبنية بعيداً عن الشارع، وهناك ممشى مرصوف بالبلاط الذي تكتنفه الأعشاب يؤدي إلى باب خشبي تحوّل دهانه إلى قشور، كان هذا المدخل والنبات المتعرش والمصفّر الذي يمتد على الواجهة يعطيان للبيت طابعاً ريفياً مزيفاً يبدو في غير مكانه في ذلك الشارع المزدحم والصاخب، بيت مشبوه يكتنفه الغموض، كان يمكن أن يأوي بعض بنات الهوى، في ليلة عمل لا بهجة فيها ولا فضيحة.

وفتحت الباب للسيدة (فورّيستير) فتاة قذرة الملابس، في نحو الخامسة عشرة من العمر.

السيدة فوفيت من فضلك؟

- لقد أخطأت بقرع الجرس، فهي في الطابق الثاني.

وأشارت الفتاة إلى الدرج وأخذت تصرخ بصوت حادّ:

سيدة فوفيت، هنالك من يسأل عنك.

ودون أن تسرع السيدة (فورّيستير) لكي لا تتعب، تسلّقت بهدوء

الدرج الوسخ، الذي تمزقت السجادّة التي تغطيه، وانفتح أحد الأبواب قليلاً، عندما وصلت إلى الطابق الثاني، وعرفت طباختها فقالت لها بوقار:

نهارك سعيد، يا (فوفيت) إني أرغب في رؤية سيدك.

فترددت السيدة فوفيت، خلال ثانية، لا أكثر، ثم فتحت الباب وقالت:

لتتفضل السيدة بالدخول، ثم التفتت:

إنها السيدة وقد أتت لتراك، يا ألبير.

فأسرعت السيدة (فورّيستير) باجتياز العتبة. كان (ألبير) جالساً قرب المدفأة على أريكة مغطاة بالجلد البالي، لا يرتدي سوى قميص، في فمه (سيجار) وفي رجليه خف، وقد أخذ يطالع صحيفة المساء، وعندما بدت زوجته، نهض واقفاً. وتبعت السيدة (فوفيت) الزائرة إلى الغرفة، وأغلقت الباب.

فقال (ألبير) بمرح وبشاشة:

كيف حالك، يا عزيزتي؟ أمل أن تكوني بخير على الدوام؟!

- هيا، ارتد ملابسك، ماذا ستظّن السيدة؟ إنه لأمر معيب أن تبدو أمامها هكذا.

وتناولت السترة عن العلاقة. وساعدت السيد (فورّيستير) على ارتدائها. وكامرأة معتادة على دقائق الملابس الرجالية - أصلحت له وضع ياقة السترة.

وبدأت السيدة (فوريستير) حديثها بقولها:

لقد تلقيّت رسالتك، يا ألبير.

- إني أفترض ذلك، وإلاّ كيف عرفت عنواني؟

فاقترحت السيدة (فوفيت) وهي تقدّم كرسياً مغطى بالمخمل الحائل اللون، وتنفض عنه الغبار بخفة:

- ألا تريد السيدة أن تجلس؟

فوافقت السيدة (فورّيستير) بإيماءة خفيفة برأسها، وقالت لزوجها:

كنت أفضّل أن أتحدث إليك على انفراد.

فبرقت عينا ألبير:

بما أنّ كل ما تريدين أن تقوليه لي يعني (السيدة فوفيت) بقدر ما يعنيني، فإني لا أرى سبباً لعدم بقائها.

- ليكن ذلك.

فجذبت السيدة (فوفيت) كرسياً وجلست.

وحتى ذلك الحين، لم تكن السيدة (فويستير) قد رأتها إلا بالطاقية، بفستان من القماش القطني وبصدارة العمل، أما الآن فهي ترتدي قميصاً فضفاضاً وجميلاً، من الحرير الأبيض، تنورة سوداء، وحذاء لماعاً عالي الكعبين، بكلاته من الفضة، وهي امرأة في الخامسة والأربعين على وجه التقريب، شعرها أشقر وجهها مورّد، ليست جميلة، ولكنّ مظهرها ينم عن الصراحة والقوة، وهي تشبه خادمة ملهى، أقل امتلاءً في الخديّن، في لوحات المدرسة الهولندية القديمة.

وقال (ألبير):

إيه، يا صديقتي العزيزة، أنا مصغ لك.

فبدت على شفتي السيدة (فورّيستير) الابتسامة الأكثر إغراء وجاذبية كانت تنبض بالتساهل والتسامح:

أنت تشعر مثلي أنّ كل هذا عبثي، لا جدوى منه، يا ألبير، ولا بدّ أنّ لحظة جنون قدّ مرّت بك.

- حقاً، يا عزيزتي؟ أتعتقدين ذلك؟

- أنا لست ناقمة عليك، وأنا أضحك ممّا حصل، وليس هنالك سوى ذلك. ولكنّ أفضل المزاح أقصره. وقد أتيت لكي أعيدك إلى البيت.

- ألم تكن رسالتي إذن واضحة؟

- أوه ! واضحة تماماً. وأنا لا ألقي عليك أية أسئلة، ولن أوجّه إليك أي لوم أو عتاب. وسنعتبر هذا الحادث خطأ عابراً ومؤقتاً، ولن نتحدّث عنه بعد الآن.

لا شيء، يا صديقتي الطيبة، يجعلني أقرر العودة إلى العيش معك.

هذا ما أكدّه لها (ألبير) بأكثر اللهجات مودّة ولطفاً.

- أهذا جدّي؟

- جدّي تماماً.

- أو تحب هذه المرأة؟

وكانت ابتسامة السيدة (فورّيستير) آنذاك، أخذت تبدو مغتصبة، أكثر فأكثر، فقد قررّت في البداية أن تحاول النظر إلى المشكلة ومعالجتها باستخفاف، وبحسها الحاد للدعابة، فقد أدركت هزلية الموقف. ونظر (ألبير) إلى السيدة (فوفيت) وقد اشرق وجهه الذابل:

نحن على تفاهم تام، أليس كذلك يا عزيزتي؟ (التعبير الحرفي الفرنسي: يا عجوزتي).

فقالت السيدة (فوفيت):

- ليس بشكل سيء، أبداً.

فجحظت عينا السيدة (فورّيستير) إذ إنّ زوجها لم يسبق طيلة حياتها الزوجية أن ناداها: (ma vieille) يا عجوزتي. وعلاوة على ذلك، فهي ما كان يمكن أن تتسامح معه، وتتقبّلها منه.

لو أنّ (فوفيت) لديها أقل اهتمام بك وتكنّ لك أقل قدر من الاحترام لأدركت أنّ هذا العمل غير مقبول، فبعد الحياة التي عشتها، والمجتمع الذي انتميت إليه، فهي لا يمكن أن تأمل، بصورة معقولة، أن

تسعدك لزمن طويل، وهي تقودك من غرفة مفروشة بائسة إلى أخرى أكثر بؤساً.

فقالت السيدة (فوفيت) مصححّة:

- هذه ليست غرفة مفروشة، أيتها السيدة، فهذا الأثاث هو ملكي، ثم يجب أن أقول لك إني أحب تأمين الراحة لنفسي وأرغب بأن يكون لي بيت، وكذلك، فإني إن كنت أعمل أولاً. فلا بدّ من أن أحتفظ بهذا البيت، وهكذا يظلّ لديّ ملجأ أعود إليه.

فأضاف (ألبير) مبدياً إعجابه:

- وهو ملجأ مريح!

وألقت السيدة (فورّيستير) نظرة حولها: هنالك على منصب صغير في الموقد غلاية يسخن فيها الماء، وساعة جدار رخامية سوداء يحيط بها شمعدانان تزين أعلى المدفأة، والأثاث مكوّن من منضدة كبيرة مغطّاة بستارة حمراء، خزانة للأواني وماكينة خياطة، وعلى الجدران ثبّتت بعض الصور، والمشاهد التي اقتطعت من ملحق عيد الميلاد في بعض المجلات المصوّرة. وفي الداخل بوابة مغطّاة بستارة مخملية حمراء، تشير إلى الاتصال مع غرفة أخرى: وهي دون شك غرفة النوم الوحيدة. هذا ما تبيّن للسيدة (فورّيستير) بناءً على مقاييس المنزل، ألم تكنّ تكرّس، على سبيل التسلية، في أوقات فراغها، ملكاتها الفائقة لدراسة الهندسة المعمارية؟

لقد كان (ألبير) و(فوفيت) يعيشان في ألفة حميميّة، لا تترك أي شك حول طبيعة علاقتهما.

فتخلّت السيدة (فورّيبستير) عن لهجة المجاملة والاستخفاف: ألم تكنّ سعيداً معي، يا ألبير؟

- ما هذا السؤال؟ ألا تعلمين؟ لقد مضى على زواجنا خمس وثلاثون سنة، وهي مدة طويلة جداً، بل أطول مما ينبغي، وكما هي

طريقتك ونظرتك إلى الحياة، فأنت امرأة صالحة وطيبة القلب ولكنك لست من نوعي، أنت تعملين بالآداب، ومنصرفة إليها، وأنا لا أفعل ذلك، أنت تحبّين الفنون، وهي ترهق أعصابي.

- لقد كنت، على الدوام، أبذل جهدي لكي أشركك بجميع اهتماماتي، وعملت المستحيل لكي لا تكسفك وتخفض من قيمتك نجاحاتي وشهرتي ولا يمكنك القول أني أهملتك.

- أنت كاتبة مدهشة، وأنا لا أنفي ذلك، ولكني بصراحة، لا أحب كتبك.

- اسمح لي أن أقول لك إنّ هذا لا يبرهن إلاّ على سوء ذوقك، إذ إنّ أفضل النقّاد ينحنون أمام قوة إغراء وجاذبية كتبي.

- ثم أنّ أصدقاءك يزعجونني ويغيظونني، واسمحي لي أن أبوح لك، يا عزيزتي بأحد أسراري: كنت أشعر في معظم الأحيان، خلال استقبالاتك، برغبة تكاد لا تقاوم بأن أخلع جميع ملابسي، لا لشيء، إلاّ لكي أرى وجوههم كيف تبدو عند ذلك،

فقالت السيدة (فوريستير) وقد بدا عليها الغيظ والاستياء:

- ما كان أحد منهم ليعترض آنذاك أو يتذمر أو حتى أن يرّف له جفن، وكل ما هنالك، أني كنت أرسلت من يأتي بأحد الأطباء.

فقالت السيدة (فوفيت):

- ولكن ليس هذا من طريقتك يا ألبير، وليس لديك استعداد لذلك.

وكان (سيمونز) قد نصح السيدة (فوريستير) بألاّ تتردّد، عند الضرورة باستخدام مفاتنها لكي تعيد الزوج المتقلّب والهارب، إلى بيت الزوجية، ولكن كيف يمكنها القيام بذلك؟ وقالت في سرّها: لو إني ارتديت أحد فساتين السهرة لكان مواتياً أكثر من أجل ذلك:

خمس وثلاثون سنة من الوفاء والخلاص. إذن لا تعتبر شيئاً

يذكر؟ أنا لم أنظر في حياتي أبداً إلى رجل آخر، يا ألبير، وأنا ألفتك ومعتادة عليك، وبدونك سأضيع وأفقد كل شيء.

فقالت السيدة (فوفيت):

- لقد أعطيت جميع قوائم وجبات الطعام التي كنت أحضّرها، إلى الطباخة الجديدة، وليس على السيدة سوى أن تقول لها كم سيكون عدد الذين سيتناولون الطعام، وهي بعد بذلك تدبر الأمر، فهي جديرة بكل الثقة، وبشأن الحلويات، فإني لم أعرف من هي أمهر منها.

فبدت السيدة (فوريستير) عند ذلك تشعر باليأس، إذ إنّ السيدة (فوفيت) وإن كانت قد أبدت ملاحظتها بحسن نية، فإنّ الملاحظة جعلت من الصعب إثارة عطف السيد (ألبير) الذي قال، عند ذلك: إنك تضيعين وقتك يا صديقتي العزيزة، فقراري لا رجوع عنه، وأنا لم أعد شاباً، وأحتاج لمن يعتني بي، وبالطبع سأخصص لك نفقة كأكثر ما أستطيع، ولكنّ (كورين) تريد أن أترك العمل.

فتساءلت السيدة (فورّيستير) وهي في منتهى الدهشة:

- كورين؟

فقالت السيدة (فوفيت):

- هذا اسمي، فقد كانت أمي من أصل فرنسي.

فرددّت السيدة (فوريستير) وقد زمّت شفتيها:

- هذا يفسر كثيراً من الأمور.

ذلك لأنها إذا كانت معجبة بالأدب الفرنسي، فهي ترى أنّ أخلاقية الفرنسيين تشكو من كثير من العيوب.

وما أريد قوله، هو أنّ (ألبير) قد تعب كثيراً، في عمله، ويستحق أن يرتاح لبعض الوقت، وأنا لديّ ملكية صغيرة في (كلاكتون) الساحلية. وهي بلدة صحّية جداً، وهواؤها يشفي العليل، ويجعل الأحدب يجلّس ظهره، وسنعيش فيها منعّمين. وليس فيها سوى الناس

الطيبين، الذين إذا لم تدّسي أنفك في شؤونهم، لا يتدخلون في شؤونك.

واستأنف (فورّيستير) حديثه:

- لقد ناقشنا الموضوع اليوم، أنا وشركائي، فهم على استعداد لشراء حصتي، ولكنّ عليّ بالطبع أن أقدم تضحية معينة، وبعد تسوية كل الأمور، سيتبقى لي دخل سنوي مقداره تسعمائة جنيه.

ونحن ثلاثة، لكل منا ثلاثمائة جنيه.

فصاحت السيدة (فورّيستير):

- كيف تريد مني أن أعيش بهذا المبلغ الزهيد، فأنا لي مركز، يجب أن أحافظ عليه.

- وقلمك، يا صديقتي الطيبة، قلمك السّلس، الغزير الإنتاج والمتميز جداً؟

فهزت السيدة (فورّيستير) كتفيها، وقد نفذ صبرها:

إنّ كتبي لا تجلب سوى المجد والشهرة، أنت تعلم ذلك جيداً، والناشرون يقولون دائماً إنها تجر عليهم الخسائر، وأنهم لا ينشرونها إلا لكي يكسبوا مزيداً من الشهرة لشركاتهم ولدورهم.

وعند ذلك خطرت للسيدة (فوفيت) فكرة كان لا بدّ من أن يكون لها نتائج هامّة، فطرحت هذا السؤال:

لماذا لا تكتب السيدة رواية بوليسية تكون مثيرة جداً؟

فصرخت السيدة (فورّيستير) وقد استبدّ بها الغيظ:

- أن أكتب.. ماذا؟

وقال (ألبير):

- الفكرة ليست سيئة، ليست سيئة أبداً..

- سيهاجمني النقاد جميعهم، كما تهاجم القطيع زمرة من الذئاب.

- لست متأكداً من ذلك. فالنقاد الجيدون لا يقرؤون عادة، سوى

الكتب الأكثر جدية، وهم لا يجدون أبداً أية فرصة مناسبة ليتمتعوا بكتاب تافه وقبيح يباع بفرنك وربع. أمّا قصتك، يا عزيزتي فسوف يقرؤونها برغبة وبسرعة، ولأنها مكتوبة بلغتك الإنكليزية العالية المستوى. فإنهم لن يخشوا من القول عنها بأنها إحدى الروائع الأدبية.

- إنّ هذا الاقتراح غير معقول، ولا شيء يخالف عبقريتي أكثر منه، وأنا لا يراودني أي أمل بأن أحظى بإعجاب الجماهير.

- إيه! ولماذا لا يحصل ذلك؟ ربما كانت الجماهير تهتم بالنوعية الجيدة. ولكنها تهتم قبل كل شيء بألاّ يزعجها شيء. واسمك على جميع الأفواه، ولكنّ لا أحد يقرأ ما تكتبينه، لأنك تشيعين السّأم. والحقيقة هي أنّ كتبك تبلى ولا تكتب لها الحياة.

- كيف يمكنك أن تقول ذلك، يا ألبير؟

بهذا السؤال ردّت عليه السيدة (فورّيستير) وهي أقل مذلّة من خط الاستواء، فيما إذا شكا أحد أنه يشعر بالبرد الشديد ويكاد يتجمد عنده.

إنّ الكون بكامله ينحني أمام موهبتي، هيا أذكر لي أحدا يمكنه أن يضمّن النقطة والفاصلة ذلك القدر الكبير من السخرية اللاذعة؟

- اكتسبي الجمهور واستميليه بقصة مثيرة، تكتبينها بأسلوب بسيط ومنقح، فتؤمنين ثروة عظيمة.

فقالت السيدة (فورّيستير):

- إني لم أفتح، طيلة حياتي، رواية بوليسية، وقد حدّثوني عن كاتب يدعى (بارنيس) يقيم في نيويورك، كتب على ما يبدو رواية بعنوان (سرّ هنسوم كاب) ولكني بالطبع لم أقرأها.

فقالت السيدة (فوفيت):

- إنها فرصة ينبغي انتهازها، ولكن قبل كل شيء بلا قصة حب، فهي تبدو في غير مكانها المناسب، في الرواية البوليسية، بل جريمة

قتل ورجال شرطة مع كلابهم البوليسية، وهم يتعقبون القاتل، وبخاصة يجب ألاّ يعرف اسم الجاني قبل الصفحة الأخيرة هذا ما يجب عمله.

وأخذ (ألبير) يوصيها قائلاً:

- ولكن عليك أن تكوني صادقة مع القارئ، فممّا يزعجني دائماً أن تحوم الشبهات حول سكرتير إحدى سيدات المجتمع، ثم يكتشف فيما بعد أن الجاني، هو الخادم الثاني الذي لم يبَد، إلاّ لكي يقول:

(العربة جاهزة) حيري القارئ، وأثيري اهتمامه بقدر ما تستطيعين، ولكن لا تسخري منه.

فعادت السيدة (فوفيت) تلحّ بقولها:

- إني مولعة بالروايات البوليسية: أريني سيدة بفستان الرقص مزدانة بالمجوهرات والماس، ممدّة على أرض المكتبة، وفي قلبها غرست سكينة: وأنا واثقة أني سأقضي أمسية ممتعة.

فقال (ألبير):

- لكل منّا ذوقه، أنا أفضّل رؤية محام، يحظى باحترام كبير في المجتمع، عارضاه بارزان و سلسلة ذهبية تزين صدره، ملقى في إحدى ممرات حديقة (هايد بارك)..

فقاطعته السيدة (فوفيت) قائلة:

- وقد قطع عنقه؟

- كلا، وقد طعن بخنجر في ظهره، فبالنسبة للقارئ، فإن مقتل رجل نبيل (جنتلمان) مسن يحدث تأثيراً قوياً وخاصاً على القارئ وخاصة إذا كان يتمتع بسمعة لا تشوبها شائبة. وإنه لأمر مثير أنّ الحياة البسيطة والتي لا غبار عليها في الظاهر، يمكن أن تخفي سراً رهيباً.

وقالت السيدة (فوفيت):

- لقد أدركت ماذا تعني، يا (بيرتي) لقد كان مؤتمناً على سرّ خطير.

فقال (ألبير) وهو يبتسم لزوجته بمودّة:

نستطيع أن نرشدك إلى جميع الأساليب والأسرار، يا عزيزتي فقد قرأت المئات من الروايات البوليسية.

- أنت؟

- نعم وهذا هو الأمر الذي أدى إلى التقارب بيننا. أنا و(كورينّ) فأنا كنت أعطيها إياها، بعد الانتهاء من قراءتها.

- وكم مرة سمعته يدير مفتاح المصباح عند طلوع الفجر! حقاً كنت عند ذلك أشعر بالارتياح، وأقول في سري، أخيراً لقد انتهى من القراءة! والآن يستطيع أن ينام مطمئناً.

فنهضت السيدة (فوريستير) وقالت بوقار وبصوت يشوبه بعض التأثّر:

الآن أدركت أنّ هنالك هوّة بيننا لقد عشت طيلة الثلاثين سنة في وسط النخبة المختارة من الأدباء الإنكليز. وكنت تقرأ مئات الروايات البوليسية!.

فقاطعها (ألبير) وهو بادي الرضا والسرور:

- مئات ومئات!

- لقد أتيت إلى هنا وأنا على الاستعداد وراضية بجميع التنازلات المعقولة لكي أقنعك بالعودة، ولكني الآن لا أرغب بذلك، فقد برهنت لي للتو أنّ ليس بيننا، أنت وأنا، أيّ شيء مشترك، أيّ شيء على الإطلاق. وليست حفرة هي التي تفصل بيننا، بل هوة عميقة.

فقال (ألبير) متفلسفاً:

- حسن جداً، يا عزيزتي. إني أنحني أمام قرارك ولكن فكري بالرواية البوليسية.

فالتفتت السيدة (فوريستير) نحو الباب، وتمتمت:

إني لن أصغي لشيء بعد الآن، وذاهبة دون أن أودعّك.

فقالت السيدة (فوفيت):

- سأرافق السيدة عند نزولها على الدرج، لأنه ينبغي الحذر من السجادة عند عدم معرفة أماكن الثقوب بصورة جيدة.

وبعظمة، ولكن ليس دون حذر، نزلت السيدة (فورّيستير) على الدرج بهدوء، وعندما فتحت السيدة (فوفيت) الباب، واقترحت أن تذهب لتجلب لها سيارة أجرة، هزّت رأسها وقالت:

سأستقل التراموای.

فقالت لها (فوفيت) الطيبة القلب، بلهجة فكهة:

- أرجو ألاّ تقلق السيدة على سيدي، فهو لن ينقصه شيء فقد اعتنيت بالسيد (فوفيت) طيلة ثلاث سنوات أثناء مرضه الأخير، ولديّ الخبرة الكافية في هذا المجال، وهذا لا يعني أن السيد (ألبير) ليس قوياً ونشيطاً بالنسبة لسنّه، وهو، بالطبع، سيكون لديه هواية يتسلى بها، ويلهو بها فسيقوم بجمع الطوابع، لأنّ أيّ رجل ينبغي أن يكون له هواية يمارسها ويلهو بها.

فانتفضت السيدة (فورّيستير) ولكن في تلك اللحظة، بالذات ظهر التراموای، فاندفعت إلى وسط الطريق، وهي تلوّح بيدها بعصبية شديدة، مجازفة بحياتها، كما تفعل جميع النساء حتى اللواتي منّهن يلفتن الأنظار بمظهرهن الذي ينم عن الروية والتعقل.

وتوقف التراموای، فصعدت إليه وأخذت تفكر:

كيف يمكنها مواجهة (سيمّونز) الذي ينتظرها في منزلها، و(كليفّورد بويلستون)؟ سيكون الجميع أيضاً هناك، بدون شك وستكون مضطرّة لتخبرهم بفشلها المريع، ولم تكن تشعر في تلك اللحظة، بأيّ عطف نحو مجموعة أصدقائها المتحمسين، ولأنها كانت قلقة بشأن الوقت، فقد رفعت نظرها وأخذت تحدّق بالشخص الذي يجلس في الجهة المقابلة لها، هل هو من أولئك الذين يمكن أن يطلب منهم إحدى

المعلومات، دون الخروج عن آداب اللياقة؟

وارتعشت: كان أمامها رجل نبيل (جنتلمان) متقدّم بالسن، لا شك أنه جدير بوافر الاحترام. والسكينة وراحة البال واضحتان على ملامحه يحيط بوجهه عارضان كثيفان وعلى بطنه تدلّت سلسلة ذهبية: تطابق عجيب اعتقدت أنها تبينت فيه إشارة ودليلاً من القدر، فهو الرجل نفسه الذي قال عنه (ألبير) أنه ملقى في حديقة (هايدبارك) وكل شيء كان يشير إلى مهنته كمحام فهو يرتدي سترة سوداء وبنطالاً رمادياً، وعلى رأسه قبعة عالية، وإلى جانبه محفظة جلدية سوداء، وعند منتصف طريق (فوكسهول بريدج) طلب من السائق التوقف، ورأته يختفي في زقاق وسخ. لماذا؟ أه! لماذا؟ وفي محطة (فيكتوريا) انتزعها من استغراقها في التفكير نداء المفتش بصوته الخشن.

لقد كتب (إدجار آلان بو) قصصاً بوليسية. واستقلّت إحدى الحافلات. فجلست في إحدى الزوايا واستسلمت لأفكارها. ولكن عند زاوية حديقة (هايد بارك) قررت فجأة أن تنزل. لأنها لم تعد تستطيع البقاء هادئة، كانت تشعر بالحاجة إلى الحركة. وبخطوات بطيئة اجتازت المدخل وهي تلقي حولها نظرات متفحّصة وشاردة في آن معاً. نعم، كان هنالك (إدجار آلان بو) ولا أحد يمكنه أن ينكر ذلك. وأمام تمثال (أشيل) توقفت وأخذت تتفحصّه بانتباه شديد.

وعندما عادت إلى منزلها، كان في غرفة الانتظار صف طويل من القبعات.

فدخلت الصالون عند ذلك، صاحت الآنسة (ويترفورد):

وأخيراً، هاهي!.

فتقدمت السيدة (ألبير فوريستير) مبتسمة، بادية النشاط.

وصافحت الأيدي التي امتدّت نحوها. كان الجمع كله هناك: (سيمونز) (كليفورد بويلستون) (هاريّ أوكلاند) و(أوسكار شارل) وصاحت بأعلى صوتها:

يا أصدقائي المساكين، أين الشاي؟

إني لا أعرف كم هي الساعة الآن، ولكن لا بدّ أن الوقت متأخر جداً

- إيه وماذا بعد؟ ما الخبر؟

- لديّ خبر غريب لا يصدّق أريد أن أعلنه لكم، لقد ألهمت أمراً بل، إني أستطيع القول لقد تلقيت وحياً، ولماذا تكون الغلبة للشيطان؟

- ماذا تعنين بهذا القول؟

فتمهّلت بعض الوقت، لأحداث التأثير الذي تريده، ثم قالت، دون مقدمات:

- سأكتب رواية بوليسية.

فنظروا إليها، فاغري الأفواه. وبإشارة من يدها منعتهم من مقاطعتها، والحقيقة هي أنّ لا أحد كان يشعر بالرغبة بالكلام.

- سوف أرفع مستوى الرواية البوليسية إلى مرتبة العمل الفني. وقد خطرت لي هذه الفكرة. بشكل مفاجئ، في حديقة (هايد بارك) سأكتب قصة جريمة قتل، ولن أعطي حلّ لغزها إلاّ في الصفحة الأخيرة،تماماً وسأكتبها بلغة إنكليزية سليمة وراقية، وبما أني، منذ بعض الوقت، يساورني شعور بأني ربما قد استنفدت وسائل وإمكانيات النقطة والفاصلة، فسأعتمد من الآن فصاعداً على النقطة، فحتى الآن لم يستغّل أحد ما يكمن فيها من غنى وإمكانيات، الدعابة، الخفايا والأسرار:

تلك هي أهدافي وسأسمي هذا الكتاب: (تمثال أشيل).

فصاح (سيمونز) وهو أول من صحا من صدمة المفاجئة:

- يالـه مـن عنـوان ! فأنـا أسـتطيع أن أبيـع حقـوق النشـر إلـى المجلات والنشرات الدورية، بالاعتماد فقط على اسمك وعلى هذا العنوان.

فسألها (كليفورد بويلستون):

- وألبير؟!

فأخذت السيدة (فورّيستير) ترددّ:

(البير ؟ ألبير! ألبير؟!)

وكان يمكن أن يَقسم أيّ من الموجودين أنها لم تكن تفهم أو تتذكر شيئاً، وأخيراً كما لو أنها تذكرت فجأة، فأرسلت صراخاً خافتاً وقالت:

ألبير ! أه ! هذا هو إذن الذي خرجت من أجله!

ولكني نسيت ذلك تماماً، وقد أتاني الإلهام بينما كنت أتنزه في حديقة (هايد بارك).

وستعتقدون جميعكم إنني مجنونة.

- أنت إذن لم تري (ألبير)؟

- ألبير لم يعد له وجود، بالنسبة لي. وأطلقت ضحكة خفيفة، وتابعت:

فلنتركه لطباختّه! فلديّ شيء أخر أعمله، غير اهتمامي به.

إن (ألبير) ينتمي إلى مرحلة (النقطة والفاصلة) وأنا سأكتب رواية بوليسية.

فقال (هاريّ أوكلند) وهو يمدحها ويداعبها:

عزيزتي، إنك، حقاً مدهشة!

الفهرس

فضيلة..... ٥

الدزينة التي اكتملت..... ٥٧

الهوس القاتل..... ٩٥

الحسناء (جين)..... ١٥١

يا لها من شاذة مستهترة..... ١٨٩

الأديبة..... ٢٣٩

من منشورات دار علاء الدين

- ذكريات غيشا
  آرثر غولدن
- حواء تخرج من أنقاضها
  آناندا ديفي
- زنوبيا ملكة تدمر - رقص الآلهة
  أ. ب دانييال
- الحب المتبادل بين الزوجين
  البرتو مورافيا
- خبز فوق الماء
  اروين شو
- قرب النهر أبكي
  باولو كويلهو
- محارب النور
  باولو كويلهو
- بؤس الشيطان
  بريم ستوكر
- جاز
  توني موريسون
- أخوية اليقظانين
  جاك اتلي
- مشاهد من حياة كهنوتية
  جورج اليوت
- إيفا
  جيمس هادلي شيز
- النطع
  جينكيز ايتماتوف
- مرآة الحبر مختارات
  خورخي لويس بورخيس
- الحجلة لعبة القفز بين المربعات
  خوليو كورتاسار
- نذير بالشر
  دافيد سلتزر
- مذكرات امرأة
  روش بدرخان
- فصل الراحة
  غور فيدال
- قليل من حرارة الشمس في الماء البارد
  فرانسواز ساغان
- ٩٩ فرنكاً
  فريدريك بيغبيدير
- نوافذ على العالم
  فريديريك بيغبيدير
- ويدوم الحب ثلاث سنوات
  فريديريك بيغبيدير
- الأرواح الرمادية
  فيليب كلوديل
- حفيدة السيد لنه
  فيليب كلوديل
- لعبة حب مجنون
  كريستين اوربان
- عائلة كاردينال
  لدوفيك هاليفي

William Somerset Maugham

وليم سومرست موم

- ولد في باريس حيث كان يعمل والده في السفارة البريطانية عام ١٨٧٤.

درس الطب في جامعة هالدلبيرغ الألمانية.

- كتب للمسرح عدداً من المسرحيات.

عمل في الحرب العالمية الأولى عميلاً سرياً مع رئيس الاستخبارات البريطانية.

- كتب الكثير من الروايات وبرع في كتابة القصص القصيرة وأُنتجت بعض أعماله سينمائياً ولاقت رواجاً كبيراً.

- يعتبر من أشهر الأدباء الإنكليز.

- توفي عام ١٩٦٥.

أنماط غريبة من الحب

سومرست موم

أنماط غريبة من الحب

اغتسل قلمه بمطر ربيعيّ ورديّ الأريج، وعبر بنا مسالك نديّة في معارج النفس الإنسانية، مسالك غريبة ولكنها مسكونة بالحب.

رصد حالات لها نكهات خاصة، وملامح خاصة، وعذوبة خاصة، كما لها نزفها الخاص. ارتحل بعيداً في الأوردة والشرايين ليصيخ السمع لنبض قلوب عاشقة في ظروف استثنائية.

يؤكد الكاتب الكبير **سومرست موم** في هذه المجموعة القصصية على أن الحب لا يعرف القيود أو الأعراف ولا مخافر اعتقال العواطف، وأنه حصانٌ وحشيٌ يرفض السرج ويحطم الأسيجة، وغيمة تنثر ذاتها على أي روض تشاء.

يطلب الكتاب على العنوان التالي : دار علاء الدين للنشر والطباعة والتوزيع
سوريا - دمشق ص.ب. ٣٠٥٩٨ - هاتف ٥٦١٧٠٧١ - فاكس ٥٦١٣٢٤١